RAGHID NAHHAS
رغيد النحّاس
ها
أنا
هذا

ها أنا هذا/ حكايا

**رغيد النحّاس** /مؤلّف أستراليّ-سوريّ

Title: Here I Am (Prose book in Arabic)
Author: Raghid Nahhas


- الناشر: دار نلسن للنشر – بيروت
- الإشراف والإخراج الفني دار نلسن- لبنان
- طبع في بيروت – الطبعة الأولى - 2024
- البريد الالكتروني:

darnelson@hotmail.com

صورة وتصميم الغلاف، والرسوم الداخليّة: **رغيد النحّاس**



© All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the author.

**جميع الحقوق محفوظة** .لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من المؤلّف.



رقم الناشر الدوليّ: ISBN 978-614-502-002-8

**المؤسس يوسف سلامة (1925–2000)**

دار نلسن

رغيد النحّاس

# ها أنا هذا

إلى كلّ القلوب التي استوطن فيها حبّي، وكلّ البلاد التي وطأتها قدمي، وكلّ حيّ وجامد أغناني بجمال تكوينه. إلى الكون العريض الذي لا زال يستضيفني بنعمته.

رغيد

# حكمة صديقة

عندي صديقة على غاية كبيرة من الثقافة والتهذيب والمعرفة والحرص على الآخرين، ودائمًا تشارك بفيض حكمتها.

استشرتها، في المرحلة الأخيرة من إعداد المجموعة الحاليّة، بشأن "الإهداء" الذي سأستعمله فيها.

الإهداء الذي عرضته عليها ضمّ قسمين صغيرين. كان سؤالي لها: "هل تعتقدين أنّ إهدائي طويل وممل؟"

أجابت قائلة: "أعتقد أنّه جميل كلّه وسيكون أجمل إذا حذفت القسم الثاني. ليس لأنّ الإهداء طويل. هو ليس كذلك. وليس لأنّ القسم الثاني غير جميل. بل هو جميل.

إذا اقتصر الإهداء على القسم الأوّل فقط، فهو كفنجان قهوة بملعقة سكّر واحدة. أما إن احتوى القسمين فسيكون كفنجان قهوة بملعقتين من السكّر. هذا يعني إضعاف كماله.

بالقسم الأوّل وحده، هو كامرأة ترتدي قلادة أنيقة. أمّا بالقسمين، فهو كامرأة ترتدي قلادتين أنيقتين. ومع أنّ كلّ قلادة أنيقة بحدّ ذاتها، إلّا أنّ ارتداءهما معًا يضعف أناقة الإطلالة ككلّ."

إهدائي في المجموعة الحاليّة (الصفحة السابقة) جاء بعد اعتمادي نصيحة صديقتي. الشكر الكبير لها على كلّ نصائحها.

# المحتويات


هذه المجموعة 9
"واو" 11
كان فجرًا قصيرًا جدًّا 13
نجوم الليل 18
الساعة الواحدة ظهرًا 27
البحر بيروت والجبل 34
عندما تضيع ألوان الغروب 41
توت شاميّ 44
التانغو الأزلي 54
الطيّارة 59
رنين 66
صداقة "عَ الريحة" 71
كلمة واحدة 75
الحبّ في زمن كورونا 77
ها أنا هذا 78
اللعب بالفراشات 81
الحديث الطويل 85
سيناريو 86
كوابيس كارافاجيو 88
نهار وليل 90
أبواب 91
شروق 95
جدّو 97
خواجا خليل 103
نيسان 1975 106
أوّاه يا امرأة 110
عندما تهتزّ الجدران 112
شحنتان 114
أنقاض 116
فليمنغْتُن ماركت 118
هذا العصر التقانيّ 121
ستة وماشي بالسبعة 124
إسماعيل 133
طريقي الكبير إلى العيد 135
مفارقات بوليسيّة 137
مفارقات ماليّة 141

قيد نفوس 143
تحليق 145
هرولة 152
زيارة 155
عمّة عايدة 159
مئة سنة وسنة، حكايتي ... 164
نهاية وبداية 167
"هاي تي" 168
اسمي ياسمين 170
اسمي يعقوب 172
تعاطف 173
الهديّة 176
أحبّك بالثلاثة 178
عندما كنت طفلًا 180
طغيان التقانة و ... 182
مفردات عمق الإحساس 185
مفارقات عائليّة 186
المؤلّف 193

# هذه المجموعة

عنوان المجموعة الحاليّة، "ها أنا هذا"، هو أيضًا عنوان أحد النصوص فيها (صفحة 78). وسبق نشر هذا النصّ على موقِعَيْ "التلغراف" و"سيدر بوست" في سيدني، 1-2 نيسان 2022، وفي مجموعة "خطوط وألوان"، منشورات كلمات، سيدني 2022.

وتعرّفت أنا إلى هذا الأسلوب في التعبير، على ما أذكر، من كتابات الأديب الكبير الدكتور طه حسين. روايته "دعاء الكروان" هي أوّل رواية عربيّة قرأتها، وكان عمري أربع عشرة سنة (أي منذ ستين عامًا).

دأبت على استعمال هذا التعبير، وأمثاله، في كتاباتي عوضًا عن التعبير السائد "ها أنا ذا"، منذ مدّة طويلة. مثلًا استعملت "ها هو هذا" في قصّتي القصيرة، "نجوم الليل"، الواردة في هذه المجموعة (ص18)، والتي سبق نشرها عام 1993 في "السفير"، عدد 6629، بيروت.

يعود الفضل في نشر أوّل قصّة قصيرة لي للأديب الدكتور سهيل إدريس الذي كان يرأس تحرير مجلّة الآداب المرموقة. القصّة كانت "كان فجرًا قصيرًا جدًّا"، نُشرت في العدد 10-11، السنة 26، عام 1978. كان عمري 29 سنة، وكنت في بريطانيا أتعاطى الشأن العلميّ. ترد القصّة عينها ضمن المجموعة الحاليّة (ص13).

تتألّف المجموعة الحاليّة من نصوص نثريّة بعضها قصص قصيرة، ومنها ما يقترب من القصّة القصيرة، وغيرها نثرٌ سُرد بأسلوب القصّة. لكنّها كلّها حكايا تمزج بين التجارب الشخصيّة، وبين انطباعاتي عن تجارب الآخرين، وعن أحداث الحياة، والعالم الذي يحتضنها. تغطّي مساحة بين قرنين، تبدأ في منتصف الخمسينيّات من القرن العشرين، وتستمرّ إلى اليوم في عام 2024. تتناول الشأن الإنسانيّ، من حفلة عيد ميلاد لصبيّ صغير، إلى التدمير الهمجيّ لغزّة الفلسطينيّة.

ليست كلّ النصوص التي أسردها بلغة المتكلّم تتحدّث عنّي، وليست كلّ النصوص التي أسردها بلغة الغائب بمعزل عن تجاربي.

بعضها، الذي يتناول تجاربي الشخصيّة، لم أكتبه كمحض سيرة ذاتيّة، وإنّما اخترت وقائع تنسحب على شؤون وشجون كثيرين.

أركّز في نصوصي على العلاقات الإنسانيّة بما فيها من نور وظلام، وتبدّلات، واختلافات في الأمزجة والتوجّهات، بكلّ طلّها وشررها. وأنا بذلك أريد التأكيد على تواصل الإنسان مع الكون الواسع بكلّ النواحي الجسديّة والروحيّة المتاحة، بل إنّني لا أعتبر "الروح" أمرًا منفصلًا عن "المادّة". وأعتبر أنّ علاقة الحبّ بين شخصين أساس لفهم العالم، وترسيخ المحبّة الإنسانيّة.

سبق نشر معظم هذه الأعمال في وسائل الإعلام الأستراليّة والعربيّة، وفي ثلاثة كتب لي نشرت في أستراليا، وهي:

- "طلٌّ وشرر"، منشورات كلمات، سيدني 2013.
- "نصوصٌ عاديّة"، منشورات كلمات، سيدني 2020.
- "خطوطٌ وألوان"، منشورات كلمات، سيدني 2022.

الهدف من جمع هذه المختارات هنا هو نشرها في العالم العربيّ، وأتقدّم بالشكر إلى دار نلسن على إتاحة هذه الفرصة.

شكري الكبير إلى الدكتورة رغدا النحّاس-الزين على تقديم المشورة اللغويّة.

التعليقات الواردة على الغلاف الخلفيّ مأخوذة من تعليقات النقّاد على تلك الأعمال. الشكر لهم جميعًا.

رغيد النحّاس

# "واو"

كانت تلك سنتي الأولى كتلميذ للعلوم في الجامعة الأميركيّة في بيروت. وكانت من ضمن الموادّ المفروضة علينا، في برنامج الفصل الأوّل، مادّة اللغة الإنكليزيّة المسمّاة "إنكليش 201".

كنت بارعًا في تلك المادّة، وكانت مواضيع الإنشاء التي أكتب تنال إعجاب المدرّسة الشابة، رائعة الجمال.

ذات يوم كالت بمديحها على أعمالي أمام التلاميذ، لكنّها أضافت: "رغيد، يجب أن لا تبدأ الجملة بـ'و'."

أجبتها: "لكنّ إرنست همينغواي يفعل ذلك."

قالت بتهكّم واضح: "ولكنّك لست همينغواي، بحقّ السماء!"

# كَانَ فَجْرًا قَصيرًا جدًّا

أطلّ الحاجّ بشير من إحدى نوافذ الطبقة العلويّة من منزله والمشرفة على فناء داره العربيّة الأصول، الشرقيّة الملامح، ونظر إلى السماء يتفحّص لون اللانهاية مترقّبًا أذان الفجر.

سرت في جسمه قشعريرة من نسائم باردة، ومن هدوء عميق كان يخيّم على تلك اللحظات النشطة من حياته. ومع أنّه ظلّ يزاول هذه التجربة الحسيّة على مدى السنين، لم يستطع أنْ يجد في السماء لونًا يتغيّر فيعتمد عليه في تحديد لحظة أذان الفجر، أو نجمًا يبتسم له فيقول: فجرًا سعيدًا أيّها الحاجّ. ومع هذا كان يردّد في زوايا تفكيره "سبحان مالك الملك"، كلّما رمى بأنظاره العميقة في أبعاد الفضاء، وكان يبتسم راضيًا عن نفسه لأنّه كان يشعر بأنّه يكرّس الكلمات المقدسة: "وتأمّلوا في خلق السموات والأرض ..." أمّا بالنسبة للأذان، فإنّ صوت المؤذّن يبقى هو الحكم النهائيّ على صحّة التوقيت. أمّا كيف يعرف المؤذّن متى يجب أنْ يؤذّن، فهذا شيء لم يسرح فيه خيال الحاجّ، بل كان همّه الأكبر كلّ صباح أنْ يوقظ زوجته الحاجّة سميّة، ثم ينزل إلى فناء الدار ليتوضّأ من ماء البركة المتربّعة في الوسط. ومع أنّ الماء الساخن متوفّر في الطبقة العلويّة من الدار، فإنّ الحاجّ كان موقنًا بأنّ الثواب هو على قدر المشقّة، وأنّ عليه استعمال الماء الطبيعيّ البارد حتّى في أيّام دمشق الشتويّة القارسة.

كان بعد أنْ يتوضّأ، ويتمتم بآيات الشكر والحمد والثناء على الله، والأنبياء وخاتم الأنبياء، وعلى الأولياء والخلفاء، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات، يرفع رأسه باتجاه النافذة المفتوحة في الطبقة العلويّة مناديًا: "يا أمّ توفيق ... يا أمّ توفيق ... حين ينادي المؤذّن ... خبّريني."

ولم تكن الحاجّة سميّة بحاجة لهذا التذكير الذي سمعته آلاف المرّات ... بل إنّ عملها الوحيد من لحظة إيقاظ الحاجّ لها، وحتّى سماع أذان

الفجر، هو الإنصات للحظة الأذان. وكان هذا واجبًا عليها لا مفرّ لها منه، بعد أنْ احتفظت السنين الطويلة بمعظم صحّة الحاجّ خلا بعض المشكلات، ومنها ضعف قدرته على سماع الأذان الذي يتردّد من مآذن المسجد الأمويّ. ولا عجب في ذلك، فإنّ الحاجّة التي تصغره بثلاثين عامًا تلاقي بعض الصعوبة أحيانًا. ولكنّها كانت دائمًا تنتظر لحظة الفرج بصبر، فما أنْ تسمع الصوت المتردّد من أعماق الفجر الساكن حتّى تخبر الحاجّ، وتتمتم إلى نفسها بأنْ ياليت الحاجّ يؤمن بأنّ التوقيت المكتوب في التقويم هو صحيح، ولربّما كان المؤذّن نفسه يعتمد على أيّ تقويم متوفّر لديه. أمّا الحاجّ - "أعانني الله عليه" - لا يؤمن إلّا بذلك الصوت الرخيم الذي ما عاد يسمع منه في الفجر إلّا صدى ذكريات خلت.

عندما اطمأنّ الحاجّ بأنّ زوجته قد نهضت من فراشها، توجّه بقامته الطويلة النحيلة يجرّ قدميه في قبقاب خشبيّ من صنع أحد مشاغل "القباقبيّة"، جانب المسجد الأمويّ، سبق أنْ ابتاعه منذ ما لا يدريه من السنين. توجّه نحو الدَرج الذي يوصله إلى فناء الطبقة الأرضيّة من الدار. بدأ الهبوط بخطوات رتيبة الوقع، وعلى طريقته الخاصّة، تلك الطريقة التي صار الفجر معتادًا عليها منذ دخل الحاجّ في سنوات حياته الشيخة.

رفع طرف قنبازه الأبيض المقلّم بخطوط منقّطة رماديّة اللون بيد، واعتمد بيده الأخرى على حافّة الدرج، ثم نقل قدمه اليمنى إلى أوّل درجة، وتبعها بالقدم اليسرى إلى الدرجة نفسها، ثم توجّه باليمنى إلى الدرجة الثانية، ثم تبعها باليسرى، وهكذا. كان خشب القبقاب العريق الذي يطأ خشب الدرج مع كلّ نقلة يُكسب الفجر إيقاعًا خاصًّا يستمرّ حتّى يصل الحاجّ إلى فناء الدار المكشوف، فيتغيّر الإيقاع، وتتسارع الأقدام، وخشب القبقاب يشحط شحطًا على بلاط الباحة.

توضّأ الحاجّ بسرور عميق. ولولا رتابة الوضوء وروتينه لبدا الحاجّ وكأنّه طفل يحبّ العبث بماء البركة. استدار ورفع يديه المبتلّتين عن جسمه،

وأدار رأسه مناديًّا زوجته أنْ تنصت لأذان الفجر، ثم توجّه إلى غرفة كان يؤدّي فيها فرائضه.

كان عليه حتّى يصل إلى الغرفة أنْ يصعد درجتين من الحجر الأسود فيما هو رافع بيديه. كان هذا يتطلّب منه بعض الجهد، ويأخذ منه بعض الوقت، حتّى يصل إلى منشفته فيجفّف نفسه، ثم يركن إلى زاوية الغرفة، ويقعد على أرضها فتقعد معه ست وتسعون من السنين، شهدت الاحتلال العثمانيّ، والحربين العالميّتين، ثم الاحتلال الفرنسيّ لبلاده، وإنجابه أحد عشر ولدًا، وإنجاب كلّ منهم أكثر من نصف دزّينة من الصبايا والصبيان، وآخر ما فيها - وليس الأخير - اختراع ذلك التلفاز العجيب الذي أصرّ أحفاده على إدخاله إلى البيت حتّى تتسلّى زوجته التي "مازالت في ريعان السادسة والستين". كانت هذه الأفكار تترامى إلى رأسه وهو يفتح القرآن ليباشر قراءته اليوميّة قبل صلاة الفجر.

وضع القرآن بين يديه، وقبل أنْ يباشر بفتحه تراجعت إلى مخيّلته مناقشة حادّة جرت بينه وبين حفيده رؤوف. كانت كالعادة مناقشة بين ستّ وتسعين من سنوات التحفّظ والتديّن، وبين سنوات عشرين من التحرّر والثورة على التقاليد. كان الحاجّ كلّما تذكّر كلمة من كلمات رؤوف، يرفع رأسه إلى الله مخاطبه أنْ سامحه واهده إلى صراط مستقيم. ولكنّ الحاجّ ما يلبث أنْ يتذكّر فحوى كلمات حفيده الذي أحبّ أكثر من كلّ أحفاده، وفضّله عليهم أيّما تفضيل، غير أنّه ما كان ليتوقّع أبدًا أنْ يكون رؤوف، المتّقد الذكاء، والشديد الوسامة، والعظيم الأدب، السبّاق إلى الثورة على العرف والتقاليد. ويبتسم الحاجّ فجأة حين يتذكّر قول رؤوف له: "ياجدّي إنك إنسان عظيم، فعلى الرّغم من كلّ أفكارك تنصت إليّ وتناقشني بصبر طويل. أمّا غيرك من الشيوخ فلا مجال لنا في الكلام معهم، بل يتشاطرون برمي التهم والادّعاءات على الشباب وعلى أفكارهم، دون فهم نفسيّاتهم ومتطلّبات عصرهم الجديدة."

"عفوك يا ربّ،" قال الحاجّ في سريرته، وهو يشعر أنّ كلام حفيده بدأ يفعل في نفسه فعل الرشوة. ولكنّ الحاجّ كان على كلّ حال فخورًا جدًّا بأنّه الوحيد من شيوخ الحيّ الذي اشتهر بانفتاحه على الشباب الثائر. وكان الحاجّ دائمًا عرضة للانتقاد من أقرانه الذين شنّوا حربًا سوداء على هؤلاء "المراهقين". كان الحاجّ يتلمّس في قرارة نفسه فرقًا واضحًا بين المراهقة وبين الثورة والتغيير. كان مستعدًا للنقاش، وكان عادة من أبرع من يناقش دفاعًا عن العرف والتقاليد.

"يا حاجّ ... يا حاجّ ... الفجر الفجر يا حاجّ ..."

سمع الحاجّ بأذنيه نداء زوجته الذي صار روتينًا يوميًا، ولكنّه كان شارد الذهن في تلك المناقشة الحادّة التي كانت عائقًا بين الأذنين والقلب. ففي تلك اللحظة بالذات كان يفكّر بالذي قاله رؤوف عن الوجود والعدم. كان يفكّر في تلك الكتب التي كان يجلبها رؤوف، ويقول له: "يا جدّي، سأقرأ القرآن مرّة كاملة كلّما قرأتَ كتابًا من هذه الكتب!" كان يتذكّر كيف أنّه تعرّف إلى هيجل وماركس وسارتر وفرويد من طريق حفيده رؤوف. وهو وإنْ لم يفهم ماهيّة هؤلاء القوم، فعلى الأقلّ قد سمع عنهم، وساعده رؤوف في فهم الكثير من أفكارهم، ولكنّها أفكار غريبة جدًّا عليه. ومع هذا تحرّك عقله الآن بمشكلة جديدة. مشكلة فتحها عليه ذلك "اللعين الصغير" الذي جاء يتكلّم عن المنطق العلميّ وعن داروين ... عن عدم قبول الأشياء كما وردت، بل التفكير في لماذا وردت، وكيف وردت. على كلّ حال كان فرحًا بأنّ أقرانه الشيوخ لا يفقهون شيئًا من هذه المسائل الغريبة العجيبة. أمّا هو فصار يعلم. وكان ما يزعجه أنّه تعلّم هذه الأشياء من حفيده "الصغير". آه من ذلك اللعين. لقد كدّر عليه صفو دينه ودنياه. فها هو الحاجّ الآن ينظر إلى عشرات السنين الماضية، وهو يعلم أنّ كلّ شيء قد لا يكون سوى الوهم. يا ليته لم يناقش رؤوف، ويا ليته بقي على ذلك "الوهم الكبير".

وبدا للحاجّ فجأة أنّه بدأ يتحدّث عن كلّ معتقداته بصفة الوهم! تسارعت دقّات قلبه، وارتعشت حناياه لهذا التفكير، واستغفر الله كثيرًا،

وهرع يفتح القرآن ... وكم كانت دهشته عظيمة حينما وجد أنّ بعضًا من السطور قد أنارته خيوط الشمس التي بدأتْ تتسرّب من نافذة مخدعه. مرّر كفّه على صلعته، ثم مسح وجهه بكفّه ضاغطًا ببعض أصابع يده على عينيه، ونظر مجدّدًا إلى صفحات الكتاب وقد أضاءتها الشمس. قام مذهولًا إلى باب الغرفة ... حافي القدمين ... وهو ينظر إلى النور الذي جاء من المشرق.

نظر إلى زوجته التي بدأتْ بخبز ما سبق أنْ عجنت، وعلم في قرارة نفسه أنّ زوجته ما كانت لتعجن العجين لو لم تؤدّ صلاة الفجر أوّلًا. كان هذا التقرير الضمنيّ تأكيدًا له على أنّ الفجر قد ولّى إلى غير رجعة، وكأنّ خيوط الشمس لم تكن كافية لتؤكّد له مع كلّ شعاع أنّ صلاة الفجر قد فاتته للمرّة الأولى منذ أنْ بدأ الصلاة في كنف والده، وهو لا زال في السابعة من عمره.

بينما كانت الدموع الجارحة تترقرق في عيني كبريائه وصموده، كان عشرون ماردًا جبّارًا يقرعون طبولًا مدوّية في رأسه، ويصرخون بصوت شابّ واحد: "لقد كان فجرًا قصيرًا يا جدّي!"

# نجُومُ اللَيل

توجّه الحاجّ صبحي برأسه إلى السماء بعد أنْ فتح قفل متجره، ورفع "الغلق"، فقال: "يا رزّاق يا كريم، اِجعل هذا النهار مباركًا بجاه رسولك الحبيب، وقنا شرّ الحسّاد ومكر الأوغاد، وقدّرنا على فعل الخير، إنك سميع مجيب." ولقد ردّد الحاجّ هذه المقولة كلّ صباح منذ تسلّم ذلك المتجر عن أبيه قبل ثلاثين عامًا.

كان، بعد أنْ يرتّب واجهة المتجر، يخرج إلى فناء الخان، ويقف أمام البركة التي تتوسّط فسحة المكان، فيحتسي فنجان القهوة الذي يعدّه له "قهوجيّ" المنطقة الذي يخدم أصحاب المتاجر الواقعة في هذا الخان الأثريّ القريب من سوق الحميديّة. وأثناء وقفته تلك، يبادل جيرانه التحيّة الصباحيّة، وهم يتوافدون واحدهم تلو الآخر، فيختلط صوت رفع الأغلاق بصوت التحيّات.

أصحاب المتاجر في ذلك الخان باعة "مفرّق"، بمن فيهم الحاجّ صبحي، عدا واحد منهم يسمّونه "الحاجّ بالوع"، يستورد البضائع من مدينة حلب، ويبيعها لبقيّة التجّار بالجملة. وكان أكثر ما يستهوي التجّار أقمشة "البروكار" المقصّبة التي اشتهرت حلب بإنتاجها؛ فحين تصل شاحنة جديدة، يهرع التجّار إلى دكّان الحاجّ بالوع للتزوّد بلفّات القماش، واحتكار أكبر عدد ممّا يعتبرونه بضاعة قابلة للتصريف السريع، والربح الوفير.

كان الحاجّ صبحي على خلاف عريق مع أحد جيرانه الذي دأب على تزوير بعض منتجات الحاجّ صبحي الخاصّة، والإساءة إلى سمعته. ولمّا كان الحاجّ صبحي ابن نِعَم توارثها أبًا عن جدّ، لم يكن من النوع الذي يستطيع المواجهة المباشرة، بل عمد إلى طرق غير مباشرة في الدفاع عن النفس، مثل البذخ في توفير البضائع، الأمر الذي كان يستهوي الزبائن، خاصّة أبناء لبنان الذين كانوا يقدمون إلى دمشق فيتبضّعون، ويشترون، ثم يتلذّذون الأطايب

بفرق العملة كما يقال. كانت الليرة اللبنانيّة في الستينيّات من القرن العشرين تزيد في قيمتها كثيرًا عن شقيقتها السوريّة. وكان الحاجّ صبحي يفتخر بأنّ زوجته لبنانيّة، فما ادّخر فرصة إلاّ وذكر ذلك أمام زبائنه اللبنانيّين، وعبّر لهم عن حبّه لنصفه الآخر لبنان، ولهذا السبب خصم لهم ما تيسّر من الأسعار، وأكرمهم بالضيافة، ممّا جعله أفضل زبائن القهوجيّ على الإطلاق.

حين دخل الحاجّ صبحي الخان ذلك الصباح، حاد ببصره، كعادته، بعيدًا عن أنظار جاره العدوّ، بيد أنّه ما كان بوسعه سوى المرور أمامه لأنّ متجر الجار يقع على مدخل الخان. كان يوم أحد، وأهل الخان كلّهم ينتظرون وفود اللبنانيّين على أحرّ من الجمر. يوم الأحد، بالنسبة للحاجّ صبحي، يوم سعد! كان واثقًا من أنّ سمعته ومعرفته لعديد من اللبنانيّين سلاحان كافيان لجذب أكبر عدد منهم، وفقء عيني جاره الحسود. السؤال طبعًا، كم من الزائرين سيتحول إلى شارٍ، وكم منهم سيتناول الضيافة ويغادر.

تناول الحاجّ قهوته وهو يرسم في مخيّلته استراتيجيّة اليوم: سيستقبل الزبائن ويريهم البضائع، ويطلب الضيافة لهم، ويتمنّى لهم يومًا سعيدًا، وعودة ميمونة إلى لبنان. كيف سيتجاوب معهم إذ يحدّثونه عن شقاء السفر، والعودة في يوم واحد، مع ما يرافق ذلك من فترة انتظار صعبة على الحدود، وكيف سيبتسم لهم حين يذكرون له أنّ ما يحصلون عليه بالنتيجة يستأهل العناء. وسيتحلّى بالصبر العظيم حين تتحدّث إليه بعضهنّ استعلاءً وكبرياءً على أنهنّ بنات فلان، وأخوات علّان، من مناطق تلك وكيت، وكيف أنّه في النهاية سيفجّر بين أيديهنّ قنبلته الموقوتة التي يدّخرها لآخر الحديث، فيكشف لهنّ عن حَسَب زوجته ونسبها، فتبهت السامعات إذ يكتشفن أنّها من عائلة عريقة واسعة الثراء والسمعة والسطوة. يضحك الحاجّ بينه وبين نفسه، ويشعر بالانتصار، مع أنّ اليوم لم يبدأ بعد، وغلّته لم يدخل عليها قرش واحد.

ها هو هذا يعيد فنجان القهوة إلى دكّان القهوجيّ، فتصادفه أوّل مجموعة من الزبائن، والساعة لمّا تتجاوز التاسعة والربع صباحًا. "تفضّلوا، يا أهلًا وسهلًا بالإخوان والأهل. يا حلّت البركات. شرّفتم أرضكم وبلدكم، ونوّرتم المحلّ." وصل مساعده في العمل في الوقت نفسه، كما هرع صبيّ يكنس المتجر، ويرشّ الأرض بالماء لمنع الغبار، وتلطيف حرارة الجو.

يوم من أيّام آب اللّهاب في دمشق. وبين عشرات اللبنانيّات المتردّدات على المتاجر، لا بدّ أنْ تصادف تلك التي زادت تبرجًا وزينةً، وتبيانًا لما تيسّر من مفاتنها بشكل لا يمكن لمثيلتها الدمشقيّة محاكاته. ولهذا كانت عيون التجّار تكاد تنبثق عن محاجرها انبثاقًا كلّما مرّت واحدة من صاحبات تلك المواصفات، فتبدأ سلسلة الغمز واللمز، والأحاديث بالألغاز الرجاليّة تلميحًا إلى حسن ما يرونه، وترويحًا عن أنفسهم المتعطّشة التي ليس لها إلى النبع من سبيل سوى "فشّة الخلق" بالحديث عن "القشدة"، و"العسل"، و"سبحان الخالق"، و"يا محمّد العربي"، و"دخيل على عيسى وموسى أنا"، وما إلى ذلك.

كان على الحاجّ صبحي أنْ يصابر النفس في أمرين: الأوّل كرهه الشديد لتلك الأساليب التي كان يعتبرها قلّة في الحياء من قبل أقرانه، والثاني تلك الغريزة اللعينة الكامنة في نفسه، والتي توافق على كلّ ما يُلْمِحون إليه! "لا حول ولا قوّة إلاّ بالله." ويغضّ الحاجّ من بصره، ويركّز على زبائنه الكرام.

حين اقتربت الساعة من العاشرة والنصف صباحًا، تنبّه الحاجّ إلى توقّف الجلبة الاعتياديّة من نقاش وغمز ولمز، ومناداة على البضاعة، فبدا أهل الخان وكأنّ على رؤوسهم الطير! دخلت الخان امرأة لم يشهد المكان لها مثيلًا. وحسب تعليق الحاجّ صبحي فيما بعد، وكانت المرّة الأولى التي يشارك فيها بتعليق من هذا النوع، لا شكّ أنّ والده رقص في قبره على وقع أقدام تلك المرأة. القوام كقوام نجوى فؤاد، والوجه كوجه هند رستم، والشعر كثيف ذهبيّ مرميّ على الأكتاف، يكاد يطول أسفل الظهر، والأوراك المكتنزة

تتراقص ذات اليمين وذات اليسار، صعودًا وهبوطًا، على أنغام "الكعب العالي" الذي كانت كلّ طرقة منه تقع على أرض الخان، وكأنّها ضربة سكّين تنغرس في قلب كلّ رجل وقف مشرئبّ العنق، لاهث الأنفاس، وهو يترصّد هذا الجواد الأبيض الأصيل يمشي واثق الخطوة في اتجاه دكّان الحاجّ صبحي.

بدأ أهل الخان من التجّار الناضجين، ومساعديهم الشباب، التظاهر بأنّ لديهم أعمالًا خارج الخان، فكانوا يدخلون ويخرجون، مارّين بدكّان الحاجّ صبحي، ليلقوا نظرة على تلك المهرة الأصيلة، التي وصلت الجرأة بها أنْ تجلس وتشعل لفافة تبغ، وقد التفّت الساق على الساق، وإلى فوق الركبة بكثير كان المساق.

حين بدأت السيّدة الكلام، أحسّ الحاجّ صبحي بأنّ شلّالًا من الياسمين يغسل كلّ ناحية من نواحي بدنه الذي عاد لا يستطيع احتمال دقّات قلبه المتلاحقة انشدادًا إلى عذوبة التعابير التي انطلقت من شفاه مرسومة بريشة الشهوة العارمة. حدّثته السيّدة كيف أنّ فلانة بنت فلان، من الضيعة الفلانيّة في لبنان، دلّتها على متجر أفضل إنسان، لتشتري كميّة من أفخر ما تنتجه سوريا من البروكار المقصّب. وتريد السيّدة انتقاء القماش، ودفع ثمنه على أنْ ترسل من يحضره لاحقًا، إذا لم يكن لدى الحاجّ ما يمنع ذلك. ابتسم الحاجّ وأخبرها أنّ المتجر متجرها، وباستطاعتها إبقاء القماش أمانة لديه إلى ما تشاء وترضى.

بدأ الحاجّ يختار لفّات القماش بنفسه، ويفردها أمام ناظري المرأة، بينما كان مساعداه مشغوليْن بعدد لابأس به من الزبائن. كان الحاجّ يفرد لفّة القماش قليلًا، و"يلبّق" القماش على جسم السيّدة التي كانت تستدير نحو المرآة الكبيرة، التي تغطّي معظم الباب الذي يفصل المتجر عن مستودع داخليّ، لتنظر إلى نفسها وهي تكيّف القماش ليطابق جسمها. كان الحاجّ كلّما اقترب لتسليمها طرف القماش ومساعدتها في مدّه على كتفها، يتَنَشّقُ، بكلّ ما لدى أنفاسه من عزيمة، ذلك الأريج المعطّر الذي كان ينبعث منها.

بعد أنْ اختارت عشرات القطع، قالت للحاجّ إنّها تريد الآن اختيار قطعة خاصّة جدًّا لها، تأخذها مباشرة، وسألته أنْ يريها إنْ كان لديه ثمّة ما هو أفضل وأجمل ممّا رأت. أكّد لها الحاجّ أنّ كلّ ما اختارته جميل وجيّد، لكنّه احتفظ بأحد الأنواع للخاصّة من الزبائن المداومين، لأنّه يعتبره مميّزًا وقد لا يتكرّر، كما يسعده عرضه عليها لأنّها لا بدّ أنْ تكون منذ اليوم زبونة مميّزة. ابتسمت السيّدة شاكرة، وأكدّت أنّ زيارتها الأولى هذه لن تكون الأخيرة.

حين فرد الحاجّ القماش، نظرت المرأة إليه بشغف شديد، وعيناها تلمعان لمعان من وجد كنوز سليمان، وقالت: "يا عيني، ياعيني، ياسلام! ما هذا القماش الرائع يا حاجّ؟"

"صحيح، صحيح، إنّه أجمل وأغرب ما تمّ إنتاجه هذا العام، بل هو في نظري أجمل ما رأيت طيلة حياتي. كما ترين، الخلفيّة سوداء، وهذه الدوائر الدقيقة، الخضر والحمر والزرق والفضيّة، تتبعثر كأنّها المجرّات في عرض السماء، في مساء صيفيّ. لهذا يسمّى هذا القماش 'نجوم الليل'، وهو خروج من النقشات التقليديّة التي اعتدنا عليها."

"يا عيني، يا عيني! أريد من هذا القماش ما يكفيني لفستان 'سواريه'. بكم المتر يا حاجّ؟"

"المتر، لك أنت، بسبع ليرات سوريّة فقط يا سيّدتي الكريمة."

قصّ الحاجّ قطعة القماش، وبارك للسيّدة متمنيًّا لها أنْ يكون ملبوس هناء وعافية.

أنهت المرأة شرب فنجان القهوة الذي قدّمه الحاجّ لها، وشكرته على معاملته وكرمه، وخرجت من المتجر تحمل قطعة القماش الأثيرة. الابتسامة على وجهها، وخطواتها تتناغم كما كانت حين دخلت الخان، فلحقتها عيون أهله، وارتمت وراءها أفئدتهم من دون أنْ تستطيع إدراك المنال!

أشعل الحاجّ صبحي لفافة تبغ، وسحب من دخانها ما يكفل ملء رئتيه، وهو يتأمّل فنجان القهوة المهجور، وقد انطبعت على حافّته آثار

شفاه دسمة، ثم زفر كلّ ما احتوته أنفاسه وهو يسترخي على كرسيّ مكتبه استعدادًا لـ"مجّة" ثانية من الدخان، قبل مواصلة نشاطه مع زبائن آخرين. ما كان تأثّره هذا خافيًا على مساعِدَيْه اللذين ما شهداه على هكذا انفعال من قبل، ولكن أنّى لأيّهما الجرأة على التعليق!

حين خرجت السيّدة، تأمّلها الجار الغيور بحسد وخيبة أمل، فلكم تمنّى لو أنّها زارت متجره، وهو أكثر شبابًا من الحاجّ صبحي. كما أنّه استطاع، من خلال اختلاسه النظر إلى دكّان الحاجّ، ومن المدّة التي قضتها السيّدة داخل المتجر، أنْ يستنتج أنّها زبونة دسمة بكلّ المقاييس. قرّر أنْ يمارس أساليبه، فأخبر شركاءه أنّه ذاهب وراء السيّدة التي لا بدّ أنْ تلتقي مع رفاق رحلتها في مكان ما من سوق الحميديّة، ربّما عند "بكداش" بائع البوظة، وعندها سيحاول استمالتهم إلى متجره.

مضت ساعتان، ولقد جلس الحاجّ إلى مكتبه الآن يحتسي الشاي بعد وقوف متواصل طيلة ذلك الصباح. وبينما هو يرفع الكأس الذي أمسك بين إبهامه وسبّابته، ويهمّ باحتساء جرعة جديدة، رنّ في أذنيه وقع أقدام السيّدة نفسها، لكنّ طرب قلبه ما استمرّ طويلًا.

ما إنْ رفع رأسه حتّى لاحظ أنّ الفرس البيضاء الأصيلة قد احتقن وجهها غضبًا، وصارت أشبه بثور هائج. اندفعت المرأة إلى المتجر وهي تردّد، بنبرة حادّة، عبارات لا تتناسب مع رشاقتها ومظهرها، تعاتب فيها الحاجّ على غدره واحتياله، إذ باعها قماش "نجوم الليل" بضعف السعر، وأنّه لولا العيب والحياء لأرته "نجوم الظهر". وبين دهشة أهل الخان الذين وصلت إليهم أصواتها، وشماتة جاره الغيور الذي كان يتوقّع هذه الملمّة، تمالك الحاجّ أعصابه، وهذا أمرٌ نادر إذا ما تعرّض للإهانة، وأشار إلى المرأة بهدوء أنْ تستريح و"تروّق" أعصابها، وتعطيه فرصة اكتشاف ما حدث. سأل مساعده أنْ يحضر للسيّدة ما تشاء من عصير أو قهوة، أو حتّى كلا الاثنين معًا. مانعت المرأة أوّلًا، ثم رضخت لإصرار الحاجّ، فطلبت فنجانًا من القهوة "سادة"، ولم تتردّد بقبول لفافة تبغ من الحاجّ الذي ما قدم لفافة تبغ لامرأة

من قبل. سألها بلطف أنْ تتكرّم فتسرد عليه الحكاية، "من طأطأ لسلام عليكم".

"ياحاجّ، بعتني متر قماش نجوم الليل بسبع ليرات، وأنا لم أساومك لأنّي حضرت إليك واثقة من معاملتك، لكنّني اكتشفت أنّ سعر المتر من هذا القماش خمس ليرات فقط، ولهذا لم أعد الآن على ثقة بأنّ بقيّة ما اشتريت من عندك يناسبني."

"يا سيّدتي، وهل اشتريت أشياء أخرى من حيث اشتريت المتر بخمس ليرات؟"

"نعم، اشتريت بعض التحف الشرقيّة والنحاسيّات التي تشتهر دمشق بها."

"هل لك أنْ تعطيني فكرة عن سعر بعض ما اشتريت؟"

نعم، مثلًا اشتريت ركوة قهوة بخمس وعشرين ليرة سوريّة."

عندها ضحك الحاجّ ضحكة عالية مصطنعة، محاولًا إخفاء غيظه، لأنّه عرف فورًا كنه اللعبة. كِلفة متر قماش نجوم الليل خمس ليرات ونصف، ولا يمكن لأحد أنْ يبيع بأقلّ من ذلك دون خسارة، لكنْ لا بدّ أنّ جاره اللعين تعمّد الخسارة في هذه الحال لأنّه شاهد قطعة القماش معها، وأراد أنْ يسيء إلى سمعة الحاجّ، بينما عوّض خسارته بربح كبير من بيع النحاسيّات التي لا يتعاطى الحاجّ تجارتها، فركوة القهوة التي وصفتها السيّدة لا يزيد سعرها عن خمس عشرة ليرة سوريّة في أكثر المتاجر غلاءً. استمر الحاجّ بمعالجة الموقف بهدوء، دون أنْ يذكر جاره، أو يمسّ بسمعته أمام المرأة.

"يا سيّدتي، هذا القماش الذي اشتريت متره بخمس ليرات، لدي منه باربع ليرات ونصف فقط."

"ولكنه القماش نفسه الذي اشتريته من عندك!"

"اِسمحي لي أنْ أريك شيئًا."

ذهب الحاجّ إلى مستودع المتجر، وأحضر ثلاث لفّات من قماش نجوم

الليل، بعد أنْ كتب بعض الأرقام على حافّة كلّ لفّة، ثم فرد القماش أمام السيّدة، وأمام تعجّب مساعِدَيْه.

"هذه كلّها 'نجوم الليل'، ولا يمكن لأحد التمييز بينها. هذا الأوّل سعر متره أربع ليرات ونصف، وهو عين القماش الذي حصلتِ عليه بخمس ليرات. وهذا الثاني، سعر متره سبع ليرات، وهو ما اشتريت منّي هذا الصباح. وهذا الثالث، سعر المتر منه عشر ليرات. اِختاري ما تشائين."

"ولكن ياحاجّ، هذه البضاعة نفسها!"

"لا ياسيّدتي. هذا ما تعتقدين. ولكنّ الأوّل خيوطه محلّيّة، وكذلك صباغته. الثاني خيوطه محلّيّة، لكنّ صباغته إفرنسيّة. الثالث خيوطه إفرنسيّة، وكذلك صباغته. طبعًا الحياكة، في كلّ الحالات، تمّت في مدينة حلب. أعطيتك من الصنف الثاني لأنّه يعادل الثالث في جودته، وينقص عنه في السعر. لم أعطك من الصنف الأوّل، لأنّ مشكلة صناعاتنا المحلّيّة هي في الأصبغة، وليست في الخيوط. لو اعتبرتك زبونة غريبة لعرضت عليك كلّ هذه الأمور من البداية، لكنّ لطفك جعلني أسمح لنفسي أنْ أختار لك الأفضل، فعذرًا إنْ تجاوزت حدودي.

"معاذ الله ياحاجّ، بل أنت سامحني إذ تسرّعت في الحكم، لعن الله الشيطان، ولعن جارك الذي سبّب هذه المشاكل، ولا شكّ أنّه غدرنا بأسعار النحاسيّات التي أتمنّى أنْ أدمي رأسه بها."

"العلم عند الله ياسيّدتي، ولكنّي أنصحك أنْ تدرسي السوق جيّدًا قبل الشراء مباشرة من مكان واحد."

عادت السيّدة في عصر ذلك اليوم، مع صحبها من الرجال والنساء الذين تورّطوا وتورّطن في شراء النحاسيّات من الجار الغيور، وقد اكتشفوا فحش أسعاره بعد أنْ كسب ثقتهم بتخفيض سعر القماش بأقلّ من سعر الكلفة. انهالوا عليه سبًّا وشتمًا ولعنًا، ورموا النحاسيّات بعنف في أرض متجره، واستعادوا نقودهم وهم يهدّدون ويتوعّدون.

ما خفّت شحنة غضبهم إلاّ بعد أنْ أكرمهم الحاجّ صبحي، وطيّب خاطرهم حين أحضرتهم السيّدة للتعارف، وتكليف الحاجّ صبحي شراء النحاسيّات والتحف، من معارفه الأمناء أمثاله، إذا لم يكن لديه مانع.

# السَاعَة الواحِدَة ظهرًا

كانت تيرين تلوّح له بكلّ يدها حين شاهدته يخرج من بوابّة الجامعة إلى الزقاق الذي تركت فيه سيّارتها، فهناك الموعد المعتاد، الساعة الواحدة من ظهر أغلب أيّام الأسبوع. ولعلّه الموعد الوحيد الذي تلوّح فيه تيرين بكلّ يدها لإنسان.

يبتسم ماجد ابتسامة عريضة تغيّر من طبيعة وجهه الجدّي الحادّ القسمات. اللقاء ككلّ يوم: عناق طويل، ثم نظرات إعجاب متبادلة كأنّها تجدّد العهد، وتعيد الثقة، كلّ يوم الساعة الواحدة ظهرًا.

"سيّارتي أم سيّارتك؟"

"لا هذه ولا تلك. بعد مسيرة الأمس، أعتقد أنّني أستحقّ وجبة شهيّة، خصوصًا أنّني كنت المسلم العربيّ الوحيد في مسيرة أرمنيّة."

"يالك من مغرور! بل كان هناك عشرات المسلمين والعرب، وكلّهم أحيوا ذكرى استشهاد الأرمن."

"أنا متأكّد من ذلك. كنت أعاكسك فقط، ولعلّ المسلمين والعرب عانوا أيضًا من ظلم العثمانيّين. تعلمين رأيي. هيّا نتمشى إلى ...

"ذي غرين؟"

"بالضبط. تعرفين أنّي أعتبره أحلى زاوية في بيروت."

"أعرف ياحبيبي، أعرف. لا شكّ أنّه مكان رائع ومعتدل الأسعار، ويبدو أنّك لا تملّ منه أبدًا. هل لازلت تشرب فيه كلّ مساء؟"

"أغلب الأمسيات، وحبّذا لو تكوني معي دائمًا."

"ياليت ... ياليت!"

ويضمّها أكثر بيده التي تطوّق خصرها، وتتهادى خطواتهما حينما ينعطفان بالقرب من السفارة الإنكليزيّة إلى الكورنيش العريض. يمدّ ماجد

بصره إلى أمواج البحر الأبيض المتوسّط الهادئة، ثم ينظر في وجه صديقته الأبيض الناصع الذي صبغت عليه الشمس الساطعة لونًا ورديًّا.

"إن وجهك ياترين مثل بيروت."

"هل تعني أنّ فيه كثيرًا من الأبنية والطرقات والسيّارات؟"

يضحك ماجد بصوت يصل إلى مسامع عامل محطّة الوقود المجاورة الذي يبتسم له، ويأخذ تحيّة بيده قائلًا:

"الله مع الأستاذ، والحلوين."

"الله مع سعيد. تفضّل وتناول غداءك معنا."

"عامر! بل أنتما تفضّلا إنْ كنتما تقبلان ببعض البيض المسلوق."

"ألف صحّة. ألف صحّة."

وابتسامة أخرى من ماجد وتيرين.

"ماجد، لا شكّ أنّك تحبّ الناس كلّهم، على اختلاف طبقاتهم."

"بل أحبّ جوهر الإنسان، وما الألبسة والمراكز سوى مظاهر تكميليّة."

"كفى فلسفة، وخبّرني الآن كيف تمزج بين وجهي وبيروت."

"هل تذكرين في العطلة الماضية حين استعرنا مركب والدك، وقمنا بنزهة بحريّة؟ حينما عدنا مع الغروب، كانت بيروت على البعد ناصعة البياض على خلفيّة ورديّة اللون. كان شعرك يتطاير مع النسائم الباردة، وأنت تردّدين بعضًا من أغاني فيروز، ووجهك مصبوغ بحمرة الشمس."

"أتَذْكُر أنّني حينما وصلت إلى عبارة 'لؤلؤة بحريّة' قلت لي إنّ بيروت هي فعلًا لؤلؤة في الليل، ولؤلؤة في النهار، ومنذ تلك اللحظة نسيتَ المركب والنسائم الباردة والبحر، ونسيت تيرين، وصارت بيروت شغلك الشاغل، حتّى وصلنا إلى الميناء. أيّها الخائن!"

"أعرف أنّك لا تلومينني، فانت تحبّين بيروت أكثر ممّا أحبّها أنا."

"اتّفقنا. غلبتني!"

"أتمنّى أنْ أغلبك حتّى النهاية."

"ماذا تعني؟"

"أتمنّى أنْ يكون حدسي صحيحًا، وأنْ يكون وقف إطلاق النار هذه المرّة نهائيًّا بعد مرور أكثر من شهر دون حوادث تذكر، وليس كما يتنبّأ البعض، ومنهم أنت ... لم أعرف أنّكِ متشائمة إلى هذا الحدّ."

"أنا لست كذلك، لكنّي أعتقد أنّ حرصك على بيروت يجعلك تتصوّر أنّ القضيّة أبسط ممّا هي عليه. إنّ مثاليّتك توهمك أنّ الإنسان لا يمكن أنْ يقوم بهذه الأعمال التي نسمع عنها ونشاهدها، خصوصًا أنّ هذا الإنسان يدّعي أنّه أكثر بشر المنطقة مدنيّة وثقافة."

"إنّه أمر غريب حقًّا. لست أدري. على كلّ حال أنت لبنانيّة، وتدرسين التاريخ، ولا بدّ أنّك أقرب إلى فهم السياسة منّي. أمّا أنا فيبدو أنّ قوانين الفيزياء التي أدرسها لم تستطع أنْ تجعل منّي إنسانًا ماديًّا. لا بدّ أنّني عالم فاشل!"

"بل أنت المتشائم الآن! أنت إنسان ناجح قبل كلّ شيء، وأنا متأكّدة أنّك حين تعود للأردن ستقدّم الكثير لبلادك."

"الحبّ أعمى!"

"لكنّه ذو بصيرة."

"آه أيّتها الأرمنيّة! لا شكّ أنّ لغتك العربيّة في تحسّن مستمر."

يقف ماجد قليلًا حتّى تمرّ تيرين أمامه إلى داخل حديقة المطعم. وكالعادة، الطاولة الصغيرة التي تتربّع في إحدى زوايا الحديقة هي مكانهما المفضّل. أوّل ما يفعله بعد الجلوس، هو أنْ يتفقّد ببصره كلّ زوايا المكان التي أصبحت جزءًا منه.

النباتات الكثيرة المزركشة الأوراق، والأصص المُرتّبة حول بركة صغيرة، والفوانيس المعلّقة هنا وهناك، والباب الزجاجيّ الخشبيّ الذي يفصل الحديقة عن المشرب. لقد كان هذا المزيج من الأشكال والألوان، مع أنغام الموسيقا المنطلقة من داخل المشرب، يعكس إليه مزيج ثقافات مختلفة، شرقيّة وغربيّة. حتّى أنّ روّاد المكان أنفسهم هم مزيج من الشرقيّين

والغربيّين، ولعلّ الوضع مشابه للحال في الجامعة الأميركيّة في بيروت، حيث يُحَصّل علومه هو وتيرين.

كان هذا المزيج الحضاريّ جزءًا من نظريّته في الحياة. كان يعتقد أنّ تطوّر المجتمعات لا بدّ، يومًا، أنْ يصهر كلّ الفروقات العنصريّة والدينيّة والإقليميّة في بوتقة جديدة تخرج من قالب الإنسان كإنسان، ولا شيء غير الإنسان. كان يعلم أنّه ليس من جديد في هذه الأفكار، ولكنّه كان يعلم، وكانت تيرين تعلم، أنّ هذه الأفكار لازالت بعيدة المنال، وأنّ هذا المزج قد يشكّل ظاهرة خطر، عوضًا عن أنْ يكون ظاهرة صحّة تحقّق تلك الأماني المنشودة.

"سأذهب لإحضار الشراب، بينما تفكّرين ماذا تريدين للغداء."

"سأتناول بعض السلطة والجبن."

"يا للغباء! بل أعتقد أنّ الطبق اليوميّ شهيّ هذا اليوم."

"لا داعي للمصاريف الكثيرة، أضف إلى ذلك أنّني لا أنوي أكل الكثير من الطعام هذا اليوم."

"يالك من بخيلة!"

"حتّى لو كنتَ أنت صاحب الدعوة؟"

"هاها ... لا عجب أنّ أباك من أصحاب الملايين!"

"كفى ثرثرة، وعجّل بالشراب، فإنّني عطشى يا حبيبي."

يبتسم لها، وما إنْ يغادر مكانه حتّى تتسلّق إليه إحدى القطط الأليفة التي تمرّ بين الحين والآخر تلتمس كرم الزبائن، وأحيانًا حنان أيديهم التي تداعب جسمها الناعم. تنظر تيرين في عيني القطّة، وتنظر القطّة في عيني تيرين. بعد لحظات من الاطمئنان، ترقد القطّة بهدوء، وتحوّل تيرين عينيها إلى باب المشرب منتظرة عودة حبيبها الغالي بحنان كبير.

وضع ماجد قدحين بلون شمس بيروت على الطاولة المغطّاة بقماش أرجوانيّ اللون، وقبل أنْ يجلس احتسى جرعة كبيرة، ثم استدار مخاطبًا

القطّة أنْ تسمح له بالجلوس إلى جانبها، وحاول وضع نفسه في ما تبقّى من مكان على المقعد، بيد أنّ القطّة لم ترق لها الفكرة، وقفزت مولّية الأدبار.

"هذا أفضل. أما زلت تصرّين على السَلطة؟"

"نعم، مع العلم أنّه قد يروق لي أنْ أتطفّل إلى صحنك، وأتذوّق بعض 'الشيش كباب'."

"يالك من شيطانة! كم أنا سعيد بك."

كانت اللحظات تمرّ بين جوارحه المفعمة بسكرة الصداقة الحميمة التي تجمعه مع هذه الإنسانة، ويبدو أنّ أحبّ شيء إلى قلبيهما كانت تلك الفكرة الكبيرة: الإنسان المحبّ للعطاء، المتجرّد عن الأنانيّات الدينيّة أو الإقليميّة العمياء.

كم من مرّة شهدت هذه الطاولة محاوراتهما حول هذا الموضوع؟ ألم يكن هذا الموضوع هو الذي جمعهما أوّلًا وأخيرًا؟ أولم يكابد الكثير حين علم أهله أنّه يصاحب فتاة من غير دينه؟ حتّى أهل تيرين، الأكثر تحرّرًا، يقبلون به صديقًا للعائلة بتحفّظ. صحيح أنّهم في غاية اللطف معه، لكنْ ألم يلمّح له والدها أنّه لا يقبل فكرة زواج ابنته من غير دينه، وذلك خوفًا من كلام الناس، وهو صاحب مركز اجتماعيّ كبير؟

يالغباء العالم! أحقًّا نحن في أواخر القرن العشرين؟ ولكنّها تبقى الحقائق المرّة، وكما قالت له تيرين، أنْ يحبّ الإنسان شيئًا لا يعني هذا أنّ الشيء سيصبح في القالب الذي يريده هذا الإنسان. صحيح، صحيح! لا يمكن لفرد أنْ يغيّر العالم. وحتّى ...

"أين وصلت؟"

"نعم؟ لا، لا، لا شيء. كنت أفكّر كيف أنّنا نؤمن معًا أنّ الإنسان كإنسان هو أهمّ من العادات والأفكار، لأنّه هو من خلقها."

"صحيح، ولكن مع الأسف خلق لنفسه فيها سجنًا كبيرًا. على كلّ حال دعنا من هذا الآن، فلديّ خبران قد لا ترتاح إليهما."

"خير؟"

"أوّلًا لن أتناول القهوة معك الآن. عليّ أنْ أذهب. لن أحضر دروس العصر. والدتي متوعّكة قليلًا."

"أنا شديد الأسف لذلك. الأزمة القلبيّة من جديد؟"

"يبدو كذلك. ويبدو أنّني من الآن سأصرف الكثير من الوقت إلى جانبها. أنت تعلم أنّني ولدهما الوحيد. ويبدو أنّ ... الحقيقة أنّ الشيء الآخر الذي أودّ أنْ أقوله هو أنّنا قد نغادر إلى باريس قريبًا. أنت تعلم عقليّة والدي. الأمر كلّه يبدو سخيفًا. لو كنا فقراء لبقينا هنا. أعلم أنّك ستقول لي لماذا لا تبقين أنت. لست أدري. على كلّ حال، لازلت فتاة شرقيّة على الرّغم من كلّ أفكاري، وأعتقد أنّ والدتي ستكون بحاجة إليّ. لست أدري!"

وبينما يمسح عن عينيها الدموع القليلة التي قهرت مقاومتها، كان يتذكّر أنّ هذه الدموع هي مثل دموعه الصامتة التي تخشى لحظة الفراق. فراق تيرين، وفراق لبنان.

ويؤكّد لها: "نعم إنّي أفهم كلّ هذا، لا داعي لأن تبحثي عن الأعذار، بل أعتقد أنّك تقومين بما هو صحيح، عمليًّا على الأقلّ، أمّا النظريّات، يبدو أنّ كلّ شيء سينتهي كما انتهت قصّة شهداء الأرمن: ذكريات سنويّة، وماذا بعد هذا؟"

"لا تكن قاسيّاً."

"سامحيني. لا يحقّ لي أنْ أقول شيئًا. فأنا أيضًا من هذه الأكثريّة الصامتة التي لا تستطيع تغيير وجه الأمور. سلامي لوالديك، مع خالص حبّي."

"على كلّ حال سأراك كثيرًا في الأيّام القادمة، ولا بدّ أنْ تأتي لزيارتنا. السبت القادم أهلي في الجبل، وسأبقى أنا في بيروت لأنّ عرس ثريّا يوم الأحد. أنت مدعوّ أيضًا. سأكون معك وأبيت عندك. أنا متأكّدة أنّنا سنمضي ليلة مجيدة مساء السبت."

يهزّ لها رأسه متنهّدًا، مبتسمًا ابتسامة شاحبة. أمّا هي فتصنّعت المرح في تلك اللحظات، وتركته إلى فنجان قهوته، واتجهت خارجة والدموع تنصبّ من عينيها.

كان يعلم أنّها ما إنْ تغيب عن ناظريه حتّى تبكي وتبكي كثيرًا. كان يعلم في قرارة نفسه أنّ هذه أبسط المشاكل. على الأقلّ تيرين بخير، وأصدقاؤه كلّهم مازالوا بخير. كان كلّ ما يتمنّاه أنْ تنتهي أزمة لبنان إلى الأبد، لأنّه كان مقتنعًا أنّ جوهر القضيّة لا يستحقّ كلّ تلك المآسي من قتل وخطف وتعذيب.

لماذا لا يكون الناس مثله ومثل تيرين؟ لماذا لا يتفاهمون على أقلّ قدر من الخسائر؟ ياله من غبيّ كان يعتقد: ليس هذا هو منطق التاريخ، وليس هذا منطق الاشتباكات الأهليّة.

كان يرفع فنجان قهوته ليحتسي أوّل جرعة عندما شعر رأسه ينفجر بدويّ هائل، ويرى أمامه أشلاء طاولات وكراسي تتبعثر.

هل هذا يوم القيامة الموعود؟ أمِنَ المعقول أنْ تكون هذه إحدى القذائف الأثيمة؟ ولمَ تستهدف هذا المكان؟ لماذا يحسّ بسائل ساخن ينساب من رقبته إلى ظهره وصدره؟ لماذا وقع من يده شيء كان يحمله؟ لماذا تبعثرت هذه الحديقة الجميلة؟ ماذا يحصل الآن في بيروت؟ وتيرين، أين أنت يا تيرين؟ أين القيم، والإنسانيّة، والأكثريّة الصامتة؟

عندما بدأت رؤيته تضمحلّ، كانت زرقة السماء الصافية تتهادى كأمواج البحر الأبيض المتوسّط، واللون يتلاشى إلى سواد قاتم، والنور الوحيد الذي يراه هو مركب، وإلى جانبه مركب آخر، واحد يقترب من بيروت، والآخر يبتعد عن جزيرة تغرق في شرق البحر الأبيض المتوسّط. على كلّ من المركبين الفتاة نفسها، تيرين، بعينيها اللوزيّتين، تغنّي للبنان وأرمينيا وفلسطين.

# البَحر ... بَيروت ... والجَبَل

حين اقتربت رندة من نهاية النفق الذي يمتدّ تحت الكورنيش العريض الذي يوصل بين حرم الجامعة الأميركيّة ومسبحها، تباطأت خطواتها. لم يكن سبب التباطؤ أنّ قدميها العاريتين مقدمتان على تلمّس طريق وعرة بين صخور الشاطئ، ولا لأنّها ستحاول السير على رؤوس أصابع قدميها اتقاء للحرارة المختزنة في الممرّات التي خبزتها الشمس، ولا هي خائفة من رصاصة قنّاص، ولا من شظيّة قاتلة. السبب أشدّ إثارة للقلق والخوف بالنسبة لها.

"ابتسمي، وعيشي من أجل لبنان، ومن أجلي." هذه الزفرات التي كانت تنفجر في أضلاعها مع كلّ خطوة تخطوها، كانت السبب وراء عزيمتها على المسير قدمًا، خارجة من ظلام النفق إلى ضياء الشاطئ. وهذه الزفرات كانت أيضًا السبب في تباطؤ المسير؛ تلك كانت آخر كلمات استطاع كميل أنْ يبثّها في فؤادها.

توقّفتْ قليلًا، ونظرت بارتباك نحو البحر الأبيض المتوسّط، فكم كانت تحيد ببصرها نحو ذلك الخِضَمّ كلّما أرادت أنْ تتّقي بحياء نظرات الإعجاب التي كان كميل يسكبها عليها من عينين صافيتين، لبنانيّتين. مشت متسارعة الخطوات، وكأنّها بدأت تناغم بين المسير وبين تسارع دقّات قلبها الخافق بالألم.

أو لعلّها ركضت هاربة من الذكرى؟ ذكرى جديدة أضيفت إلى خزانة الآلام البيروتيّة، حين أصابت شظيّة قاتلة جسم حبيبها كميل، الذي ما كان له من ذنب سوى انتظار دوره في الحصول على إفطارهما المفضّل: المناقيش بالصعتر. من ذا الذي أراد إبادة مخبز؟ من ذا الذي أراد إبادة إنسان؟

أو لعلّها ركضت حنينًا إلى الذكرى، لتعيش تجربتها في مكان جمعها مع كميل في لحظات حلوة. هل كان بإمكانها فعل هذا وأهمّ عناصر التجربة غائب؟ هل بإمكان الخيال الخصب، والشوق المستعر أنْ يعيدا من رحل إلى

غير رجعة؟ "عيشي من أجلي، ومن أجل لبنان. بل من أجل لبنان. كلّنا يمضي كشخص، ونبقى جميعًا على شكل الوطن. كلّنا يمضي كأقصوصة صغيرة، ولكن نبقى كحضارة، كفكرة كبيرة." هكذا زفر كميل، وما عاد لديه إلى الشهيق سبيل. هل هي هنا تنفيذًا لرغبة أعزّ الأحبّة إلى قلبها؟

ستواصل رندة التجربة. اتجهت إلى البقعة نفسها من الشاطئ، حيث كانت تجلس مع كميل، تسامره ويسامرها، وأحيانًا تخاصمه ويخاصمها! ولكم حدّثها عن الأغبياء الذين يتشاتمون في حرم المجلس النيابيّ. لو أنّه معها الآن، لربّما حدّثها أيضًا عن المجانين الذين يتاجرون بالشعب، وبالمعتوهين الذين يقايضون على "فينيقيا" وهم في أواخر القرن العشرين. "ليته معي، ولا أريد أنْ يحدّثني عن شيء!" وهزّت رأسها بسخرية الملتاع المتحسّر.

استراح نظرها مع الأمواج الهادئة، واحسّت بسكرة الطفل الصغير حينما يُهزّ سريره تدليلًا، وارتسمت على شفتيها ابتسامة لا تعبّر عن السعادة، ولا عن الحزن. لا عن الصمود، ولا عن الخوف. لكنّ رندة ما عرفت في تلك اللحظات ما كان يرتسم على وجهها الملوّح بحرارة الشمس. أمّا الزبد الخفيف الذي امتطى صهوة تلك الأمواج الراقصة بهدوء على سطح البحر، فلقد كان يظهر لها مضخّمًا على شكل قمم مكسوّة بالثلج لجبال شاهقة العلو، تتراقص بين ضلوعها الرقيقة. في واحدة من تلك الموجات، كان كميل يسبح بمهارة!

استلقت نصف ساعة تحت أشعّة الشمس، وفكّرت أنْ تقوم فتسبح، لكنّها، ولأوّل مرّة خافت من ذلك البحر. خافت أنْ تضيع في الأعماق، أو حتّى بين الأمواج دون كميل. وجه كميل ما عاد يظهر بين الأمواج، ويده ما عادت تلوّح لها بحرارة. استيقظت رندة في منتصف الحلم، وعلمت أنّها تحلم، فعادت إلى النوم والحلم.

سبق لرندة أنْ تركت سيّارتها على الكورنيش العريض. جلست على مقعدها محاولة اتقاء حرارة الشمس المختزنة فيه، وتناوبت أصابع يديها

الناعمة على عجلة القيادة الساخنة، وانطلقت باتجاه الجبل من طريق "الحازميّة" لأوّل مرّة منذ فترة طويلة. ومع أنّ حرارة بيروت، وازدحام "كورنيش المزرعة" ذلك السبت كانا يشغلان حيّزًا من تفكيرها وقيادتها السيّارة، ما كان لها لتنسى ولا للحظة واحدة أنّ المقعد الذي إلى جانبها خلو للمرّة الأولى منذ أنْ تعرّفت إلى كميل، وبدأت تقضي معه عطلة نهاية الأسبوع بين البحر والجبل في يوم كهذا. كانت كلّما توقّفت عن المسير بسبب إشارة ضوئيّة، أو ازدحام، تتلفّت ذات اليمين وذات اليسار لتلاحظ أماكن كانت ترتادها مع كميل. لم يكن "الجندول" وحده مبعث الذكريات - ففيه قدّم لها كميل عددًا من أقداح القهوة، وقطع الحلوى - ولكنْ حتّى أصغر المكتبات، وباعة الصحف، كانت أيضًا بواعث للحنين. أين لك يا رندة نسيان تلك الوجوه التي شاركتك أفراحك مع كميل؟

ولعلّ ذكريات هذه الأماكن قد ترسّخت الآن أكثر، فهي أماكن سبق أنْ أغلقت أبوابها، أو أقفرت لمدّة طويلة. هاهي تعود الآن للعمل بحذر شديد، ولمدّة لا يعلم أحد كم ستطول. كانت رندة تنظر إلى كلّ بقعة بشغف شديد، وحبّ شديد، وخوف أشدّ. هل تفرح الآن بعد أنْ بدأ كلّ شيء يعود إلى طبيعته، وهي تعلم أنّ هذا ترسيخ جديد للواقع الذي ستعيشه مع هذه الحياة الآمنة الجديدة: حياة دون كميل؟

ما كانت الطريق العريضة التي بدأت تشكّل بداية الصعود باتجاه الجبل، والتي أراحت محرّك السيّارة من ازدحام بيروت، إلاّ لتزيد من تطلع رندة يمنة ويسرة، وهي تقود سيّارتها بسرعة أكبر، وراحة أكثر، على الرّغم من كلّ السيّارات المتسابقة صعودًا، عن يمينها تارة، وعن يسارها تارة أخرى. هنا أيضًا أماكن تحاول العودة للحياة من جديد. هنا أيضًا مواقع لذكرياتها مع كميل: ففي ذلك المنعطف بدّلت معه عجلة سيّارة انثقبت، ومن تلك الدّكان شربا عصير البرتقال الماورديّ، وتحت تلك الشجرة استوقفهما رجل أركباه إلى هدفه. أمّا في ذلك اليوم، لم تتوقّف رندة، ولا حتّى لشراء منقوشة بالصعتر. لكنّها فرحت لمشاهدة هذه التجمّعات المسالمة لهؤلاء المارّة

المشتاقين إلى المناقيش الطازجة التي تأتي دون قذائف أو شظايا. انهمرت الدموع من عينيها، فكميل لم يكن بينهم لشراء إفطارهما المفضل.

أحسّت وهي تقترب من "عاليه" بالنسائم التي بدأت ترطّب جسمها المتعرّق، على الرّغم من الازدحام النسبيّ في تلك المدينة الجبليّة. واصلت القيادة بحذر، فإذا ما انحدرت قليلًا في طريق "عين السيّدة"، وطالعها الشارع الوارف الظلال المليء بالفنادق اللطيفة، راحت تبتسم وهي تتذكّر ما حدث يومًا بعد أنْ ملأ كميل السيّارة بالوقود عند محطّة في ذلك الشارع، وانطلق مواصلًا الرحلة.

توقّف كميل فجأة في عرض الطريق.

"يا إلهي!"

"ماذا، هل من خطر يا كميل؟"

"اِفتحي النوافذ."

"ماذا حدث؟ بربّك خبرني."

"شمّي، تنشّقي، رائحة الصنوبر المنبعثة مع نسائم جبل لبنان."

ضحكا معًا، وانطلقا مسرعين بعد أنْ تنبّها لزمامير السائقين خلفهما. ضحكت رندة وحيدة هذه المرّة، وتابعت القيادة دون أنْ تسمع ترداد الزمامير.

كان بائع البوظة الشهير في سوق الغرب أحد أركان الذكريات الكثيرة على طريق الجبل. بل كان كلّ شبر في الطريق ذكرى تضاف إلى ذكرى، فإذا ما اقتربت رندة من الضيعة التي ولدت فيها، وأمضت فيها معظم أوقات اصطيافها، وبعد ذلك كلّ عطلها الأسبوعيّة مع كميل، بدأ قلبها يدّق مثلما دقّ حين دخولها مسبح الجامعة ذلك الصباح.

في "كيفون" كان كلّ شيء خاصًّا جدًّا، وعزيزًا جدًّا، بما في ذلك "أبو سعيد"، بائع الفاكهة بشاربيه العتيدين، الذي كان يأتي على حماره الدؤوب من قرية "بيصور" المجاورة، وكان يحكي مع كميل حكايا السياسة، وهو

يبيعهما من لذائذ ما يحمل. لم تجد رندة كميلًا ولا أبا سعيد في ساحة كيفون، فتابعت طريقها إلى رأس الجبل.

ترجّلت من سيّارتها، ووطأت بقدميها مراتع الطفولة والمراهقة والشباب: أحراج الصنوبر. كانت رائحة الحرج المميّزة الممتزجة مع صرير الزيزان، تفعل في نفسها فعل عشرين قدح من النبيذ الزحلاويّ المعتّق الذي كان كميل يفتخر أنّ بلدته تنتجه بمهارة!

على تراب الحرج، وبين شجراته، جلست مرارًا منذ طفولتها. على أكواز الصنوبر المعلّقة بين الأغصان، رمت كثيرًا من الحجارة، وأسقطت قليلًا من الأكواز. أكثر ما كان يستهويها هو الركون إلى صخرة تطلّ على الوادي الذي ينحدر إلى البحر مرورًا ببلدة "شملان"، وقرى أخرى، إلى أنْ تلامس بيروت حافّة الشاطئ. تسكت الزيزان ثوان معدودة، فيقول كميل: "اِسمعي صوت السكون." وتنتشر في جسديهما قشعريرة الاندماج مع الطبيعة، ويلتهبان معًا جسدًا واحدًا تصهره نار حبّ حامية، لكنّه لا يحترق إلاّ لذّة ونشوة.

نظرت إلى بيروت، وتذكّرت كلّ الأغاني الجميلة التي غنّاها الناس عن بيروت. وتعجّبت كيف أنّ الكلّ غنى لبيروت، والكلّ أسهم في خراب بيروت، ثمّ بكى الجميع على بيروت! وتفجّرت في قلبها كلمات حنونة: أحبّك يا بيروت. كان صوت الكلمات ينطلق داخلها باللهجة الزحلاويّة نفسها التي كان كميل يقول بواسطتها: "أحبّك يا رندة". هل يزداد الحبّ بعد الخسارة؟ أم أنّ زيادة الحبّ حيلة النفس في التخلّص من العذاب؟ وهل التخلّص من العذاب أنْ يزيد العذاب؟

نظرت رندة إلى بيروت. سكتت الزيزان للحظات قصيرة، ثم عادت للصرير. تضخّمت الأصوات في مسامع رندة حين كانت بيروت تنصهر أمامها كالبركان تحت أشعّة الشمس. كان كلّ بناء يذوب ويغلي، حتّى انصهرت الأشرفيّة والشيّاح وعين الرمّانة والنبعة وبرج البراجنة ورأس بيروت، وانصبّت كلّها في ساحة الدبّاس وسوق الطويلة: في قلب العاصمة.

زاد الغليان. ظهر من قلب العاصمة رأسٌ بدأ يتضخّم ويعلو جارًّا خلفه ثوبًا من البراكين، تحوّلت إلى جسم عملاق يرتفع في الوادي السحيق، حتّى صار الرأس محاذيًا قمّة الجبل، والكتفان عند "شملان"، ويد في البحر، والأخرى تحيط بخصر الجبل. بَرَد العملاق شيئًا فشيئًا، وتصلّب ليشبك البحر وبيروت والجبل. سكتت زيزان الحرج ثانية، فاستمعت رندة إلى صوت السكون. حين بدأت الزيزان تغنّي من جديد، صار الجسم يتبدّد إلى أثير فيه كثير من ألوان قوس القزح. تشابكت الألوان ليصبح كلّ شيء بلون السماء الصافية. عندها ارتسمت ملامح العملاق على وجهه، لكنّه كان وجهًا غريبًا محيّرًا. على الرّغم من أنّ رندة كانت متأكّدة أنّه وجه كميل، لم تعلم فيما لو أنّه أيضًا وجه البحر، أم وجه بيروت، أم وجه الجبل. هل هذا وجه لبنان؟ عجبًا لهذه الأشجار، هل هي أشجار صنوبر، أم أنّها أشجار أرز؟ صاحبت حيرتها الشديدة هذه نشوة غريبة، وكأنّها شعرت للحظة أنّها عرفت "الحقيقة". وداهمتها رغبة شديدة في أنْ تلقي نفسها في أعماق الوادي السحيق، في أحضان لبنان الجديد الذي انسكب روحًا في جسد كميل.

نهضت واقتربت من حافّة الهاوية وهي تنظر إلى تلك "الروح". سكتت الزيزان، وسمعت رندة صوتًا مألوفًا يهمس: "عيشي من أجل لبنان ... من أجلي." أصابها رعب عظيم وهي تحسّ أنّ هذا العملاق يتبدّد بين ضلوعها حين كان قلبها يدّق متسارعًا، وهي تضحك وتبكي معًا.

ارتمت على مقعد سيّارتها منهكة القوى، وكأنّها مارست حبًّا غريبًا لذيذًا ألف مرّة في ثانية واحدة. رفعت رأسها لتنظر بذهول إلى ذلك الوادي الذي ولّد الحبّ في شبابها من جديد. ستعود من أجل ذلك الجنين. ستعود إلى شاطئ البحر، وحين يحين الموعد، ستضع ثمرة حبّهما وستسميها "نور". وحين يكبر، أو تكبر نور، ستكون مع حبيبها في سيّارة، وسيكون مشوارهما على طرقات لبنان، إلى صيدا وصور وطرابلس وفاريّا وبرمّانا وريفون وبيت الدين وحمّانا وجزّين وإهدن وكيفون ... إلى كلّ الضيع الصغيرة، والمدن الكبيرة، بين الناس الطيّبين.

ستمتلئ المنعطفات بأنوارٍ صغيرات، يشترين المناقيش بالصعتر، يكبرن وهنّ يلعبن بالحجارة وأكواز الصنوبر في أحراج لبنان.

# عندما تَضيعُ ألوانُ الغُروب

لأوّل مرّة نمشي وحدنا في "شملان" عند الغروب. أمسك يدك لتنتابني قشعريرة لا ينافسك عليها سوى نسائم الجبل المعطّرة بما جمعته من مضاجعتها لأغصان الصنوبر.

الخطوط الحمر، بقايا الشمس، تتبدّد بدلال وراء البحر الأبيض المتوسّط الذي غسّلته ذكريات فينيقيا بكلّ جلالها وفنونها.

يدك الناعمة تفلت من يدي ثم تعود، كأنّك تتلذّذين بلعبة الهروب والعودة، كأنّك الشمس التي تغرب الآن وهي عارفة بشروق الغد. لونك الأسمر، قميصك الأرجوانيّ، والتنّورة البيضاء ضيّعت ألوان الغروب.

نتحدّث عن الحبّ والإخلاص والوفاء، بكلّ براءة مراهق ومراهقة، لكنْ بكلّ كثافة الراشدين. نتحدّث عن نفسينا، ما نحبّ في الأرض، وما نعشق في السماء. تؤشّرين إلى نجم ساطع، وأشير إلى آخر.

سألتك الكلام كثيرًا حتّى أجبت دعائي. "أحبّكَ ... " لأوّل مرّة توثّقين مشاعرك بمخارج الألفاظ. تأكيدٌ مهمٌ لمتلهّف جادّ مثلي! أرى ملامح ابتسامة خجولة إلى جانبي. أوقفك، أمسك بوجهك الجميل ألاطفه، ولا أكتشف دمعة عينك إلا حين تقبّلها شفتاي بلمسة امتنان ورضا.

ستائر الليل تلفّنا الآن ونحن نتابع المسير باتجاه "الصخرة"، ذلك المقهى الشهير بكراسيه وطاولاته البلديّة البسيطة، وبزوّاره الذين منهم وزير وأمير. أعلم أنّنا الليلة استثناء من القاعدة، لكنّك أميرتي.

"الصخرة" في الليل بقعة أضواء في أحراج الجبل. بقعة متواضعة في موقع مميّز. مثل لبنان تمامًا. ننتقي طاولة صغيرة في ركن معزول. نجلس وجهًا لوجه، وتلتف الساق بالساق تحت الطاولة. نمسك بأيدينا فتصبح بقعة مميّزة تختصر الجغرافيا لأنّها مركز الكون، والتاريخ لأنّها تعيد جمع حواء وآدم، وفيهما الآن من الجينات ما صنعته الأحقاب بصبر الدهور، وتأنّي

الفنّانين، وكلّ المارقين في قلب العالم هذا مذ كان آشوريًّا، أو فينيقيًّا، أو سوريًّا، أو لبنانيًّا. بل نحن تتويج لهذا الاندماج الأزليّ على الرّغم من أنف من سيحاول التفريق بيننا بحجّة القشور الثقافيّة التي تغطّي جسدينا: هو سوريّ وهي لبنانيّة، هو محمّديّ وهي مسيحيّة، هو عربيّ وهي أرمنيّة، أبوه موظّف وأبوها يوظّف الناس، أمّه ابنة كاتب وأمّها ابنة تاجر ...

نعم نحن أبناء هذا المخاض الطويل العسير، ونحن مُنْتَج لا حيلة لنا في حالنا سوى ما نفهمه من هذا الإرث المشترك، وما نوظّفه من ثقافتنا في سبيل ديمومة العطاء الكونيّ الذي لا يتمّ سوى بالتواصل الفكريّ والجسديّ. نحن بكلّ بساطة: آدم وحواء، ويا مرحبًا بالخطيئة الأصليّة.

ننظر من هذا الارتفاع إلى بيروت التي انبسطت على الساحل وردة بحريّة، كما تغنّي فيروز. تتلألأ بأضواء تخطّ في عيوننا مشاهد حبور. إنّها المدينة اللعوب التي تخطف القلوب، وكأنّها ولّادة بنت المستكفي التي كانت تمشي دلالًا، وعلى حاشية ثوبها أبيات شعر تعلن عن منح القبل لمن يشتهي. أغلب الظنّ أنّ خطاب ولّادة كان موجّهًا لنخبة تقدّر الأدب والجمال. هل ستُقَدّر النخب المحيطة ببيروت ماهيّة الدعوة، أم أنّها ستسارع إلى الاغتصاب لمجرّد أنْ ظهرت المفاتن؟ ما كان لنا معرفة الإجابة عن هذا السؤال حين التقينا على صخرة شملان ذات مساء في أوائل السبعينيّات.

لكنّني الآن أعرف الجواب من دونك. أنا في القرن الواحد والعشرين، وأنت غادرت القرن العشرين عائدة إلى قرون حواء الأولى، في تلك الرحلة التي يتخلّى الزمن فيها عن مسيرة أولئك الذين يقيسونه. توقّف الزمن حين استقرت في رأسك رصاصة قنّاص من أولئك الذين تفنّنوا في إذكاء الحرب الأهليّة. لم يكن غريمك من عرق مختلف، ولا من دين مختلف، بل واحد من الذين يطلقون الرصاص على مركز الفطنة. ثقافة الاستبداد، وكتم الأصوات، وإلغاء الآخرين.

لكنّ بعضًا منك يستمرّ في تلك الثمرة التي فاض بها حبّنا، تمامًا كما استمّر بعضٌ من جدّتنا الأولى فيك. هل تشهد أجزاؤك التي فيه هذا الخراب

الذي وصلنا إليه؟ هل تراني؟ وهل تسمع حزني وأنيني؟ هل تفهم معنى بكائي على بيروت؟

أراك الآن تستندين إليّ ونحن نغادر "الصخرة" عائدين إلى السيّارة التي أوقفناها على مسافة تمكّننا من الاستمتاع بمشوار عشرين دقيقة. أطوّق خصرك بذراعي وتطوّقين خصري. نتوقّف، ونتعانق، ونتبادل القبلات مرّات ومرّات. أرى عينيك تتلألآن تحت ضوء القمر الذي اقترب من تمامه، وأسبغ على الأمسية بهجة لامست ذؤابات الصنوبر، وترقرقت فوق سطح البحر.

أسمعك تقولين: "أنا لك على طول." أعلم أنّك تذكّرينني بأغنية أحبّها لعبد الحليم حافظ. نغنّيها معًا بصوت خفيض، يحترم رهبة الليل. تردّدين شطرًا فأجيبك بالبقيّة.

في طريق عودتنا إلى الحبيبة بيروت، أطلب إليك أنْ تغنّي "نحنا والقمر جيران" لحبيبتنا فيروز. تصدحين.

تتوقّفين فجأة عن الغناء لتسأليني: "ترى يوم كهذا هل يعود؟"

# تُوتٌ شَاميّ

احتقن وجه الأستاذ الدكتور نابغة القيرظانيّ بلون الدماء التي تراكضت إلى كلّ رقعة تحت جلد وجهه. السبب؟ عاديّ جدًّا، لدرجة أنّه غير معلومٍ فيما إذا كان مردّ هذا التلوّن ارتفاع الضغط الشريانيّ لديه، أم أنّ زرقة عينيه وبياض بشرته الناصع يُبديان من المتبدّلات الحيويّة ما تخفيه بشرات الآخرين. على كلّ حال، لا يشكّ أحد بأنّ لهذا الرجل حساسيّة خاصّة، ترافق كلّ ردّ فعل يواكب مواجهاته اليوميّة ومعادلاته الحياتيّة.

وعلى الرّغم من الجهد المرير الذي بذله طوال حياته في إبراز نفسه على الصورة التي نراه عليها اليوم، لا يتوقّف الكلام عن أصله وفصله وقصّة حياته التي يعلكها طلاب الجامعة علكًا مع كلّ حركة فكٍ يستعملونها في نطق كلّ كلمة عنه. ماذا وراء البذلة الأنيقة المنتقاة من الجوخ الإنكليزيّ ذي الألوان الرصينة التي لا تخرج عن نطاق الكحليّ والأسود والرماديّ؟ ولا بدّ لربطة العنق أنْ تكون من الحرير الخالص، تحمل توقيعًا من تواقيع دور الأزياء الفرنسيّة الشهيرة. أمّا ياقة قمصانه، فلا بدّ لها أنْ تعانق رقبته عناق الحبيب للحبيب، على الرّغم من حاجته بين الحين والآخر لوضع إصبعه بينهما ومطّ رقبته وهو ينحرف برأسه جانبًا، مع ما يرافق ذلك من منعكسات في الشفتين، وشهيق مسموع يعلن نهاية الجولة التي يتلمّس فيها عقدة ربطة العنق، فيطمئنّ أنّها لازالت ملازمة بعناد لملتقى طرفي ياقته. لعلّه يستمدّ من كلّ هذا عزيمة تعزّز نفوذه وقوّة مركزه كرئيس لقسم الفيزياء. لعلّها تتويج لذلك الجهد التاريخيّ الذي بذله في اقتلاع نفسه من تلك الجذور القرويّة التي أتى منها، حتّى لكأنّها الردّ المباشر على سروال أبيه وجلباب أمّه.

بدا للجميع أنّ الأستاذ الدكتور نابغة منغمس في عمليّة صيانة دائمة لهذه الصورة التي أراد أنْ يرسمها لنفسه، غير ملتفت إلى حقيقة أنّ أصلة وفصله وموقع قريته صارت معروفة للجميع منذ أنْ انضمّ إلى الكلّيّة شخص

من القرية نفسها، ولكنْ بصفة الآذن الذي يحضّر القهوة، وينقل البريد من قسم إلى قسم، فينقل معه أخبار الأستاذ، مفتخرًا من ناحية أنّه يعرف صاحب هذا المركز المهمّ، وساخرًا من ناحية أخرى لأنّ عائلة الأستاذ في القرية هي من منزلة دون منزلة عائلته.

والأستاذ نابغة الذي أتمّ اختصاصه في فرنسا، والذي كان شكله يوحي للفرنسيّين بأنّه ألمانيّ، بدأ إعادة خلق نفسه هناك حين اختصر من لقبه فسّواه "قيرظان"، وصار يكتب اسمه بحروف لاتينيّة تجعله يُلفظ على أنّه "نابا كيرسان" فيزيد ضياع الفرنسيّين في معرفة أصله.

زاد هذا من اعتزازه بنفسه، وحين عاد إلى وطنه ادّعى أمام زملائه أنّه ابن العاصمة، وأنّ أجداده ينتسبون إلى سلالة من أمراء العرب من بني قيرظان. أمّا الآن فالكلّ يعرف الحقيقة، ولا يصرّح بها أمامه. لكنّ لقبه الذي صار أكثر الألقاب شيوعًا هو ما أطلقه عليه الطلّاب، وبعدهم كلّ المدرّسين والعاملين في الجامعة، من وراء ظهره طبعًا: "الأستاذ الدكتور توتي". وجاء اللّقب نتيجة لما تصير عليه بشرته التي تصبح بلون التوت الشاميّ حين ينفعل أقلّ انفعال، سواء حين الغضب أم حين البهجة.

ولكنْ أنّى للأمور أنْ تبقى طيّ الكتمان، فهل علم الأستاذ بالسرّ من طالبٍ أم من آذن أم من؟ من زميل! بل الحقّ يقال، من أشدّ زملائه منافسة وبغضًا. فالدكتور ودود، الذي يصغر الأستاذ بعشرين عامًا، وآخر من التحق بالقسم، كان شابًّا ألمعيًّا ملمًّا بمادته، ومتكلّمًا بليغًا، وباحثًا جيّدًا، يواصل نشر مقالاته العلميّة في المجلّات العالميّة، ويقول إنّه يريد أنْ يصل إلى مرتبة الأستاذ بأبحاثه التي ينشرها، وليس بترجمة كتابين كما فعل الأستاذ نابغة. وفي مشاحنة بين الأستاذ نابغة والدكتور ودود ذات مرّة، غضب الأخير وأنهى حديثه بعبارة "... يا أستاذ توتي." وهكذا علم نابغة القيرظاني ما آلت إليه سمعته. أمّا سبب تلك المشاحنة فكانت محاولة الأستاذ الضّغط على الدكتور ليكون عضوًا في شبكة من المدرّسين القلائل،

المنضوين تحت جناح الأستاذ في عمليّة للتآمر على الأساتذة الآخرين، وتعزيز مركز الأستاذ نابغة في محاولة للوصول إلى منصب عمادة كلّيّة العلوم.

الواقع أنّ صلف وغرور الأستاذ نابغة كان يكبّده كلّ يوم خسارة جديدة في ابتعاد مزيد من الناس عنه، ولمْ يبق في يديه سوى رئاسة القسم يتعلّق بها تعلّقه بروحه. ولهذا كان يسعى كلّما انضمّ أستاذ جديد إلى الكلّيّة إلى ضمّه تحت لوائه، وتجنيده في محاربة خصومه، خصوصًا الدكتور ودود زميله اللدود.

واليوم احتقن وجهه بالدماء إثارة لأنّه يستعدّ لاستقبال وجه جديد في قسم الفيزياء، الدكتورة أسامة المتري. كان يمّني نفسه، وهو يتفحّص كتاب التعيين، أنْ يكون ثمّة غلط مطبعيّ حصل في كلمة "الدكتورة"، وأن يكون أسامة ذكرًا لا أنثى. صحيح أنّه رئيس القسم، لكنّ التعيين في الجامعة يتمّ من طريق وزارة التعليم العالي، ممّا يجعل قضيّة وصول عضو جديد في الهيئة التدريسيّة خافية على أهل القسم حتّى اللحظات الأخيرة. كان يرغب أنْ يستمرّ قسمه قسم "رجال"، لأنّ كلّ طاقمه التدريسيّ من الرجال، على عكس قسمي البيولوجيا والكيمياء.

كان منهمكًا في تفكير عميق حول استراتيجيّته القادمة في صيانة مركزه، والانتصار على خصومه، حين تناهت إلى مسامعه طرقات على باب مكتبه. تفضّل. يدخل الحاجب الساعي القهوجيّ، ابن بلده، كاشف الأسرار، ويخبره أنّ الدكتورة الجديدة وصلت. ماذا تعني "الدكتورة"؟ "نعم يا سيّدي، الدكتورة أسامة المتري: امرأة بحقّ. عش كثيرًا، ترى كثيرًا."

خرج الأستاذ الدكتور نابغة بكلّ جلاله وقدره، عليه جوخه الإنكليزيّ، وحريره الباريسيّ، وإصبعه يدخل ويخرج ما بين رقبته وياقة قميصه، ورأسه ينسحب وينحرف، وشفتاه تعلنان التأكّد من حالة الأناقة المستديمة. أمّا الوجه فصار بلون التوت الشاميّ.

"أهلًا وسهلًا، أهلًا وسهلًا بالدكتورة، يا حلّت البركات. نوّرت الكلّيّة، وقسم الفيزياء. تفضّلي يا دكتورة، تفضّلي."

"شكرًا بروفيسور."

"إنْ شاء الربّ نراك أيضًا أستاذة قريبًا."

"سأعمل جهدي من أجل ذلك يا بروفيسور."

"عظيم، عظيم. أنا من جهتي سأدعم كلّ خطواتك المقبلة. والآن سأريك مكتبك، وأتركك هذا الصباح تطّلعين على المنهاج، وأريدك في مكتبي بعد الظهر، لأشرح لك بعض الأمور المتعلّقة بهذا القسم."

خرجت الدكتورة أسامة بصحبة الأستاذ الذي كان يدلّها بإصبعه أنّ هذا مكتب فلان، وذاك مكتب علّان من المدرّسين، دون أنْ يتكبّد عناء تعريفها مباشرة إلى أيّ منهم. وقال لها إنّ معرفة الجميع تتطلّب بعض الوقت، ولكنّ واقع الأمر هو أنّه فقد شعبيّته لدى معظم زملائه، لدرجة أنّه يتلافى التعامل المباشر معهم قدر الإمكان.

الدكتورة متري شابّة ذات نصيب وافر من الفطنة والجمال. حين سارت جنبًا إلى جنب مع الأستاذ نابغة، وصلت قمّة رأسه إلى أعلى بقليل من مستوى ثدييها الممتلئين أنوثة وشموخًا، ليس لأنّها فارعة في الطول، بل لأنّ الأستاذ من القياس القصير، على الرّغم من أناقته ووسامة وجهه. لذلك بدا للناظرين أنّه يمشي في ظلّها. لكنّ احمرار بشرته غطّى على كلّ شيء، على طولها وجمالها، وحتّى على ردائها الأحمر الجذّاب.

الهمز واللّمز ماضيان في الردهات والممرّات، بين التلاميذ والتلميذات. "مَنْ هذه الفاتنة مع الأستاذ توتي؟ الحسناء والوحش. الصاروخ والترانزيستور. الغزال والقرد."

بينما مشت هي بخطوات متّزنة أنيقة، كانت خطوات الأستاذ، الذي مشى عن يسارها، تتّسم بالعصبيّة حتّى بدا كأنّه البهلوان مقارنة معها، خصوصًا انحراف رأسه المعهود الذي كان يوحي للطلبة أنّ أرنبة أنفه على وشك الاصطدام بحلمة ثديها، البارزة تحت ملابسها، فيغشى الطلّاب ضحكًا.

الساعة الثانية بعد الظهر: الموعد. تتوجّه الدكتورة متري بخطواتها الأنيقة الجادّة نحو مكتب الأستاذ نابغة، مرتاحة، كأنّها تعرفه منذ مدّة ليست قصيرة. طرقاتها على الباب حاسمة قويّة، بلا وجل، على وجهها شبه ابتسامة، وفي قلبها ابتسامة كبيرة، بل قهقهة غير مسموعة، إلّا من خلال الأصداء المتردّدة في خلايا دماغها، وخلايا أخرى.

يرحبّ بها الأستاذ بكلّ ما لديه من حَوْل "الإتيكيت"، وقوّة "الشياكة". كلاهما متخرّج من السوربون، لكنّه يتحاشى استخدام التعابير الفرنسيّة في حديثه حتّى لا يُتهم بالوقوع في حضن الغرب، بل هو عضو في مجمع اللغة العربيّة، ومعروف بكلامه المنمّق الفصيح المتحذلق لدرجة قاتلة. ومعروف أنّ تركيزه على الشكل أنساه المضمون، ومعروف أنّ لغته العربيّة أفضل بكثير من لغته الفيزيائيّة: أولم يصبح أستاذًا بقنص، عفوًا، بترجمة كتابين إلى العربيّة؟ وهو مذ تخرجه لمْ يقم ببحث واحد، ولا بتأليف سطر علميّ واحد، لكنْ آه كم أضاع عشرات الساعات من الاجتماعات الأكاديميّة في خلافاته مع أمثاله حول تعريب كلمة. هكذا سمعت الدكتورة أسامة المتري عن رئيسها العتيد.

لأوّل مرّة في حياته يتخلّى عن الجلوس وراء مكتبه في حضرة مرؤوس. ينتقل إلى الجهة التي كانت تجلس فيها. يطلب لها فنجان قهوة، شاي، زهورات، حسبما تشاء. قهوة سادة. ظلّت الدكتورة صامتة تتأمّل فيه تأمّل المنشغل بدراسة سلوك أو نفسيّة الآخرين. أقلقه ذلك الاستعلاء الذي أوحت به نظراتها. هذه أوّل مرّة يتعامل فيها مع عضو من الجنس الآخر في الهيئة التدريسيّة.

"دكتورة أسامة، لاشكّ أنّك اطّلعت على المنهاج هذا الصباح، وعلى الموادّ التي ستقومين بتدريسها. إذا كانت لديك أيّ أسئلة لا تتردّدي بسؤال نائبي الأستاذ جرجي، أو حتّى مراجعتي. لكنّني الآن أريد التركيز على نواحٍ استراتيجيّة مهمّة ستؤثّر على مستقبل هذا القسم، والكلّيّة بشكل عامّ. فمن جملة الإصلاحات التي تقوم بها الجامعة، حصول الهيئات التدريسيّة

على مزيد من الديمقراطيّة في اختيار رؤساء الأقسام وعمداء الكلّيّات. هذا يعني أنّ كثيرًا من هذه المناصب أصبح الآن مفتوحًا للصراع بين فئات مختلفة تحاول سحب الغطاء لتغطية ظهورها. طبعًا أنا أؤيّد هذه الديمقراطيّة، لكنّ خبرتي الطويلة في هذا المجال تجعلني أحسب للأمور ألف حساب. هناك بعض المحاضرين، من الشباب المتحمّسين، يريد قلب الأمور رأسًا على عقب، دون تقدير لعواقب الأمور، أو عبء المسؤوليّة. أمّا أنت يا دكتورة فأتلمّس فيك الاتزان، ولذلك أودّ تحذيرك من مغبّة الانجراف وراء هؤلاء المستهترين الذين يحاولون خرب ما بنيناه عبر سنين طويلة. مثلًا هنالك الدكتور ودود الذي ما إنْ مضى على وجوده معنا أسابيع، إلا وبدأ يجمع حوله عصابة من أمثاله من الهادفين إلى زعزعة كيان هذه الكلّيّة."

سرد الأستاذ الدكتور نابغة بعض القصص الأخرى ليدعم أطروحته عن المخرّبين، مستعملًا حبكة قصصيّة رفيعة المستوى، ولم ينس أنْ يدخل بين تعابيره تهديدات مبطّنة حول مغبّة تلك الأمور. أمّا الدكتورة أسامة فاستمعت لكلام الأستاذ بهدوء، دون أنْ تصدر عنها إشارة رضا أو رفض، ثم سألته عن المطلوب منها.

"الحقيقة يا دكتورة أنّه ربّما تُطرح قضيّة رئاسة القسم في عمليّة انتخابيّة، وإنّني أسألك التصويت لي، وطبعًا لن أنسى لك هذا خصوصًا أنّه سيقرّبني أكثر من عمادة الكلّيّة، وكذلك يبعد المتطفّلين. وتكريسي أصلًا سيكون في مصلحة أجيال الطلبة، إذ نحافظ على القيم التي صنعناها. أنا ضامن الفوز، لكنّني أحبّ أنْ أحصل على إجماع الهيئة التدريسيّة."

"شكرًا على نصائحك بروفيسور. أنا من جهتي حين تأتي اللحظة الحاسمة سأقوم بما يتطلّبه منّي ضميري، ومصلحة هذه الجامعة، لأنّ علينا تقع مسؤوليّة تأهيل الأجيال القادمة."

قدّر الأستاذ تفهّم الدكتورة له، وأثنى على اتّزانها ورصانتها مرّة أخرى، وتمنّى أنْ يكون لها تأثير كبير على زملائها من "الطائشين".

اجتمعت هيئة تدريس القسم للقيام بالعمليّة الانتخابيّة. وافتتح الأستاذ الدكتور نابغة القيرظاني الجلسة مع ما يرافقه من حركات صارت جزءًا من شعائر وجوده، يكرّسها بزيادة تظاهره بالانشغال الدائم، لأنّه كان حريصًا على أنْ يبرهن للجميع أنّه الوحيد الذي يعمل بجِدّ، ويغار على مصلحة القسم. أمّا مؤشّر الاحمرار في بشرته فوصل الآن إلى معدلٍ ما رآه عليه أحد من قبل.

حيّا الأستاذ الجميع مرحّبًا، ومذكّرًا بالمسؤوليّات، ومناشدًا الضمائر لتُحَكّمَ في مصلحة الأجيال والأمّة. وحين أشار إلى أنّه لا يريد إضاعة الوقت، بل سينتقل إلى العمليّة الانتخابيّة، قاطعه الدكتور ودود طالبًا حقّ الكلام، ومذكّرًا أنّ الإصلاحات الديمقراطيّة تعني أنْ يسمح لمن يريد ترشيح نفسه من المدرّسين الآخرين أنْ يفعل ذلك، وأنْ تعطى لهم حرّيّة التعبير عن آرائهم، وتقديم برنامجهم الانتخابي. واقترح الدكتور ودود أنْ يكون الاقتراع سرّيًا، خصوصًا حين وجود مرشّح واحد، وليس كما جرت العادة بأن يصوّت الجميع أمام رئيس القسم، فيعاد انتخابه بالإجماع، لأنّ الكلّ يرفع يده بالموافقة خشية العواقب.

الصاعقة التي نزلت على رأس الأستاذ كان يتوقّعها، ولكنْ كان يأمل أنْ ينجح كعادته في "سلق" الأمور وتحقيق ما يريد. وصواعق أخرى بدأت تتعاقب الآن على رأسه، ومعظم المدرّسين يوافق الدكتور ودود. وجاءت صاعقة الصواعق حين اقترح الدكتور أسعد ترشيح الدكتور ودود نفسه لرئاسة القسم. توت شاميّ، بل فصيلة جديدة من التوت، لم يروها من قبل، لطّخت وجه الأستاذ وصلعته، فصيلة من التوت الأزرق، فصيلة الضغط الشريانيّ الأعلى.

هاج المجلس وماج، لكنّ خبرة الأستاذ ودهاءه تغلّبا أخيرًا، فدعا الجميع إلى تهدئة الوضع، ثم أخذ زمام الأمر بيده من جديد، إذ رحّب بترشيح الدكتور ودود قائلًا إنّ القسم قد يستفيد من الوجوه الجديدة حتّى لو لم

تكن على مستوى الخبرة نفسه. وحذّر مجدّدًا من مغبة الركض وراء التغيير دون هدف واضح.

أمّا الدكتور ودود فقبل الترشيح، وشرح للحضور في غضون نصف ساعة الخطوط العامّة لبرنامجه الإصلاحيّ، مبيّنًا الهدف من كلّ فكرة يطرحها، وكيفيّة تحقيقها، والفائدة التي ستعود بسببها على مستوى التعليم في القسم والبلاد. كان واضحًا حازمًا جازمًا، يعرف ما يقول سياسة وأرقامًا، مستعرضًا إنجاز القسم خلال سنين من سيطرة الركود، وغياب التجديد، والبعد عن التطوّر العلميّ العالميّ، حتّى من الناحية النظريّة، لأنّ الكتب التي ترجمت سابقًا للتدريس، لم تعد تدرّس في مواطنها الأصل منذ سنين.

المناقشات التي تبعت ذلك أفرزت موجتين من الاتجاهات، واحدة تنجذب نحو الأستاذ، وواحدة نحو الدكتور، كما أدّت إلى فورة من الهرج والمرج إلى أنْ صمت الجميع فورًا حين تكلّمت الدكتورة لأوّل مرّة في الاجتماع.

"من الواضح أنّ لدينا الآن مرشّحَيْن، وأقترح أنْ لا نضيع المزيد من الوقت، بل نلجأ إلى الاقتراع السرّيّ بحيث نكتب اسم المرشح المفضّل على ورقة ونطويها. بما أنّ عددنا الكامل ثلاثة عشر شخصًا، فالقضيّة ستحسم حتّى ولو بصوت واحد."

دم الأستاذ يغلي الآن لهذا الكلام. صوت واحد؟ هل هذا معقول؟ أنْ يكسب بصوت واحد، وهو المعتاد على الإجماع؟ يا لسخرية القدر! ويحاول من جديد الإمساك بزمام الأمور فيطلب من الدكتورة، بحزم، أنْ توزّع الأوراق على الجميع، ثم تقوم شخصيًّا بجمعها، وفرزها، وتسجيل النتائج على السبّورة تحت أيّ من الاسمَيْن بتدوين إشارة.

انطلق الصوت الأنثويّ من خلال الصمت الذكريّ الواجم، المندهش، الفخور - اعتمادًا على أيّ الذكور كنت. زمرة من الرجال المتعجّبين، المعجبين، المبتسمين، الغاضبين، القلقين، المراقبين، الحذرين، الساعلين، العاطسين. وواحد منهم فقط، كان بالإضافة إلى ذلك، يضع إصبعه بين

الياقة والعنق، ويمطّ عنقه، فينحرف رأسه، فيما تتموّج بشرته بكلّ ألوان فصائل التوت: الشاميّ منها والبريّ.

"الأستاذ الدكتور، الدكتور، الأستاذ الدكتور القيرظانيّ، مربّي الأجيال الأستاذ الدكتور نابغة، الدكتور ودود، ودود، الأستاذ، ودود، الأستاذ نابغة، الأستاذ النابغة، الدكتور ودود، الدكتور ودود، وأخيرًا ورقة بيضاء."

شهقات وضحكات: لا غالب ولا مغلوب. أحدهم يعلّق: "انتهى الشوط الأوّل بالتعادل."

جبين الأستاذ الآن يتصبّب عرقًا، وما عاد بين رقبته وياقته متّسع يدخل فيه إصبعه المرتجف. التعادل؟ مع من؟ مع ابن البارحة، وهو الأستاذ العريق؟ جمع أفكاره بسرعة وقرّر أنْ يفجّر قنبلة في عقر دار هؤلاء الرجال المستهترين: أنْ يأخذ زمام المبادرة قبل أنْ تقع في يد الآخرين. ومهما تكن النتائج، أيّ شيء في نظره أهون من انتصار ودود عليه.

"اسمحوا لي أيّها الزملاء أنّه نظرًا لهذه الحالة التي وصلنا إليها، لا أرى من هذه الأزمة مخرجًا سوى ترشيح شخص ثالث، ولذلك أسألكم تأييدي في ترشيح الدكتورة أسامة المتري لرئاسة القسم، وأنا على استعداد لسحب ترشيحي إذا ما سحب الآخر ترشيحه."

بُهت السامعون لِمَا سمعوا! هذه أوّل مرّة منذ تأسيس القسم من مائة عام تترشّح امرأة لهذا المنصب، ومن قِبل من؟ من قِبل هذا الأستاذ المحافظ، بل الرجعيّ؟ الدكتور ودود أيّد الترشيح، وأعلن انسحابه فورًا. ويبدو أنّ الجميع هرع لتقديم الولاء دون تفكير كبير، فارتفعت الأيدي تقول "نعم" في اقتراع ما عاد سرّيًّا. صفّق الجميع للدكتورة التي مازالت واقفة أمام السبّورة بقامتها المديدة، وعلى وجهها ابتسامة ذهول مشوبة بالرضا.

شكرتهم، فسارع الأستاذ يشدّ على يدها متظاهرًا بالسعادة، وتبرّع بإعداد تقرير الجلسة ورفعِه إلى السلطات العليا. شكرته الدكتورة، وبدأت تتلقّى تهنئة الآخرين، إلى أنْ جاء دور الدكتور ودود الذي طوّق خصرها بيده،

وطبع على جبينها قبلة دون أنْ ينبس بكلمة. وهذا أيضًا لم يحصل من قبل في هذا القسم. زاد ودود من دهشة الجميع حين قال:

"إنّه لمن دواعي سروري أنْ أقدّم لكم الدكتورة بصفتها زوجتي. سبق لنا إخفاء هذا الأمر نظرًا للاختلاف الدينيّ بين عائلتي وعائلتها، ووعْدنا للعائلتين بالتروّي، إلى أنْ يتمّ القبول التامّ من بعض أطراف كلا العائلتين. لكنّ أحداث اليوم، التي قلبت مفاهيم هذا القسم، إنّما عزّزت مفاهيمي، ولا أشكّ أنّ أسامة تشاركني الرأيّ، بأنّ الزوابع ضروريّة أحيانًا لبلوغ الربيع الجميل."

# التانغو الأزليّ

قالت زوجتي إنّها متعبة تلك الليلة، ولذلك لن ترافقني مباشرة إلى مقهى الفندق حيث كنّا هذا العام في رحلة استجمام على شاطئ البحر المتوسّط في جنوب الأندلس.

خلال الأيّام التي قضيناها هناك، كنّا كلّ ليلة نمضي بقيّة السهرة في مقهى الفندق الذي يقدّم برنامجًا موسيقيًّا راقصًا متنوّعًا، يختلف موضوعه بين يوم وآخر، لكنّ المواضيع كلّها تحتفي بالغناء والرقص والموسيقا والمسرح، ثم تُترك الساحة للنزلاء ليمارسوا الرقص على مزاجهم على أنغام الفرقة الموسيقيّة الحيّة التي تبقى إلى ما بعد منتصف الليل.

تركتها على أمل أنْ تتبعني متى أخذت قسطها من الرّاحة بعد العشاء، وتوجّهت متتبّعًا آثار الموسيقا التي تنامت نغماتها الراقصة في جسدي مع اقترابي من حديقة المقهى حيث بدأت الطاولات باستقبال الساهرين، لكنّ الوقت كان لازال مبكّرًا، ولن تمتلئ الأماكن إلاّ بعد أكثر من نصف ساعة.

الطاولات اصطفّت في جهات ثلاث، تشكّل أضلاع مستطيل حول باحة بمثابة مسرح في الهواء الطلق. ويمكن تصوّر أنّ الضلع الرابع الذي يُكمل هذا المستطيل هو خطّ وهميّ يصل بين بعض الشجيرات، ومدخل للراقصين، وبداية بار كبير إلى يمين المدخل.

ومع أنّني لمحت بعض رفاق الرحلة من العائلات مجتمعًا حول طاولة واحدة، آثرت أنْ أختار مكانًا آخر لأنّ زوجتي لم تكن معي بعد، ولأنّني بطبيعتي أحبّ أنْ أحتفظ لنفسي بخلوة تأمليّة خاصّة بادئ الأمر.

وجدت طاولة خالية في الصفّ الأماميّ للجانب المواجه مباشرة لفسحة الرقص، وهو صفّ يتكوّن من طاولات أعدّت الواحدة منها لشخصين. ولحسن الحظّ أنّها كانت مجاورة مباشرة لطاولة في وسط الصفّ تمامًا يرتادها يوميًّا رجل في السبعينيّات من عمره، وربّما يقترب من الثمانين،

كنت أرقبه في الأيّام الماضية وأردت أنْ أعرفه أكثر، سواء بالتحدّث إليه، أو على الأقلّ العيش مع تصرّفاته عن كثب.

كعادته كلّ ليلة، جلس وعلى طاولته زجاجة شراب وكأسان. يشرب من كأس، والكأس الآخر مملوء، لكنّ الكرسيّ الآخر خال، يلاصق الكرسيّ الخالي الذي أمام طاولتي، والذي أعلم أنّ شريكتي ستشغله في أيّ لحظة.

يمرّ أمامي أميركيّ وزوجته، تعرّفنا إليهما أثناء الرحلة، فأطمئنهما أنّني سأنضّم إلى المجموعة حالما حضرت زوجتي. وحين يتّجه مع زوجته إلى حيث يجلس رفاق الرحلة، يكتشف أنّه بحاجة إلى المزيد من الكراسي فيأتي باتّجاهي، لكنّ معرفته بإمكانيّة حضور زوجتي لتشاركني الجلسة جعلته يطلب من "جاري" السماح له بأخذ الكرسيّ الذي عند طاولته إنْ لم يكن بحاجة إليه. وبصورة عفويّة، وكما يحدث في مثل هذه الحالات، سبق للأميركي أنْ وضع يده على الكرسيّ وهمّ بحمله في اللحظة نفسها التي كان يستأذن فيها، فما كان من العجوز إلاّ أنْ انتفض بعصبيّة وانحنى نحو الطاولة في حركة تنمّ عن محاولته مسك الكرسيّ، وقسمات وجهه تدل بوضوح أنّه لا يسمح للكرسيّ بمغادرة المكان. قلت للأميركيّ أنْ يأخذ الكرسيّ الذي أمامي، ففعل.

عاد الهدوء إلى وجه العجوز، واعتدل في جلسته معتمدًا بمرفق ذراعه اليمنى على الطاولة، وطارحًا ذراعه اليسرى على كتف الكرسيّ الذي يجلس عليه، وبدأ يجول ببصره حول المكان استمتاعًا وتأمّلًا كما أوحت لي عيناه الثاقبتان كعيني صقر. في حركاته وقار يدّل على أنّه بقايا مجد قديم، كما أنّ في هندامه ومظهره ما يعزّز ذلك. شعر رأسه لا زال كثيفًا على الرّغم من مرور السنين، لكنّ لونه الرماديّ الأبيض دليل قاطع على مرورها الذي ترك آثاره أيضًا على قسمات وجهه، وإنْ لا زالت تحتفظ بأناقة "الجنتلمان". هندامه أنيق ينمّ عن ذوق رفيع، على الرّغم من كونه مجرّد "بلوزة" صيفيّة نصف كم، بألوان برتقاليّة وكحليّة أنيقة، وبلطال، وحذاء جلديّ مناسبين. الثياب ليست جديدة، ولكنّها بحالة جيّدة، ومن المحتمل أنّ قياسها الذي يبدو أنّه

يزيد قليلًا عن قياسات العجوز الحقيقيّة، إنّما هو نتيجة خسارة العجوز بعض الوزن. لكنّ صحّة العجوز بخير.

تتوقّف الموسيقا لحظات ... ثم تدوّي إيذانًا ببدء استعراض الليلة، معوّلة على لحن "غرانادا" الشهير، حين تدخل إلى الحلبة ثلاث راقصات فلامينغو بفساتين خمريّة اللون. بعد فترة من الغنج والدلال، يدخل نجم الليلة الراقص بقوّة: رجل وسيم، ممشوق القامة، أسمر البشرة، أسود الثياب، تشعّ إسبانيا كلّها من قسماته العنيدة، وتعابيره الفتّاكة، فهل هو المصارع، أم الثور، أم الفرس؟ يصعب تمييز ما كنت أرى، وقد فعلت الموسيقا في النفس فعل الخمرة. كان تناسق الرقص مع الطرب والحركات والقسمات ينقل إلى الفؤاد مشاهد متتابعة تزيد من الأشواق وتلهب الذكريات.

جاري العجوز يتأمّل. أصابعه تنقر على الطاولة. قدماه ترقصان دون أنْ تغادرا مكانهما. في وجهه تحفّز وقلق، وسنين من اللوحات المتلاحقة. ينظر بين الحين والآخر إلى الكرسيّ الخالي أمامه. يرفع نظره فتقع عيناه على عينيّ، ثم يشيح ببصره نحو الراقصين ثانية.

تأتي زوجتي، على وجهها ابتسامة ارتباك، وهي تشقّ طريقها بين الطاولات لتصل إليّ. أتذكّر أنّه لا يوجد على طاولتي كرسيّ لها، أهبّ كالمجنون، وهي تحاول البدء باستئذان جاري لأخذ كرسيّه الخالي، فأقول لها بالعربيّة بنبرة سريعة: "دعيه ... دعيه. هاكِ ... هاكِ ..." وأكون قد التقطّت بسرعة البرق كرسيًّا من طاولة ورائي، بعد استئذان أسرع. أحسست أنّ جاري ارتاح لتداركي الأمر، ورأيت أنّ أساريره انفرجت بشكل ملحوظ.

جلستْ قبالتي، فصارت بيني وبين جاري، ما فسح لي المجال أنْ أراقبه أكثر بحجّة أنّني أنظر إليها بشكل طبيعيّ. خبّرتها عما حدث حين حاول الأميركيّ أخذ الكرسيّ الذي وراءها، فأجابتني دون اكتراث أنّ جارنا العجوز رجل غريب الأطوار، وذكّرتني بتصرّفاته اليوميّة، ثم قالت متهكّمة: "يبدو أنّ الليلة حافلة، لنر ما سيقوم به، خصوصًا أنّه لا زال شغلك الشاغل منذ

وطئنا هذا المكان."

أنهى نجم الليلة الشابّ استعراضه، ليبدأ الحفل بالهبوط من الأوج الذي عرج إليه المشاهدون انجذابًا فامتلأت شحناتهم حدّ الحاجة إلى التفجير، وصاروا على استعداد لبلوغ ذروتهم الخاصّة، بعد أنْ بلغها راقص الفلامينغو نيابة عنهم. لكنّ قلّة منهم ستجرؤ على الدخول إلى المسرح مباشرة، عدا العجوز الذي ما كان لينتظر انتهاء الحفل وخروج الراقصات، بل اندفع كعادته كلّ ليلة إلى شغل زاوية يرقص فيها بمهارة وثبات يدعوان إلى الإعجاب، وكأنّه في منافسة مع المحترفين والمحترفات من الراقصين والراقصات، الذين لم يمانعوا وجوده على الحلبة قبل مغادرتهم.

كان رقصه يتركّز على "المراقصة"، فحركات جسمه ويديه توحي أنّه يراقص سيّدة بين يديه. المشهد الذي يوحيه أصيل لدرجة أنّه يمكن تصوّره وكأنّه لقطة سينمائيّة أصلها رجل وامرأة يرقصان، لكنّ عامل المونتاج قام بإخفاء الراقصة، وترك الراقص.

كان يستمرّ في رقصه كذلك حتّى تغادر الفرقة المسرح تمامًا، وهذا أمر قد يستمرّ أكثر من نصف الساعة، دون أنْ يتقدّم أيّ من الساهرين إلى الحلبة للرقص. لكنْ في تلك الليلة، قرّرت السيّدة الأميركيّة (رفيقتنا في الرحلة)، وهي سيّدة في الستينيّات من عمرها، من أصول جنوب أميركيّة، وبارعة في رقص التانغو ومشتقّاته، أنْ لا تنتظر مغادرة الراقصين، أو أنْ تعتمد على زوجها الذي لا يحبّ الرقص، بل أنْ تُجامل هذا العجوز البارع الذي ربّما كان متعطّشًا لرفيقةٍ له في الرقص. اتجهتْ إلى الحلبة وبدأت الرقص متدرّجة نحو صاحبنا العجوز الذي، لا شكّ، فوجئ بهذه المبادرة، لكنّه تماسك مواصلًا رقصه، وجاملها قليلًا بالمكوث إلى جانبها، دون أنْ يتخلّى عن رفيقته الوهميّة، وسرعان ما تدرّج بعيدًا كأنّه يقول دعوني وشأني.

شعرتُ بارتياح كبير لكياسة وذوق السيّدة الأميركيّة في محاولتها مشاركة هذا الرجل بعض هوايته، ولم أستطع الشعور بالنقمة عليه لأنّه لم

يستجب لتلك الكياسة. شيء ما في تصرّفاته كان يبرّر له ما يفعل. أو هكذا أقنعنا أنفسنا. بل إنّ براعته المتناهية، وعدم محاولته التدخل في شؤون الآخرين أو استغلالهم، تُضاف إلى مبرّرات الشفاعة له.

اندفعتُ نحو السيّدة الأميركيّة وراقصتها وشكرتها على كياستها وحكمتها، فواصلت ابتسامة ما غادرت شفتيها منذ ابتداء المساء. لم نكن بحاجة لمناقشة أمر الرجل، والتساؤل عن مسبّبات تصرّفاته. هل كان في يوم من الأيّام راقصًا شهيرًا؟ هل كانت له رفيقة عزيزة فقدها، ولا زال يعاني من هذا الفراق، أم أنّه يحتفي كلّ يوم بحبّها على الرّغم من غيابها الجسديّ؟ هل يحتفي بوجوده؟ بمشاعره؟ مهما كان الجواب، لا أعتقد أنّ أحدًا يشكّ في صدق هذا الرجل. حركاته لا تزييف فيها. أوهام؟ وما يهمّ إنْ كان الوهم حقيقته الكاملة؟

عاد الرجل إلى طاولته بعد ليلة حافلة، كان فيها نجمًا لا يقلّ أهمّيّة عن النجم الذي أتوا به ليحيي الحفلة.

بعد أنْ بدأت الليلة تقترب من الانتهاء، كما توحي به مغادرة بعض الساهرين المكان، وتوقّف الفرقة الموسيقيّة، واستبدالها بموسيقا مُسَجّلة، دخل المكان راقص الفلامينغو، وعبر الحلبة التي خلت سوى من أزواج قليلة من الراقصين والراقصات، متّجهًا نحو العجوز. ولما صار قرب الطاولة، انحنى له محيّيًا باحترام بليغ، فتبادلا بعض الكلمات بالإسبانيّة. حين مدّ الراقص يده ليصافح العجوز مودّعًا، وقف العجوز وربت على كتف الراقص الذي انحنى ثانية بتواضع كبير، وغادر.

جلس العجوز على طاولته يشرب من كأسه وأمامه كأس آخر ما مسّته شفة ملتهبة، وكرسيّ ما احتضن جسد امرأة دافئ، لكنّه كان يواصل الرقص في كلّ نبضة من نبضاته.

# الطيّارة

أكاد من الفرح أطير!

ها أنا هذه أبدأ بنقل حوائجي الشخصيّة من الغرفة التي تشاركت فيها مع أختي سناء، التي تصغرني بعشر سنوات، إلى غرفة أخينا الأكبر زاهي.

لم يحصل هذا الأمر بسهولة أبدًا. والديَّ، ولأسباب غير واضحة لي تمامًا، أرادا أن أبقى مع سناء في الغرفة التي نتشاركها في الطابق الأوّل من المنزل، ليس بعيدًا عن غرفتهما. حجّة أمّي أنّ سناء لن تستطيع تحمّل بقائها وحيدة في الغرفة. وحجّتي أنّ سناء تكبر، وأنّني، وأنا في آخر سنوات المدرسة، بحاجة للتركيز على دراستي للحصول على المعدّل الكافي الذي يؤهّلني لدخول كليّة الطبّ هنا في بلدي دمشق. ذكّرتها كيف اضطر زاهي للسفر من أجل الدراسة لأنّه لم يحقّق المعدّل المطلوب. وذكّرتها أنّها إذا كانت قلقة على كوني فتاة ستكون في غرفة لوحدها على بعد طابق واحد من غرفة والديها، فحتمًا لن يُسمح لها بالسفر خارج البلاد من أجل الدراسة.

وذكّرَتني أنّني فتاة، وأنّ لا أحدَ يطلب منّي المتابعة بعد الثانويّة العامّة، وأنّ والدي، بعون الله وإرادته، قادر على تأمين حياتي إلى يوم زواجي وأكثر.

يبدو أنّها تجاهلت ترتيبي الأوّل في الصفّ، وعلاماتي التي لم تشهد المدرسة لها من نظير، في كلّ سنة من سنين دراستي. وفكّرْتُ كيف أنّني أريد إتمام تعليمي، وأريد التخصّص والعمل، وأريد وأريد ... لكنّني توقّفت عن الكلام، خصوصًا حين راح ذهني في طريق "أريد أن أكون حرّة"، وحين ذكّرت نفسي أنّ الطبّ ليس ما كان على بالي مطلقًا.

قدّم لي والديّ كلّ الحبّ والعطف والرعايّة بكرم عزّ مثيله: أفضل الطعام وأجمل الكساء. ومقارنة مع أقراني، كنت حتمًا هدفَ أكثر من عين حاسدة.

بيد أنّ شيئًا ما كان مفقودًا. شيء لا أستطيع التعبير عنه بالكلمات. أو ربّما لا أجرؤ أن أقول إنّني رغم هذا النعيم كلّه لا زلت أبغي الحرّيّة. أن أتحرّر من ماذا؟ وكيف أواجه أمّي بهذا الشعور إن كنت أنا نفسي أتخبّط في فهمه؟ وهل يمكن لوالدتي أن تفهمه؟ هل هي حرّة؟ هل رجالنا أحرار أصلًا؟

يصيبني نوع من الرضا (غرور؟) حين أحسّ أنّني أعلم أكثر من أمّي وأبي. ولكن أقرّ بشكري لهما عدم تدخّلهما في عشرات الكتب التي أقرأ. وأطمئنّ لمديحهما أنّني سابقةُ عمري، وأنّني قادرة على اختيار المناسب. ولعلّ بعض هذا يعود لمحبّة والدي للقراءة، وهو لم يكمل تحصيله أكثر من الابتدائيّة.

جاءتني المساعَدَةُ من أخي قبل مغادرته. أيّد حجّتي في ضرورة الخصوصيّة والتركيز على الدراسة. ذكّر أمّي وأبي بوضعه. وذكّرهما أنّنا في الستينيّات من القرن العشرين، في عصر صار فيه للمرأة مكانة متقدّمة، والمزيد من الفتيات يكملن دراستهنّ. ونبّه بفائدة أن تُرضي ابنتهما طموحها وهي أمام أعينهما. عندها أقرّت أمّي أنّ التعليم سيجعل من الأمّهات أكثر فهمًا لبناتهنّ، وأكثر قدرة على مساعدتهنّ في واجباتهنّ الدراسيّة، على عكسها هي الجاهلة بهذه الأمور. اندفعتُ نحو أمّي أعانقها، وأفكّر أنّها لم تقل شيئًا بمثل هذه القيمة منذ زمن طويل.

بقي الشعور بالخيبة يلازمني لأنّه لولا زاهي، الرجل، لربّما ما تحقّق ما أريد. قرّرت أن لا أشغل بالي أكثر بالبحث عن "الناطور"، وأسرعت أستعدّ للسعي وراء العنب.

يوم من أيّام آب في دمشق عام 1965. الهواء في باحة الدار ساكنٌ تمامًا، والظلّ وفّر بعض الشعور بالبرودة مقارنة مع شدّة الحرّ في الخارج، لكنّه ما كان ليمنعني أن أذهب بين الحين والآخر إلى البحرة التي تتوسّط الفناء، أو ما يسميه الدمشقيّون "أرض الديار"، بنافورتها، وأداعب الماء بيديّ، ثم

أجفّفهما على وجهي وصدري. ما كنت لأنقطع لحظة عن أيّ ممارسة تذكّرني بنعيم هذه الجنّة المزدهرة بين جدران وزوايا المنزل ومخادعه.

ما همّني عدد الرحلات التي قمت بها بين الغرف. المهمّ أنّني كنت أوّد الاستقرار والاستقلال في الأعالي بأسرع وقت. أردت جميع كتبي أن تصعد معي. ولهذا كان عليّ أن أجمع ما تركه زاهي على رفوف وطاولة الغرفة من كتب وأدوات، وأضعها في خزانة مخصّصة لمثل هذه الأغراض في سرداب يستعمل أساسًا غرفة للمؤونة: "بيت المونة". وهي غرفة تحت أرض الديار يحتاج الوصول إليها إلى الهبوط ثماني درجات.

شعائر العمل تركّزت على حملي بعضًا من كتبي، في غرفتي السابقة، في علبة أجتاز بها ممرًّا على طول الطابق الأوّل إلى الناحية المقابلة. وهناك أدخل من باب يؤدّي إلى درج خشبيّ ضيّق يصعد بي إلى سطح المنزل. في نهاية الدرج المسقوف كلّه فسحة فيها باب يؤدّي إلى غرفة زاهي، وآخر إلى سطح المنزل.

أدخل غرفة زاهي، أفرغ ما أحمل، أجمع في العلبة ما استطعت إليه سبيلًا، أهبط الدرج الخشبيّ، أجتاز الممرّ، أهبط الدرج الحجريّ الواصل بين الطابق الأوّل وأرض الديار، أقطع عرض أرض الديار لأهبط الدرجات التي توصلني إلى السرداب، أوزّع حمولتي على رفوف الخزانة، أصعد متلهّفة نحو البحرة، أرطّب روحي وجسدي قليلًا، أتابع صعودًا على الدرج الحجريّ نحو غرفتي السابقة لأجد سناء تحاول جمع بعض الكتب في علبة لأنّها أحبّت أن تساعدني، آخذ ما لديها وأشكرها، ثم أبدأ الجولة التالية.

استمرّت العمليّات لجزء كبير من اليوم، وكنت وسناء نتصبّب عرقًا. لكنّها، على صغر سنّها، كانت فخورة أنّها ستتفرّد بالغرفة. قالت إنّ هذا يشعرها أنّها كبيرة أيضًا.

حين انتهينا، ما كان لنا سوى ما نقوم به عادة بعد مثل هذه الجهود. هرعنا وارتمينا في حضن الماء، وغمرنا جسدينا وما عليهما من كساء وزينة حتّى لامسنا قعر البحرة وأخفنا أسماكها الملوّنة، ثم انتفضنا بارزتين

ضاحكتين عابثتين بالماء، فرشَشْناه واحدتنا باتجاه الأخرى، وأصاب مساحة كبيرة خارج البحرة. شاهدتنا والدتنا غاضبة ضاحكة، وشدّدت أنّ علينا تنظيف المكان ونفسينا بأسرع وقت قبل عودة الوالد من عمله.

مقارنة مع كلّ أرجاء هذا البيت، الغرفة على السطح أكثر تذكيرًا بحرّ الصيف الدمشقيّ في عِزّه، فشهر آب يشار إليه على أنّه "اللهّاب". أثناء منتصف النهار تصبح الغرفة أتونًا مُسْتَعِرًا مُسْتَعَارًا من جهنّم. أمّا في الصباح الباكر والليل، فهواء السطح بارد عليل.

كنت قبل اتّخاذ هذه الغرفة مسكنًا أعلم الكثير عن هذا السطح. فيه تُفضّل أمّي نشر الغسيل، رغم الصعود الطويل، لكنّ الشمس "صحّة وعافية" كما تقول. في مواسم المشمش، كنت أساعد أمّي في نقل الصواني لتعريض "المعقود" للشمس ليكتسب قوامه النهائيّ كواحد من أهمّ مكوّنات الترويقة الدمشقيّة: مربّى المشمش. وفي أيّام معرض دمشق الدوليّ كنّا نصعد جميعًا في المساء لمشاهدة الألعاب الناريّة التي كانت تجذبنا رغم بعد موقعها. وأيّام الجمعة كان والدي يتولّى شوي اللحم على منقل الفحم على السطح، وبهذا لا يتأثّر البيت بالدخان وتبعاته. وحين ننزل بالشواء إلى أرض الديار، تكون أمّي قد أعدّت المائدة قرب البحرة في الهواء الطلق، ونتناول الطعام على نشيد النافورة، وفي ظلال الياسمين والنارنج والكبّاد.

أُطلُّ من السطح، محميّة بدرابزين حديديّ، على فناء الدار تحتي لأرى سطح الماء في البحرة، وقد انعكست عليه ظلال الأشجار والعرائش، وبينها تتبختر الأسماك الملوّنة، ولكأنّ حيلة تصويريّة جمعت بين الكائنات المائيّة والأغصان البرّية.

أرمي ببصري خارج نطاق السطح على مقوّمات دمشق القديمة ببيوتها وشعابها وأزقّتها، وكيف تنتهي عند سفح جبل قاسيون. وكما يفتخرون: "في حضن قاسيون". لكنّ المَعْلَم الأهمّ، والأقرب إلى بيتنا، هو المسجد الأمويّ بمآذنه الثلاث، وهندسته المتميّزة، وما يحويه من تحف: صرح يؤرّخ لحضارة عريقة.

هذه هي الشمس تميل إلى الغروب. ومع تبدّد الحمرة المشرقيّة أتى صوت مؤذّن الجامع الأمويّ رخيمًا بعيدًا، لكنّه مسموع كدمدمات لحن تتقصّد به السماء كلّ أذن صاغية، وتسْتَجِبُ كلّ قلب صاف. يؤدّي والديّ صلاة المغرب، ثم تبدأ عجقة التحضير للعشاء.

أحسست وأنا على هذا الارتفاع الأرضيّ الذي رافقه صوت يُنسب إلى أعالي السماء، أنّني بتلة ورد محمولة على النسيم. أحسست أنّي أطير بكلّ جوارحي. وفهمت الآن لماذا يطلقون على هذه الغرفة على السطح "الطيّارة". إنّها الغرفة الفريدة عن كلّ المنزل، الشاردة في بُعدٍ وراء منطقة الشفق. الغرفة "البوهيميّة" التي لا تتماثل مع تعقيدات ورسميّات المنزل. إنّها الغرفة التي تناسب محبّتي للعلوّ والسموّ والتمايز والانطلاق في اتجاه النجوم.

أدخل غرفتي الجديدة، وأنظر إليها الآن بعين مالِكَتِها. أحبّ أنّها ستكرّسني على هذا السطح فوق المدينة الخالدة. صحيح أنّني أحبّ الجنّات الأرضيّة الدمشقيّة، لكنّني أشدّ انجذابًا نحو الانعتاق من أيّ قيد أو شرط يأتي مع الخير والجمال. نعم، أكاد من الفرح أطير!

فَتَلْتُ بإبهامي وسبّابتي زرًّا إلى جانب الباب، فأضاء المصباح الكهربائيّ المعلّق وسط الغرفة بسلك ومَقْبِس من الطراز القديم. الضوء كان باهرًا بقوّة مئة شمعة، ولا شكّ سينفعني في دراستي ليلًا. جدران الغرفة وسقفها مطليّة كلّها باللون الأبيض. الأرض إسمنتيّة مثل أرض السطح. تحدّث زاهي عن تبليطها مرارًا، لكنّ الوقت استبق النيّة. ولذلك كان في الشتاء يفرش عليها سجّادة صوفيّة قديمة من صنع دمشق، طغى عليها اللونين الأحمر والبيج، لكنّ نقوشها فارسيّة التصميم. وفي الصيف تحلّ حصيرة مكان السجّادة.

يتوسّط الغرفة سرير مفرد من الحديد الصبّ المتواضع. المكتب الذي سأستخدمه خشبيّ كبير، بأدراج كثيرة، يقبع إلى جانب باب زجاجيّ عريض بإطاراته الخشبيّة، وهو الذي يخدم كنافذة للغرفة، وكباب ثانٍ إلى السطح مباشرة، فلا يضطرّ من في الغرفة العودة إلى بابها المقابل عند

الفسحة في أعلى الدرج ليدخل السطح. وهذا ما أعجبني جدًّا لأنّه يُمَكّنني من الاستلقاء على الفراش، وأمامي مدى السطح، وبعض من السماء التي فيها أُقَبّلُ وجه القمر، وأغمزُ ما تيسّر لي من النجوم.

لم أكن أعلم مدى سعة هذه الطيّارة، ولكنّ ما فيها من أثاث يبيّن أنّها غرفة كبيرة الحجم. خزانة للثياب بثلاثة أقسام، ومنضدة جانبيّة بمرآة، تكاد تصل إلى السقف، أمام رأس السرير، ورفوف قام زاهي بتركيبها على كلّ مساحة متوفّرة من الجدران. بالإضافة لكرسيّ المكتب، يوجد كنبة صغيرة لشخص واحد، يمكنه الجلوس فيها براحة، وسند ذراعيه من الجانبين، وهو يقرأ كتابًا بين يديه.

لن أستغني تمامًا عن غرفتي السابقة التي ستحتفظ بمعظم ثيابي وأدواتي، وعلى كلّ حال لا بدّ لي من النزول إلى الطابق الأوّل لاستعمال المرحاض كلّما دعت الحاجة، وهذا هو العيب الأساس في انتقالي هذا. أمّا الماء، فموصول بالسطح من طريق صنبور وحيد.

صَرَخَتْ أمّي من أرض الديار مرّتين تلك الليلة: "زهرة، زهرة، أما انتهيت من ترتيب الغرفة بعد؟" وأجبتها مرّتين أن لا تقلق، وأنّني سأخلد إلى النوم قريبًا. وأخيرًا، راعني سماع قدميها تطرقان بقبقابهما على خشب الدرج صعودًا نحو الطيّارة. انتفضت خارج السرير بجسدي العاري، وأغلقت الباب تلقائيًّا، ثمّ ارتديت قميص النوم. أعدت فتح الباب، وسمعت خطوات أمّي التي كانت تزداد تثاقلًا وتباعدًا مع زيادة الصعود على هذا الدرج الضيّق المغلق. انفجرتُ ضاحكة وأنا أسترجع في ذهني مشاهد من أفلام هتشكوكيّة.

تمالكت أعصابي، وتظاهرت أنّني في آخر مراحل إعداد سريري للنوم. وكذلك هيّأت نفسي لسماع محاضرتها التالية، التي لن تكون سوى إعادة لما هو معهود منها في مثل هذه الحالات. "ألم يكن من الأفضل لو بقيت في الغرفة مع أختك؟ ماذا لو أردت الذهاب إلى المرحاض في منتصف الليل؟ ألست خائفة من البقاء هنا لوحدك في الليل؟ ألن تفتقدي أختك؟"

عانقت أمّي وقبّلتها على وجنتيها، مُصْدِرَةً كلّ مرّة تلك الأصوات المألوفة التي تؤكّد على صدق المشاعر. حبّي لها حبّ أصيل بلا شكّ. لا بدّ أنّها تشعر بذلك.

"تصبحين على خير يا زهراء." كانت تذكر اسمي الآن كما هو في قيد النفوس، وكأنّ "زهراء" أهمّ من "زهرة"، وتستعمله كذلك إشارة إلى رضاها عنّي في نتيجة الأمر. أمّا أنا فانجذابي لم يكن إلى "زهراء" أو "زَهْرَة"، بل إلى الزُهرة ... نعم، إلى مناطق خارج نطاق الحدود المألوفة.

شعرت فجأة بتعب شديد، لكنّني بكلّ سرور كرّمت جسدي العاري بأن جعلت كلّ ناحية منه تلمس نعومة الفراش القطنيّ، قطن بلادي، أجمل قطن في العالم. تقلّبت كثيرًا قبل أن أستقرّ على ظهري وأنظر عبر الباب المفتوح إلى السطح. عندها بدأت جرعات من شذى الياسمين الدمشقيّ، المحمولة على نسائم الليل الباردة، تدخل كلّ منافذي وتضرب عميقًا في مهجتي. كتمتُ تأوّهات نشوتي وأنا أتخيّل لو أنّ فرعًا من عريشة الياسمين، ذلك الذي وصل في صعوده إلى ما تحت الطيّارة بقليل، يتجرّأ أكثر ويتسلّل إلى فراشي باحثًا عن جسد يتفتّح للحبّ، فيمعن في مداعبته حتّى الذروة.

استكان البيت وأهله والليل الذي لا أعرف كم سيطول أو يقصر. أحسست أنّني وحدي بلا رقيب، وعلمت أنّ الطيّارة بكلّ حمولتها لن تطير، وأنّها مجرّد اسم مستعار. أمّا أنا، فلا جنّة البيت، ولا طيّارته، ولا روابطي ستلجمني عن التحليق.

صدرت عنّي، رغم إرادتي، واحدة من تلك الآهات المكبوتة. اندفعتُ خارج السرير بجسدي الغضّ العاري، حافية القدمين، وخرجت من الغرفة راكضة نحو السطح.

توقّفت في مركزه. مددت ذراعيَّ فوق رأسي، وبيدي اليسرى قبضت على الزُهرة، وبسطت يدي اليمنى لتلامس أصابعي وجه القمر.

# رَنين

الرّنّة المعتادة لهاتفي "الذكيّ"، تلك التي تضرب ضربة واحدة لتنبّهني أنّني تلقّيت رسالة معيّنة، ما فتئت ترعبني لأنّني أكره الضجيج الذي لن أعتاد عليه ولو ضرب ضربته ومشى. مثلها، مثل كثير من الأشياء في عصرنا، أمرٌ لا بدّ من التعايش معه.

وهاهي اليوم تضرب وتمشي ... لكنّ مضمون الرسالة يختلف عن رسائل الرتابة الاعتياديّة من معلومات وتحيّات وأعمال. أمور نتداولها ونتعامل معها ونجعلها تمرّ كما ينبغي، وكلّما استطعنا إلى ذلك سبيلًا.

خبر اليوم جاء من صديقة لتعلمني أنّ صديقة مشتركة دخلت المستشفى، وأنّ ما تبقّى من حياتها ثلاثة أسابيع فقط. إنّه السرطان. اكتشفوه منذ أقلّ من سنة، والعلاج زاد من البلاء عوضًا عن تخفيفه. حالة من الحالات النادرة.

جمعني مع هذه الإنسانة مكان عمل واحد، تقاعدت أنا منه، وبقيت هي على أساس أنّها تنوي التقاعد حين تبلغ الستين. أكبُرها بسبع سنوات. حين عرفتها أوّل مرّة كانت في الخمسين، لكنّها كانت تبدو وكأنّها في الثلاثين. لطيفة، أنيقة، مهذّبة، دؤوبة. نشأت بيننا علاقة تقدير متبادل كنت أحسّ خلالها أنّني بمثابة أخ كبير لها. كنّا نتبادل الحديث أثناء استراحات الغداء والقهوة.

حدّثتني عن حياتها مع زوجها الكاهن المسيحيّ، وعن خدماتها للكنيسة والمجتمع. حدّثتني عن ابنتها التي قابلت شابًّا كفيفًا كانت تساعده من طريق الكنيسة فتزوّجته. لم يمنعها كوني لا أمتّ إلى التديّن بصلة من قبولي كشريك في الإنسانيّة. عندما علِمَتْ عن اهتمامي بالكتابة، وافقت أنْ تزوّدني بالمعلومات الكافيّة لأوثّق قصّة ابنتها. كانت ثقتها بي كبيرة، وحين عرفَتْ أنّني

أحضّر العوائد الضريبيّة بنفسي، وأتاجر في الأسهم، صارت تستشيرني في الشؤون الماليّة العائدة لتوظيف مدّخراتها، خصوصًا ما يتعلّق بالتقاعد.

ما أحبّتْ في البداية أنْ تستقبل أصدقاء العمل وهي في المستشفى، لكنْ بعد أيّام وافقت على استقبال سيّدة صديقة، وبعدها استقبلت من أراد زيارتها. وددت أنْ أذهب لزيارتها، لكنّني قرّرت أنْ أراعي أيّ اعتبارات قد تكون في ذهن امرأة صارت على هذه الحال، بعد أنْ كانت متألّقة في نظر من يعرفها، خصوصًا من الجنس الآخر. ما أردت أنْ أحرجها. ما أردت أنْ أودّعها. ما أردت أنْ تذهب.

واليوم، بعد مرور الأسابيع الثلاثة، يرنّ الهاتف الذكيّ رنّته الضاربة. أكشف عن مضمون الرسالة من صديقتنا المشتركة. ماتت صديقتي قبل ثلاثة أشهر من عامها الستين. لم تتحقّق رغبتها في وقت التقاعد، والاستمتاع ببقيّة العمر دون عناء العمل المضنيّ الذي أمضت فيه حياتها.

ضَرَبْتُ بالهاتف على الأرض. تهشّمت شاشته الواقيّة. تذكّرت أمّي حين كانت تقول: "الله يلعن الشيطان." خجلت من نفسي. جلست على أقرب كنبة وبكيت ... وحيدًا. إلّا من ذكريات شبيهة قاسية، وإسقاطات على ما يجري في هذا العالم.

ركّزت في ذهني على ما كانت تمثّله هذه المرأة من خُلق، وقرّرت التماسك والاحتفاء بما شرّفتني به الحياة من معرفة مزاياها وفضلها وحكمتها. ورغمًا عنّي بدأتُ بالابتسام وأنا استذكر لقاءاتنا الصباحيّة معظم الأيّام قبل بدء العمل. كنّا نصل قبل جميع الموظّفين. وحين أدخل وأراها جالسة إلى مكتبها، كانت ترفع رأسها نحوي بابتسامة مشرقة، ترحبّ بي أيّما ترحيب.

الرّنّة التالية جاءت لتعلمني عن موعد ومكان الجنازة.

ذَهَبْتُ.

قاعتان كبيرتان من قاعات الكنيسة خصّصتا لحفل الوداع. قاعة رئيسة، والقاعة الثانية موصولة بشبكة تلفازيّة بالقاعة الأولى. غصّت

القاعتان بالحضور الذي ناهز بضع مئات. ابتدأ الحفل بمقدّمة موسيقيّة تلتها الكلمات والتراتيل. زوج الفقيدة، الكاهن، ألقى كلمة استعرض فيها حياة زوجته وقصّة تعارفهما وزواجهما. كان بعد كلّ فقرة تتناول مرحلة معيّنة من حياة الفقيدة، يقدّم من يتكلّم من الآخرين الذين كانوا على علاقة بتلك الفترة، ثم يعود لإكمال كلمته حول مرحلة أخرى من حياتهما. من جملة المتكلّمين، أخ لها حضر من الولايات المتّحدة الأميركيّة، وبالطبع ابنتها التي ألقت كلمتها وزوجها الضرير يقف إلى جانبها.

كلمة زوج الفقيدة ركّزت تركيزًا جليًّا على الحُبّ وأهمّيّته في تسيير الحياة. ثمّ شرح لنا مفهومه عن متى يمكن اعتبار أنّ الإنسان أمضى حياة رائعة. لخّص ذلك في ثلاث نقاط: المساهمة الاجتماعيّة، والعيش لأنْ نُحِبّ ونُحَبّ، والأمل وسط اليأس. وبيّن لنا كيف حقّقت الفقيدة كلّ هذه المعاني في سلوكها. ومعرفتي بها أكّدت لي أنّ الزوج لم يذكر شيئًا لم تكن عليه تلك الإنسانة.

كنت في القاعة الرئيسة حيث النعش يتصدّر المكان، محاطًا بأكاليل الزهر. وخلف المنصّة شاشة كبيرة كانت تظهر عليها ذكريات من الصور أثناء إلقاء الكلمات، وأيضًا ترجمات إلى الإنكليزيّة لما جاء في بعض الكلمات التي ألقيت بلغة صينيّة. أمّا الكاهن الزوج، الذي ألقى كلمته بالكانتونيزيّة، كانت إلى جانبه مترجمة قديرة تنقل إلينا كلامه دون تعثّر أو تردّد.

نعم، كانت صديقتي من هونغ كونغ. عاشت العائلة في كندا قبل استقرارها النهائيّ في أستراليا، هذا البلد المتعدّد الثقافات. وأنا أيضًا عشت فترة في بريطانيا قبل أنْ أستقرّ مع عائلتي نهائيًّا في أستراليا.

معظم من حضر الجنازة كان من الجالية الصينيّة بطبيعة الحال، لأنّه مهما اندمج المرء في بلده الجديد، تظلّ صلاته أكبر مع من يماثله في ثقافته، خصوصًا من حضر إلى أستراليا في عمر متأخّر.

نعلم أنّ الصينيّين عريقون في أستراليا ويشكّلون فئة هامّة من مكوّنات المجتمع الأستراليّ. وأعلم من خبرتي الشخصيّة مع بعضهم، سواء في

مكان العمل أو في مجال الحِرَف، مثل أنْ تستخدمهم لإصلاحات أو ترميمات منزليّة، أنّهم من خيرة العاملين. كانت الجنازة فرصة لي لأرى أكبر عدد منهم واجهته في مكان واحد، في الوقت نفسه. ما لفت نظري هو الترتيب والتهذيب والنظافة، وكأنّ هذه المجموعة الكبيرة من الناس تمثّل صديقتي التي عرفتها مثالًا لهذه الصفات.

من عادتي أنْ أحضر إلى أيّ حفل أو اجتماع قبل الموعد بنصف ساعة على الأقلّ. موعد الاحتفال كان العاشرة صباحًا. كنت هناك في التاسعة وعشرين دقيقة، وفوجئت أنّ القاعة الرئيسة شبه ممتلئة. اتخذت مكاني على مقعد في وسط القاعة إلى جانب الجدار بشكل مواجه للصفوف الأخرى المليئة، ما أتاح لي ملاحظة عدد كبير من الحضور. وكان لديّ كثير من الوقت لأراجع ذكرياتي مع الفقيدة بيني وبين نفسي، وخِلْتُ أنّ هذه هي طريقتي في "الصلاة" لراحة نفسها. لفت انتباهي ذلك الصمت المطبق على القاعة، رغم وجود المئات، وحفنة من الأطفال. لم أسمع صوتًا إلى أنْ ابتدأت الموسيقا معلنة بدء المراسم. هذا أمر لا يحدث لدى بعض الجاليات الأخرى التي تسود فيها الأحاديث الجانبيّة، والسعال، والعطاس، وغيرها من فنون الإزعاج. الجمهور جاء بملابس متواضعة، لكنّها واضحة الترتيب والنظافة. أكثر ما شدّ انتباهي أحذية النساء التي كانت بمجملها من النوع العمليّ البسيط المريح. لم أجد أحدًا جاء لمجرّد الاستعراض.

فرحت لأمرين. الأوّل، أنّ الحفل، بكلّ ما فيه، احترامٌ جميل لما كانت عليه صديقتي، واحتفاء بحياتها. الثاني، أنّ أستراليا بخير طالما أنّ فيها من مثل هؤلاء الناس.

وأكثر ما أحببت من هؤلاء الناس صبيّة، لم تتجاوز العاشرة، كانت تجلس بين ذويها في الصفّ المواجه مباشرة للمكان الذي كنت أجلس فيه. كانت تنصت إلى الكلمات، وبين الحين والآخر تترقرق عيناها بالدموع التي سالت بصمت وقور على خدّيها النضرين. بدت لي أنّها تعبّر بإخلاص وبراءة عن ذلك الحبّ الذي تحدّث عنه الكاهن، واصفًا خصائل زوجته التي رحلت.

حين خرجنا، لم أستطع سوى التوجّه نحوها، والربت على كتفها قائلًا: "يالك من صبيّة رائعة!"

ابتَسَمَتْ، وافترقنا والدنيا مليئة بالمحبّة.

سيدني، 2017/6/26

# صداقة "عَ الريحة"

أثناء مسيرتي الصباحيّة اليوميّة، أمضي ساعة على الأقلّ متنقلًا في أرجاء ضاحيتنا المليئة بالأشجار والحدائق والهضاب. أحاول ما أمكن أن أنوّع في الطرق التي أسلكها للتعرّف أكثر على أنماط مختلفة من البناء وتنسيق الحدائق.

أصادف بعض من يقوم بما أقوم به من رياضة مفيدة منعشة، وفيهم نساء ورجال من مختلف الأعمار، من الشباب إلى العجائز. هذه تهرول مسرعة بثياب صيفيّة، والحرارة لا تتجاوز تسع درجات مئويّة، وذاك بالكاد يستطيع السير، بثياب تظنّه من سكان الإسكيمو. هذه تنزّه معها كلبها، وذاك يجرّ أربعة كلاب (عفوًا تجرّه أربعة كلاب).

وحين يصادف أن أتأخّر في الصباح، أراقب كيف يبدأ طلاب المدارس الخروج من المنازل بهندامهم الأنيق، ويسيرون باتجاه المدارس المتوفّرة في الضاحيّة، ومنها ما هو على شهرة عالية. ينفتح بين الحين والآخر باب مرأب في بيت فتخرج منه سيّارة من ينطلق إلى عمله، أو من يحتاج إيصال أطفاله إلى المدرسة.

أما اليوم، السبت، فلا مدارس ولا حركة غير عاديّة. تأخّرتُ هذا الصباح. تناولتُ قهوتي، ثم إفطاري الذي هو فقط بيضة نصف مسلوقة. ولمّا كان البرد شديدًا، قرّرت أن أنهي مراجعةً أدبيّة، بدأتها الليلة الماضية، قبل أن أبدأ المسير.

انطلقتُ في التاسعة صباحًا، وكالعادة أضع السمّاعتين في الأذنين، وأدير جهازي المحمول لأستمع إلى برامج هيئة الإذاعة الأستراليّة، وبالتحديد "راديو ناشونال" الذي يشار إليه بـ"RN". وسبق لحفيدتي أن عبّرت عن بهجتها بأن اسم الإذاعة، التي أتابع، واسمي يُختصران بالأحرف الأولى على

الشاكلة عينها. وأنا مبتهج أيضًا لأنّ كلّ برامج هذه المحطّة مفيدة وممتعة على مدار اليوم.

ومن الأساليب الأخرى التي أتّبعها لإطالة مسيري، دون أن أحسّ بالوقت (ودون أن أخسره)، هو أن أقوم بما لديّ من مخابرات هاتفيّة، خصوصًا مع أحبّة في أماكن بعيدة، فتطول المخابرة الواحدة أكثر من أربعين دقيقة أحيانًا.

اليوم، وبعد حوالي نصف ساعة سير، دخلت في حارة لا أرتادها عادة. وهي، مثل حارة سكننا، من حارات "الطريق المسدود". أتعمّد أحيانًا استعمال هذه الحارات لزيادة المسافة التي أقطعها، دون أن أبتعد كثيرًا عن المنطقة. أضف إلى ذلك الجمال الخاصّ، والسكينة التي تتمتّع بها هذه الحارات.

تفاجأت أنّ نهايتها تنفتح على حارة أخرى متعامدة معها بحيث لا تظهر لك مباشرة. دخلت فيها، وفورًا انجذبت بعيدًا عن الجمال الذي حولي، وعن البرنامج الذي كنت أصغي إليه، حين تناهت إلى أنفي رائحة أرجعتني إلى السبعينيّات من القرن الماضي حين كنت أرتاد مع صديقة أرمنيّة، كانت من أهمّ صديقات حياتي، فرنًا قريبًا من الجامعة الأميركيّة في بيروت التي كنّا ندرس فيها، لنشتري إفطارنا من المناقيش بالصعتر. المناقيش، لا زالت إلى اليوم، بالنسبة لي من ألذّ الوجبات، والوجبة الوحيدة التي لا أتناول معها أيّ شيء آخر غير كأس الشاي. المناقيش تتوفّر في أماكن كثيرة في سيدني، لكنّ الجيّد قليل. أمّا في لبنان، فكان الجيّد كثير في وقتها، لكنّ أجود ما تذوّقت كان في النبطيّة في الجنوب، وأجود الأجود كان في ذلك الفرن الصغير جانب الجامعة.

كنت متأكّدًا أنّها مناقيش بالصعتر، وكانت الرائحة تختلف عن كلّ ما شممته من روائح المناقيش هنا في سيدني. كانت تمامًا مثل رائحة مناقيش ذكرياتي. أردت التأكّد من المذاق، وقرّرت القيام بخطوة ما سبق أن أقدمت عليها في حياتي.

تتبّعت الأثر وطرقت الباب. حين انفتح الباب، غمرتني الرائحة الشهيّة لتؤكّد لي أنّ هذا هو المصدر، لكنّ صاعقة أخرى أخذتني وأنا أنظر إلى سيّدة، ربّما في الخمسينيّات من عمرها، على قدر باهظ من الجمال. كلّا، لا تشبه صديقتي الأرمنيّة. لسنا هنا بصدد المعجزات!

"عذرًا سيّدتي على قلّة ذوقي، والطَّرْق على بابك دون سابق معرفة، لكنّ جذبتني رائحة الطعام، وعندي سؤال حين أطرحه ربّما تتفهّمين سبب غلاظتي الصباحيّة هذه."

ابتسمَتْ بأناقة شديدة، وقالت بالعربيّة بلهجة لبنانية: "أكيد إنتا لبنيني وبتحبّ المنائيش بالزعتر."

ابتسمتُ لها، وربّما كانت في عيني دمعة رقيقة جدًّا. لم أنبس بحرف.

"هل أنت من سكان ضاحيتنا؟"

"نعم. أسكن في الحارة الفلانيّة، واسمي كذا."

ثم واصلت تتحدّث بالعاميّة اللبنانيّة: "أوه! حارتك حلوه، وسمعاني باسمك، بس أنا ما عندي خِلطة مع الجالية. اسمي كذا. تفضَّل فطار معي. افتكرتك بنتي غيّرت فكرها وإجِت."

"ولكن ... لا أريد إزعاجك."

"تفضّل، ولح إحكيلك حكاية مناقيش اليوم."

"شكرًا، وأنا بحكيلك حكايتي مع المناقيش."

على طاولة المطبخ رأيت عددًا لا بأس به من المناقيش الجاهزة وغيرها الجاهز للخبز، رغم أنّ السيّدة كانت لوحدها في البيت. ظننت لأوّل وهلة أنّ سكّان البيت في مسيرة صباحيّة مثلي، وسيعودون لتناول الإفطار. لكن علمت فيما بعد أنّها أعدّت كلّ شيء من أجل ابنتها وأحفادها، وقبل أن أطرق بابها جاءها اعتذارهم عن الحضور بسبب ارتفاع درجة حرارة أحد الأحفاد.

توفّي زوجها منذ عامين، ولا زالت تعمل ثلاثة أيّام في الأسبوع. اتفقنا على أن نلتقي في بعض المسيرات اليوميّة، خصوصًا أنّها قالت إنّها بحاجة لمن يشجّعها. طبعًا أنا متقاعد، وليس لدي مشكلة في تعديل أوقاتي لتتلاءم معها.

رفَضَتْ أن أتناول ممّا هو جاهز، وخَبَزَتْ منقوشتين، وحضّرتُ الشاي بنفسي، وجلسنا نتناول الإفطار (الغداء بالنسبة لي). استغربت كثيرًا كيف أنّ مذاق المناقيش لديها يضاهي ذلك الذي عهدته في الفرن جانب الجامعة. بعبارة أخرى لم تخنّي الرائحة التي كانت متميّزة. وشرحت لها قصّتي مع المناقيش، فعبّرتْ عن سرورها أنّ عاشقًا للمناقيش وجد الآن في مناقيشها ضالّته. طبعًا خبزت لي مزيدًا من المناقيش والفرح يغمرها.

شرحت لي بحماس من أين تحصل على الصعتر، وتحضّره بمزجه مع ما يلزم من عناصر. شكرتها، وقلت لها إنّه سيكون أسهل عليّ بكثير أن آتي لتناول المناقيش معها عوضًا عن أبذل كلّ ذلك الجهد.

ضحكنا معًا، وكلّ منّا قد كسب صداقة جديدة.

# كلمة واحدة

من أوّل لقاء لهما استطاع أن يستشفّ فضائل هذه الصبيّة التي أضاف حديثها جمالًا على جمالها الخارق، بل تعدّاه ليسبغ عليها قدرًا بيّنًا من النضج والحكمة.

صعقته، وهو الذي لم يفكّر في حياته أبدًا بامرأة من عمر أولاده أو أصغر، أن تكون محرّضة لمشاعره العاطفيّة والجنسيّة. بل كان بالتأكيد يختلف عن أقرانه من الرجال بشغفه بالنساء الناضجات فقط، وما كان ينظر للصبايا سوى بعاطفة أبويّة، وفي حال المستنيرات منهنّ بشعور من التقدير والتمنّي لهنّ بمزيد من النجاح لما يمثّلن من ملامح المستقبل الإنسانيّ.

لكنّها كانت فريدة. تَمثّلَ فيها كلّ ما تتوق له نفسه من الأناقة في التفكير، وكيف أنّ هذا لعب لعبة كبرى في تحويل جمالها المخلوق إلى جمال خلّاق، تأتي فتنته من تكامل تامّ بين المادّة والروح، جاء نتيجة لأسلوب هذه الصبيّة في منهجيّة حياتها.

نعم! خِبرته الحياتيّة الطويلة، وتفكيره المستديم في مسألة الوعي الإنسانيّ، وضعا بين يديه آلة الحدس السليم التي تعمل كساعة لا تخطئ مواعيدها. لكن من مزاياه أنّه لا يعتمد على حواسّه وحدسه ما لم يأتيه دليل ماديّ يؤكّده له الطرف الآخر. لذلك ما كان ليبوح بمكنوناته لمجرّد شعوره بالآخر. لا بدّ أن يسمع التأكيد من الآخر. قد يكون هذا ما جعله يخسر كثيرًا من الفرص، ولكنّه مصمّم على منهجيّته، خصوصًا في الوضع الحاضر الذي يواجه فيه لأوّل مرّة هذا التحدّي الاستثنائيّ من امرأة تصغره بعشرات السنين. وهو يعلم تمامًا أنّه قد يكون واهمًا، وأنّ رغبته في الاستحواذ على كنز من أجمل الكنوز التي اكتشفها هي كلّ ما في الأمر. وأنّ هذه الصبيّة إنّما

تبادله الاحترام والتقدير، وتنظر إليه كصديق أو أب قدوة، لا أكثر ولا أقلّ. لذلك كان يرى أنّه إن كان هناك من أمر، لا بدّ أن تأتي المبادرة منها.

الأيّام تمضي، ومع كلّ تبادل بالرسائل على مختلف أشكالها الهاتفيّة والإلكترونيّة، وكذلك الأحاديث المباشرة، كان يشعر أنّ هناك شيئًا غريبًا عجيبًا يزداد قوّة وجذبًا بين الطرفين. كان دائمًا يقول لحاله إنّ مشاعره حتمًا من طرفه هو فقط، ولكن كان دائمًا يحسّ أنّ مشاعر الطرف الآخر تتطوّر بداخله بتناغم كبير مع مشاعره.

لم يكن يومًا شيطانًا أو يؤمن بالشياطين، لكنّه لم يكن ملاكًا أو يؤمن بالملائكة. ولهذا ما وجد مشكلة في أن يرمي بين الحين والآخر، وكلّما سنحت الفرصة من نبرة الطرف الآخر، عبارة تتحرّى موقف الآخر وتشجّعه على إبداء رأي صريح في نوع المشاعر التي تزداد اشتعالًا يومًا بعد يوم.

وجاء يوم أحسّ فيه، واستنبط من عباراتها، أنّها كانت تماثله في محاولة كشف الأمور صراحة. قرّر أن يرمي بتحفّظه وحرصه جانبًا، وبعد بضع تبادلات سألها عمّا إذا كانت تستطيع تفسير ما يحدث، وأضاف لياقةً بأنّه يتمنّى أنّه لم يكن يتجاوز الحدود. وحتّى يتأكّد من الحصول على جواب حاسم، قال: "معي لا تخشي شيئًا."

قالت: "اسمح لي أن أجيبك بكلمة واحدة."

قال: "تفضّلي."

قالت: "أحبّكَ!"

# الحبّ في زمن كورونا

أعطته أغلى ما تملك. فتحت له كلّ منافذها، وأشرعت له أبوابها، ومهّدت لقدميه كلّ دروبها.

ما تركت في حناياها زاوية إلاّ ومنحتها. ولم تترك مع أنفاسها آهًا إلاّ وأطلقتها. ما خطرت على بالها فكرة إلاّ وشاركتها.

تفاجأت بنفسها. تصغره بسنوات كثيرة. عرفته على متن سفينة سياحيّة عائدة إلى سيدني بعد دورانها لمدّة ثلاثة أشهر حول العالم. لكنّها شعرت أنّها تعرفه منذ تكوّنت في رحم الوجود.

تلاقيا خلال أيّام من بدء الرحلة، دون قيود أو شروط. دون حياء، كزوجين منذ عشرات السنين. كلّ منهما كان يريد أن يكون وحيدًا، منعتقًا من رواسب الأيّام، لكنّه كان ضمنًا يبحث عمّا كان مفقودًا لديه.

جاءته صبيّةً، زوجةً، أمًّا، جدّة. وها هي تعاصر أيّام كورونا، في خمسينيّات عمرها. لكنّها أيضًا التقت بمفكّر طالما سمعت عنه، وقرأت له.

في قَمْرته، وقمرتها، صنعا من الحبّ معجزات جديدة. وقال لها إنّ كلّ مرّة كألف سنة ممّا يعدّون. وأكّد لها أنّه هو أيضًا كان في انتظارها. في انتظار القيمة التي تمثّلها.

ها هما يرتّبان لقاءهما القادم على البرّ بقلق شديد. الظروف المحيطة بهما، وعلاقاتهما، والآن كورونا.

قالت له حين ودّعته: "أريدكَ أنْ تعلم أنّه في الحبّ الأصيل لا قبلك ولا بعدك، وأنّك أغلى ما أملك في الوجود. لقد غيّرت حياتي في أيّام. أحسّ أنّك تحبّني أيضًا. وإذا متّ أنا قبل موعدنا القادم، فاعلم أنّني سعيدة جدًّا. لا تحزن ولا تيأس."

قبل ساعات من موعدهما التالي، وصلها نبأ موته وهو على مكتبه منكبّ على خلق قصيدة عصماء بعنوانٍ حمل اسمها.

# ها أنا هذا

ها أنا هذا أجلس على شرفة منزلي أكتب سطورًا من حياتي. أتذكّر طه حسين، منه تعلّمتُ "ها أنا هذا"، وهو تعبير أحبّه لفخامته وقوّة تأكيده، حسبما أرى، بعيدًا عن الصفات البلاغيّة التقنيّة التي لا أعلم مفرداتها، والتي يمكن أن تستخدم لوصف تعبير كهذا.

ذكريات الماضي تتردّد أمامي كدعاء الكروان الذي "كان يُرَجِّع صوته هذا الترجيع حين صرعت هنادي في ذلك الفضاء العريض"، كما كتب طه حسين. ولكنّها الآن محمولة على حناجر أصناف أخرى من الطيور، منها المهاجر، والمستوطن، والأصليّ. ومنها ما يصادقني ويتردّد على حديقتي، يوقظني على تغريده، ويتناول بذور عبّاد الشمس من يدي.

الفضاء أمامي عريض يكتنف الأفق عند التقاء البحر بالسماء، تاركًا لعينيّ التجوّل ببطء بين نجوم بدأت تتحدّد معالمها مع اقتراب الغروب، مرورًا بمياه المحيط الهادئ التي لا تعرف الهدوء، والتي يُطلق عليها اسم "البحر التسمانيّ" في تخوم شرق أستراليا، إلى الشاطئ، ثم التلال التي ترتفع لتصل إلى الموقع الذي شيّدت عليه مسكني في ضاحية "مرتفعات إيلانورا".

أنا على شرفتي سيّد المشهد. ليس أمامي ما يحجب الرؤية، بل كلّ ما أرى يأتي إلى ناظريَّ آية من آيات الجمال والإبداع. هذه هي سيدني، أجمل مدن العالم طبيعةً. وهذا هو الموقع الذي أسكن فيه، وأسكن إليه لأمارس حبّي في هندسة العمارة. ليس فقط من حيث التصميم والتنفيذ، ولكن العيش في صلب القضيّة، والاحتفاء بما يبدعه العقل والقلب والأيادي. ولهذا أردت أن يكون مسكني تتويجًا لثقافة الجمال والراحة والطمأنينة والانتفاعيّة. تلك هي فلسفتي المعماريّة، أحاول تنفيذها مراعيًا ما أمكن من شروط الحفاظ على البيئة، والاندماج معها.

بصري الآن يغطّي حديقة الدار التي تقع تحت شرفتي مباشرة، وقد أضاءت مصابيحها تلقائيًا مع الغروب. مصابيح ركّبتها ونسّقتها بيدي. أما مصابيح بركة السباحة، المغمورة بالماء، فتضيء بعد نصف ساعة من ذلك، لينبعث من البركة ضوء أزرق يتراقص مع تموّج سطحها، وينعكس بدلال على أشجار النخيل المصطفّة بانتظام حول ثلاثة أرباع محيطها. أضواء تستهلك قدرة ضئيلة، لكنّها تستكمل أجواء الجمال بفيض من الأناقة، وتزيد من أمان المنزل.

تنهار من عيني حفنة من القطرات، لا حزنًا على صدّام حسين الذي أعدموه منذ أيّام، ولكن أسفًا على تلك المهزلة التي أدّت إلى محاكمة لا يمكن أن تكون عادلة في ظلّ تلك الظروف التي تعكس ذهنيّة عالميّة مريضة، وذهولًا من هذا الإحباط الذي وصل "الشرق الأوسط" إليه، وبكاء من شعور شديد بالعجز. ها أنا هذا في حضن الغرب الذي آمنت بقيَمِه، وكنت عنصرًا بنّاءً في صرحه، أراه يخذلني بريائه مثلما سبق لبني قومي أن فعلوا. ما أصعب أن أكون في هذا النعيم الجغرافيّ، ولا ألبث أتلقّى وخز جحيم التاريخ. نعم! عقدة 1967 تلاحقني، لا لأنّها كبّلتني فلجمتني عن مواصلة حياتي، بل لأنّ تطوّر الأحداث نقل المنطقة إلى وضع أشدّ سوءًا، وأكثر تعقيدًا. أسائل نفسي: هل فعلت مافيه الكفاية لأقول إنّي قمت بما عليّ؟

يَرُدّني القمر، الذي كان يقترب من الاكتمال تلك الليلة، إلى الجوّ الساحر الذي أحظى بتنفّس كلّ ثانية تمرّ من تكوينه. وكلّما حلّ الظلام أكثر، كلّما اختال القمر بجماله الوضّاء. استعددت لمثل تلك اللحظات بتركيب فاصم كهربائيّ إضافيّ على شرفتي. قمت فقطعت التيّار عن الحديقة ليصير القمر سيّدة الكون. أردت أن يكون هذا المشهد إحياءً لحدث أعتزّ به، واستذكارًا مسرحيًّا له، فهو من ألهمني الفكرة.

كنت في بعلبك، في لبنان، أحضر إحدى عروض فيروز. بعد فترة من العرض، توقّف كلّ شيئ فجأة، وانقطعت الأنوار كلّها، فأصاب المكان صمت مهيب، وظلام دامس، إلّا من ضياء البدر المكتملة الوجه تلك الليلة. وفجأة

انطلق صوت فيروز باللحن الرائع "نحنا والقمر جيران". أنا متأكّد أنّ القشعريرة التي أصابتني يومها أصابت كلّ الحضور، ودخلت في نسيج أعمدة معبد جوبيتر. لا أعتقد أنّ مثل تلك اللحظة يتكرّر كثيرًا.

لكنّني اليوم دون فيروز، وبلا هنادي. البدر شفيعتي لكنّها لا تكفيني. أما هنادي التي أنا بصددها، فإنّما سمّاها أبوها كذلك بعد أن قرأ "دعاء الكروان" هو الآخر. لكنّه هو الذي صُرع، تاركًا ابنته وحيدة بين أربعة أخوة حين لم تتجاوز الثانية من عمرها. ولترميها الأقدار ذات يوم في حياتي، فتعود لتنتزعها منّي بعد أن تركت لي ولدنا الوحيد.

# اللَعب بالفَراشَات

ما أجملك اليوم! عيناك صافيتان حُبًّا وخيالًا. شعرك الأسود، قميصك من برتقال البستان، والتنّورة المخطّطة الألوان ... فراشة محبّة.

طار قلبي فرحًا حين أشرت: "هيّا معي." ومشيت ... بين خوفٍ وأمل، وراءك سرت إلى المصير، كالفراشة نحو النار تطير. كنت أعلم أنّ السؤال عسير، وأنّه قد يكون امتحاني الأخير، لكنّني مشيت كطيفٍ غامضٍ خلفك يا ضيائي. فراشة تتبع فراشة؟

واستقر المكان بنا. بقعة خضراء في رأس بيروت. واجهني هذا الشَعر الأسود المنسكب دلالًا على قوام فيه من تحدّي الأنثى ما يفقأ روح الجبال. وحين رميتِ به خلف كتفيك، راق لعينيك أنْ تنهال عليّ عسلًا مترقرقًا فوق قسمات ناعمة من أنف وشفتين باسمتين. كحل وأحمر شفاه، وخطوط وألوان شعرت بها تيّارًا يتسرّب بأناقة داخل عروقي، يسألني بدلال: بعد هذا الامتحان، لمن يكون الشعر الأسود، ولمن تكون الخطوط والألوان؟ يغيظني!

حين سكبتُ شعوري في قالب الكلمات، كان شعوري أكبر. تهافتت الكلمات، وكانت أجوبتك ترتدّ كأنّها أصداء لتلك المرثيّة التي ابتدأها قلبي حين باشرتُ الجري خلفك:

كلماتك يا صديقي
لا تستطيع العبور في طريقي
وشراعك يا صديقي
ليست له عندي شواطئ.
إلى برّ آخر وجّهت شراعي،
وفيه مرساتي استقرّت.
سفري كان متلاطم الأمواج،

ورحلتي استمرّت واستمرّت.
ما داعبت شعري الأسود أناملك
وصفاء عينيّ أبحر فيه ربّان آخر.
لا تحلم. لا تتلهف.
لست لك آسفة أقولها،
وإنْ شربتُ فمن صداقتك.
اسكب كؤوس حبّك،
وقل لغيري أنْ يشرب.

هكذا يتجمّد الدم في العروق، وأضطّر لجمع أنفاسي اللاهثة، وتنميق القسمات في وجهي لأتستّر على تسارع الخفقان في قلبي. وأستسلم لأغنية يئنّ بها داخلي، تقول إنّكِ

كنتِ حلمًا يملأ خيالي،
زهرة ياسمين تفوح ببالي،
وحين أوشكتِ أنْ تكوني حقيقتي،
صارت حقيقتي حلمًا يراود خيالي.
كنتِ نور عيوني الذي ارتمى عليك،
وحين ارتدّ إليّ صرتِ نارًا أحرقت ضلوعي،
ونبتِّ في العين شوكًا، وانهمرتِ في دموعي.

يا حلوتي لِمَ كنت اليوم أجمل؟ زيادة في العذاب؟ وكيف لا، وكلّ يوم أراك أجمل، أينما كنتِ أراك أجمل، وكيف ما كنتِ أراك أجمل. إنْ كنتِ في صُور أم برمانا، في بيصور أم في إهدن. إنْ رفعت شعرك أم تركته في انسياب، أو تبسّمت، أم تبادلت معي حديث عتاب. إنْ كانت من ألوان الحقول ثيابك، من صفاء السماء، أو من أناقة الهضاب. إنْ زيّن شريط ملوّن شعرك، أو عانقت الأطواق جيدك، أم مالت على يديك الأساور ...

وما همّني إنْ كحّلت الجفون،
فليكن كلّ شيء كيف يكون.
كلّ شيء أنت فيه،
أنت أجمل!

قلتِ لي لن يخسر أحد. ما أسهل الكلمات، ما أعذب الكلمات. لن يخسر أحد. وافقتُ معك. ما أسهل الكلمات. خَسِرْتَ الامتحان! خسرت! خسرت!

فراشتي تطير الآن مبتعدة في ممرّ طويل، وعيناي تطيران وراء فراشتي. وتبدّدت الخطوط والألوان. أغمّضت عينيّ، ظننت أنّي أحبس فراشتي بين جفنيّ. فات الأوان. رسبت في الامتحان.

وحملتُ ما بقي من كبريائي، ساحبًا نفسي بين فشلي وحيائي. وأخذت خسارتي معي، وعدت خلفك أمشي. فراشة تتبع فراشة؟ لا.

فراشة حلوة تطير،
وفراشة بجناح كسير.
صرتِ على ذؤابة الأشجار،
وما زلت أنتظر هبة ريح
تحملني إليك؟

أحبّكِ ... لا تثريب عليك سيّدتي، فأنت لم تعيشي لحظاتي. شراعك ما أبحر في أعماق ذاتي. لك الحقّ، واتركي لي حقّ العيش في أتعس لحظاتي.

تطيرين الآن بين زوايا غرفتي. زوايا تتلاشى بسرعة الضوء. أحمل للسماء قلبي، أعلّقه مصباحًا دمشقيًّا يتوهج. كلّما ساد الظلام نفسي، أقنعتها أنّ فراشتي إليه قد تطير!

نطير، نطير ... نقطة في المطلق نصير.
ننقسم ... نقطة في العدم أصير،
ونصفي مع غيري يطير!

كلّ من طار مع آلهتي،
سيّد الكون يصير
دون أنْ يعلم!

# الحَديثُ الطَويلُ

الليل والنسيم. ونجمي لازال سابحًا في الفضاء، لا غطّاه ضوء القمر، ولا قلّلت من ضيائه النجوم. لكنّ الألوان والأضواء تتلاشى فوق الهضاب والمروج والشجيرات المثمرة، التي كانت تتراقص بلا حراك، وتغنّي بلا صوت. لوحة من لوحات أحلامنا الجميلة. لوحة واقعيّة جدًّا.

الأنفاس والهمسات تعود أصداء، بعد أنْ ذابت كلّها في كوكبي السابح في الفضاء. هل ترينه بين الغيوم الشَفيفة؟ هل تسمعين صوته المتردّد من سواد السكون؟ بل إنّ له عطرًا يسحب أريجه من حقول الليمون والبرتقال التي تعانق بيوت هذه المنطقة الساحليّة. لعلك تحسّين بمشاعره المستقاة من قلبي المفتون، ونحن نرسم بها حديثنا الحميم، إذ نخطو سويًّا على درب البلدة المرصوف بالحجارة والتراب والماء. أرض تمشين عليها، تصبح السماء، وتشرقين فيها من سواد العيون، كنجمي السابح في الفضاء.

حديثنا أنغام وفنون تنسكب دمًا في عروق الزهور لتنصبغ فتنة وشموخًا، وتتمايل على رنين آهات الشواطئ، وخلجات ربّان مجنون. لكنْ على الرّغم من هذه الحيويّة، يسيطر السكون. يالمأساة حديثنا! درب البلدة قصير مهما طال. والآخرون اجتهدوا في تحرّينا. هل ينفع أنْ نمشي الهوينا؟ أنْ نبني للبلدة ألف درب؟ أنْ نصرع الحدود؟ هل نريد؟ هل تريدين؟ هل أريد؟ أنْ نسبح معًا في نجمنا البعيد؟ وهل هذا ما تبقّى من حديثنا العتيد؟

هكذا يصبح دربنا باقة من التساؤلات، فألتفت إلى نجمي البعيد الذي يلقي عليّ تحيّة وميضه، غمّازًا لمّاحًا ببعض استعلاء. نجم يخوض آفاق الكون المديدة ويتركني مكبّلًا أسير لحظتي على درب بلدة جنينيّة، مرسومة في كوكب صغير، معلّق على جهة منسيّة من درب التبّانة.

لعلّه لا يرى وجه رفيقتي!

# سيناريو

ليلة غريبة بين النوم والصحو.

ما إن استسلمتُ للنوم حتّى استيقظتُ على أفكار تموج في ذهني لترتطم على شواطئ أحاسيسي التي تلقّتها بأذرع مفتوحة، وغَرَفَتْ منها ما استطاعت، وسألَتْها عن المزيد، في عالم ضاعت فيه إحداثيّات الزمان والمكان، فلكأنّ صالح عبد الحيّ وقف يغنّي مع مادونا.

بدأتُ بكتابة سيناريو لفيلم أردته أن يكون بالأبيض والأسود. وما أن سردت على نفسي بضع سطور حتّى غالبني النوم، فرأيت أنّني أنا أيضًا مُخرج الفيلم، وأنّني اخترت الممثّل المصريّ أحمد مظهر لدور البطولة. كان لطيفًا في تعاطيه، لكنّه عنيد دقيق فيما يريد أن تكون عليه بطلة الفيلم التي ستشاركه تفاصيل تلك القصّة الغراميّة العاصفة.

أيقظني عناده الشديد، وانتبهت أنّني لست بشكل خاصّ معجبًا كثيرًا بهذا الفنّان المشهور، ولكنّني بدأتُ أفكّر كيف أرضيه (وأغيظه في الوقت عينه)، وهو صاحب المكانة العالية لدى الجماهير.

غلبني النوم من جديد، ورأيت نفسي أحدّثُ صبيّة أعرفها، هنا في سيدني، تصغر أحمد مظهر بأربعين عامًا، ولكنّها بارعة الجمال والأناقة والفطنة. عرضت عليها الدخول في عالم التمثيل، خصوصًا أنّ بدايتها ستكون قويّة مع واحد من المشاهير، وطبعًا مع المخرج العظيم الذي "خرطه الخرّاط وقلب ومات".

استيقظت مجدّدًا على لوم النفس: كيف يساعدني ضميري على انتزاع هذه الفتاة الرائعة من محيطها الراقي، وأرميها في عالم محفوف بالمخاطر يغيّر من مستقبلها. وما إن غلبني النوم من جديد، حتّى تجلّت لي إغراءات تقديم تحفة رائعة مثل هذه الصبيّة التي تجمع بين الجمال والذكاء، وما سيجلبه ذلك لي من مزيد الشهرة والمكاسب.

استيقظت من جديد بذعر شديد: متى كنت أبحث عن الشهرة والمال؟ وبدأتُ أفكّر بتعديل السيناريو، خصوصًا أنّني أنا أصلًا من كتب القصّة. معلوم! محسوبكم "بتاع كلّه".

أنا من كتب القصّة؟ هل أنا مستيقظ حقًّا؟ وحتّى الآن لا أعلم ما هي القصّة. ربّما إذا عدت إلى النوم يتجلّى لي الوحي من جديد، وقد يكون من الأفضل كتابة السيناريو وأنا نائم.

عندما فتحت عينيّ في الصباح، تذكّرت بعض تفاصيل تلك الأحلام. هل كانت أحلامًا تذهب وتأتي طيلة الليل، أم بضع دقائق نظنّها دهرًا طويلًا؟ هل كان العقل الباطن يثيرها لتخدم فكرة واحدة: أن أكون ما أريد أن أكون؟

ضحكت كثيرًا بيني وبين نفسي، وتذكّرت جلسة (في الحقيقة، لا الحلم) سألتني فيها إحداهنّ: "أعلم أنّك متصالح مع نفسك، راضٍ عمّا أنت فيه، ولكن لو تيسّر لك تكرار نفسك، ما هي المهنة التي ترغب في مزاولتها، ولماذا؟"

أجبتها يومها: "أنا إنسان علميّ، ولي ميول أدبيّة وفنيّة، وثقافتي العامّة لا بأس بها، وأحبّ الكتابة كثيرًا، ولكن حتّى اليوم لم أكتب ولا رواية واحدة. لذلك أرى أنّني قد أصلح لأكون مُخرجًا سينمائيًّا."

# كوابيس كارافاجيو

صديقتي العزيزة،

رأيتكِ في حلمي هذه الليلة. حلم زاهٍ طويل امتدّ حتّى الصباح. أحداثه تدور وكأنّها ثابتة في مكانها. كأنّني كنت أتأمّل لوحة من لوحات كارافاجيو، بكلّ ما فيها من تفاوت الضوء وشخصيّات صارخة. شخصان يبرزان في هذه اللوحة، بثياب القرن الواحد والعشرين، لا السادس عشر. شخصان أعرفهما على قيد الحياة. عدا عن ذلك فاللوحة بدت من صنع ذلك الرسّام العظيم. ألوانها كأنّها خُلطت من ألوان لوحاته الشهيرة.

أنتِ في مقدّمة اللوحة تسيطرين على المشهد. تجلسين على أريكة مفردة خضراء القماش. لا تسندين ظهرك، بل ينتصب جذعك، ويرتفع رأسك بقبّعة أنيقة بيضاء. والتفّت ساقك على الأخرى، وطرحت قدمك فردة الحذاء البنّي أرضًا، كاشفة عن أصابع أنيقة تلوّنت أظافرها بالنبيذ الأحمر.

تضيئين بلون ثيابك: قميص أبيض تبرز ياقته قليلًا تحت بدلة رسميّة مخطّطة بالبيج والأبيض. كأنّك عدت للتوّ من عملك الإداريّ. أربعة أزرار ذهبيّة على الكمّ، تبرز في عرض المشهد وقد حنيتِ ذراعك، وأصابعك تُطْبِقُ على مسكة طويلة تحتضن لفافة تبغ مشتعلة، دخانها يترقرق صعودًا لنرى من خلفه زوجك يقف منتصبًا، لكنّه يبدو بعيدًا ولا ينظر إليك. ثمّة ما يوحي في وضع ذراعه اليمنى التي ارتفعت إلى مستوى كتفه أنّه كان يتحدّث إليك، وقد افرنقع عنك بعصبيّة.

شعره الممعن في السواد والغزارة والطول يكسب قميصه الخمريّ الواسع قوّة في التناسق اللونيّ، والبنطال الأسود يُكمل لوحة هذا الرجل الوسيم الحادّ القسمات، وكأنّه مصارع ثيران تحوّل إلى راقص فلامنجو.

لماذا تشتعل اللفافة في يدك وأعلم أنّك من غير المدخّنات؟ ولماذا يظهر زوجك بهذا الانفتاح وهو التقليديّ الرسميّ؟

ماذا كان يحدث بينكما، وأنا لم أسمع أيّ حوار؟
الحديث هنا هو الخطوط والألوان.
هل كنت أحلم بكما، أم بكارافاجيو؟

# نهار وليل

يتشبّث النهار بي كلّما أحسّ أنّي على وشك أن أصدّق أنّ الليل حلّ، وأنّني سأغادر إلى النوم تاركًا ورائي عشرات المراسلات والمراجعات والمواعيد والتأمّلات والجلسات والمحادثات، وحتّى الجلوس ساكنًا في الحديقة أتأمّل غيري من الكائنات.

يتشبّث النهار بي، لكنّه ما إن يرى القمر يتجلّى بملامحه الفضيّة معلنًا أنّه يستعد للضياء في عتمة الليل القادم، يصيبه هلع شديد وغيْرة. يبدأ بالتخلّي عنّي اعتقادًا منه أنّ وجودي على فراشي أرحم له من أن يراني أتمتّع بجمال الليل في حضن عشيقتي السماويّة المضيئة.

هذا النهار الذي يغيب مع حلول الليل لا يعلم أنّني حين أستلقي على فراشي، كلّ ليلة، أفتح نافذتي للنسيم العليل، أستنشقه بشغف لا يعلو عليه سوى شغفي بالنظر إلى قمري الساطعة عبر النافذة. لا يعلم أنّ خلودي إلى الفراش ليس خلودًا إلى النوم، بل هو يقظة من غرام آخر، تدوم مادام هذا القرص المتلألئ ضمن خطّ نظري.

أعلم أنّ الوقت سيأتي حين تميل عشيقتي مع المسار الذي حدّده الكون لها، وتختفي عنّي. أحيانًا أقفز من فراشي وأقترب من النافذة محاولًا اللحاق بها، ومع آخر لمحة أقبض عليها بأجفاني، أضمّها بعينيّ، وحين ألقي برأسي على وسادة النوم تهرب وتتركني لأحلامي.

أحلام غريبة: فيها من النهار وفيها من الليل، لكنّني مهما عدّدت النهارات والليالي، ما رأيت أبدًا أنّ القمر يصبح بدرًا في منامي.

# أبواب

الأحلام الأولى كانت بلا نوافذ أو أبواب. كنت فيها أسيرَ "لاحول ولا قوّة!" أمّا الحلم الرابع فكان له باب. لم أتساءل أو أناقش، بل ارتعشتُ حين تجسّد البُراق أمامي، ناصع البياض، وأنا على عتبة باب الحلم الرابع.

**"و أنا أنا، لا شيء آخر**
**واحدٌ من أَهل هذا الليل. أَحلُمُ**
**بالصعود على حصاني فَوْقَ، فَوْقَ ...**
**لأَتبع اليُنْبُوعَ خلف التلِّ**
**فاصمُدْ يا حصاني. لم نَعُدْ في الريح مُخْتَلِفَيْنِ"**

لم أكن بحاجة لبذل أيّ جهد: وجدت نفسي على صهوته أذوب أثيرًا رقيقًا كأنّه الحلم داخل الحلم. حين حطّ بي بعد طيرانه اللحظيّ، أدركت أنّي عبرت المجرّات بسرعة الضوء، وأنّني الآن على أرض لم أزرها من قبل، في مدينة طالما تُقت إلى الوصول إليها.

أوّل من قابلت في القدس كان حبيبًا من أحبّة القلب: محمود درويش! يمشي حاملًا جداريّته على كتفه. يمشي ويمشي ويمشي، لكنّه لا يبرح مكانه أمامي. ألُفُّ ذراعي حول ذراعه دون أن أنبس ببنت شفة. يشدّ على ذراعي دون أن ينبس بحرف.

**"سأصير يومًا ما أُريدُ**
**سأصيرُ يومًا شاعرًا،**
**والماءُ رَهْن بصيرتي. لُغتي مجازٌ**
**للمجاز، فلا أَقولُ ولا أشيرُ"**

لكنّني بدأتُ أسمع تلاوتنا الكاملة للجداريّة، نشيد ينطلق منّا سويًّا: هو المبدع وأنا المتلقّي. كان بإمكاني أن أراني وأراه في الوقت عينه، وراعني أنّ دمعة سقطت من عينه وعيني في اللحظة نفسها حين وصلنا إلى:

**"أما أَنا وقد امتلأتُ**
**بكُلِّ أسباب الرحيل**
**فلستُ لي.**
**أنا لَستُ لي**
**أنا لَستُ لي."**

ثم انفجرنا معًا في بكاء جنونيّ.

لم نكن بحاجة لبذل أيّ جهد: وجدنا نفسينا على صهوة البُراق أثيرًا رقيقًا، لكنّ الجداريّة بقت صلبة كالصخر، وكادت تطيح بنا في الفضاء العريض، لولا أنْ غدَرَتْها سرعة الضوء فهبطنا في دمشق. نمشي معًا كما مشينا في القدس: الذراع حول الذراع، والجداريّة تثقل كتف محمود، وأنا مثقل بنشوة محمود وجداريّته.

البقعة التي هبطنا عليها في دمشق القديمة كانت وسطًا بين البيت الذي ولدت فيه وبيت نزار قبّاني، حبيبي الأكبر، وحبيب دمشق الأعظم. بدأتُ بسحب محمود باتجاه مكان ولادتي، لأنّي كنت متشوّقًا إلى التباهي أمامه وتسجيل نقطة لصالحي في سجل مقامه العالي، وأنا مجرّد فرد عاديّ كان من حظّي أنّه قبل تأبّط ذراعي، ولعلّه الآن يُخَلِّد مسقط رأسي بقصيدة من قصائده العصماء. أمّا هو فبدأ يسحبني باتجاه منزل نزار. تعجّبت كيف عرف. وتعجّبت كيف عرفت أنا أنّه كان يعرف. وأكبر العجب أنّه لماذا لم نكن نتواصل بالكلام ونحن نقف جنبًا إلى جنب؟

وجاءت كلماته التي تردّدت حولنا دون أن نعلم من يلقيها:

**يا بنتُ: ما فَعَلَتْ بكِ الأشواقُ؟**
**إن الريح تصقُلُنا وتحملنا كرائحة الخريفِ،**
**نضجتِ يا امرأتي على عُكَّازَتِيَّ،**
**بوسعك الآن الذهاب على "طريق دمشق"**
**واثقةً من الرؤيا. مَلاَكٌ حارسٌ**
**وحمامتان ترفرفان على بقيَّة عمرنا، والأرضُ عيدُ ...**
**الأرضُ عيدُ الخاسرين (ونحن منُهمْ).**

وفي غمرة حيرتنا، تلقَّفَنا البُراق ثانية، واجتاز بسرعة الضوء عتبات أحلام كثيرة، منها بأبواب ونوافذ، ومنها بلا منافذ. ما هي إلاّ لحيظات وأعرف أنّ البُراق منحاز إلى هواي. ها هو على عتبة باب الحلم اللامعدود يلفظنا أمام عتبة داري في سيدني. يفلت محمود من يدي ويهرع إلى الجلوس في سيّارتي. لا يعبأ بالبيت، ولا بحديقته، ولا بصيحات أهل البيت: "تفضّل، تفضّل ... "

أُسرع خلفه وأبدأ قيادة السيّارة باتجاه يعرف كلانا أين ينتهي، لكن دون أن نتشاور أو نتحاور.

الرغبة في الوصول إلى محطّتنا الجديدة، وأنا الآن في بلدي، وبكامل سيطرتي على القيادة، على عكس الوضع مع البُراق حين كنت مسلوب الإرادة، أبْعَدَتْ عنّي مجرّد التفكير في كيف لمحمود أن يعلم أنّ مارسيل خليفة في سيدني، وأنّني ومارسيل على معرفة ببعضنا. لكنّ حَمْلَهُ للجداريّة على ظهره بإصرار، رغم ثقلها الباهر، أوحى لي أنّه يريد توصيلها إلى مكان ما. ولكنّه ألم يكن يعلم أنّ الجداريّة بالحفظ والصون، وأنّها وصلت للعالم كلّه؟ أم هل يريد شيئًا آخر؟ هل يريد ما يريده مارسيل، وما سبق أن خبّرني عنه، ألا وهو أنّه يعمل منذ مدّة، ولمدّة ست ساعات يوميًّا على "تلاوتها ومَوْسقتها" بناء على رغبة سبق لمحمود التعبير عنها؟ هل جاء محمود يستعجل هذا العمل؟

حين لمحت مارسيل يتمشّى في نهاية الطريق الذي يقع فيه مقرّ إقامته، منتظرًا موعدي معه، كان محمود قد اختفى من سيّارتي. فتح

مارسيل الباب، وجلس حيث كان يجلس محمود، وانطلقنا إلى مطعم على ضفّة الماء نتناول الغداء ونتجاذب أطراف الحديث.

لم أخبر مارسيل عن مغامرتي مع محمود، ولكن سواء أحسَسْنا أم لا، كان محمود حاضرًا ...

# شروق

تشرق الشمس كلّ صباح. اعتدنا على ذلك.

ولكن حين يغلب التفكير على الاعتياد، يمكن أن نرى الأمل يتجدّد كلّ صباح، أنّ يومًا جديدًا أضيف إلى حياة كلّ واحد منّا: ذلك المحظوظ الذي كتب له الوجود، وهي فرصة من بلايين الفرص.

هذا أصل الحياة، لكنّ قيمة الحياة تتعزّز بما يمكن أن يقوم به الإنسان، ما يمكن أن يضيفه على نوعيّة الحياة، له ولمن حوله، وللبشريّة، للكائنات، وللكوكب الأرضيّ كلّه.

تشرق الشمس كلّ صباح. تُذكّرنا بواجب الشكر المترتّب علينا لنقدّر نِعَمَ الكون التي لا تحصى، وربّما لنتذكّر أنّه لولا هذا الضياء ما كانت الأرض وما كنّا.

أشرقت الشمس هذا الصباح. تأمّلتُ برهبة وشغف تألّق ذلك الضياء الذي نفذ من غيوم الخريف مع بداية نهارٍ بارد منعش. احتسيت فنجان قهوتي والطيور تشاركني جلستي بين نباتات وأشجار الحديقة. النحل بعيد على قمم النخيل التي برز منها عناقيد من الزهر. خيوط العنكبوت بدأت تلمع عندما مسّتها خيوط الشمس، وتجلّت عليها قطرات الندى. السحالي تنشط بحركات سريعة. طوابير النمل تبدو غير مكترثة بما يدور فوقها.

أتاني ذلك الببّغاء الذي لا يقبل الطعام إلّا من يدي، فرمى نفسه في حضني. نهضت لأحضر بذور "عبّاد الشمس"، وملأت كفّي بكميّة منها. جلست ويدي والببغاء في حضني، فسارع لالتقاط البذور من كفّي المفتوح. وسرعان ما ارتمت شريكته في حضني، على الطرف المقابل. راقبت رأسيهما ينخفضان ويعلوان، يلتقطان البذور بمنقاريهما، "يفصفصانها" واحدة واحدة بإتقان رائع. وبعد استخلاص لبّ، وطرح قشر كلّ بذرة، ينظر

واحدهما إليّ فيبدو أنّه يطمئنّ قبل أن يعاود التقاط التالية. رأسان متقابلان، يعلوان ويهبطان، الواحد تلو الآخر، لا يصطدمان، رغم السرعة. شعرت بحنان كبير ... وإعجاب. ورأيت حضني الممتلئ بالقشور.

أشجار الحمضيّات حبلى بريّان الثمار. بعضها مزّقته مناقير الطيور.

الأزهار والورود تتبرّج بالأبيض والأصفر والزهريّ والأحمر. والنصر هذا الخريف للأرجوانيّ الذي فاق الألوان انتشارًا.

رائحة الياسمين تغمر المكان.

يشرق الحبّ والثقة في كياني، وأمضي ليومي الجديد.

# جدّو

أذكر اليوم الذي انتبهت فيه إلى أنّ جدّي لم يكن تمامًا كما كنت أظنّ. لم يسبق لي أنْ رأيت عينيه تتألّقان بالرضا الذي كانتا عليه في ذلك اليوم. حتّى أنّه حين حنى رأسه للوراء قليلًا، بانت على وجهه ابتسامة استهجان عريضة، وبدا كأنّه طفل صغير لمح فجأة كوز بوظة كبير الحجم، متعدّد النكهات. ذهلت، وانتابني فضول كبير لمعرفة سبب هذا التعبير غير المألوف على وجه الحاجّ رضا، جدّي لأبي، الذي لم أر فيه من قبل سوى الرصانة والجدّ.

كنّا نذكره بعبارة "جدّو الحاجّ رضا"، ونناديه بكلمة "جدّو"، الشاميّة الشعبيّة التي حلّت محلّ "جدّي" الفصيحة. كان في الثمانين، وأكثر ما تكرّس في مخيّلتي عنه هندامه وطريقة مشيه. كان يلبس قنبازًا أبيض اللون مخطّطًا بأسطر من النقاط الرماديّة أو الذهبيّة، محبوسًا إلى خصره بنطاق رماديّ أو ذهبيّ اللون، لا يظهر منه إلاّ الجزء الأماميّ بين طرفيّ "الساكو"، تلك السترة الغربيّة المزدوجة الصدر، الممتدّة إلى الركبتين، والتي كان يتركها مفكوكة الأزرار وهو يرتديها فوق القنباز. السترة في معظم الحالات رماديّة اللون، وأحيانًا بنّيّة. كان هذا المزيج من الهندام المحلّيّ والأجنبيّ يميّز الرجال الكهول المبجّلين في الأحياء القديمة من المدن السوريّة، بيد أنّ الطابع المحلّيّ كان يطغى على هيئته، بأنفه الساميّ، ولحيته البيضاء القصيرة، وخصوصًا الطربوش الأحمر الذي كان يحمي رأسه، ويستر صلعته. ويتميّز الطربوش عند حافته بنطاق من قماش ذهبيّ اللون. أمّا حذاؤه الأسود فكان أشبه ما تكون عليه جزمة الجنديّ. تحت كلّ هذا، كانت ملابسه الداخليّة من قطعتين طويلتي الكمّين والساقين، من الصوف شتاءً، والقطن صيفًا. كنت دائمًا أراه في حلّته الداخليّة وهو يتوضّأ مستخدمًا البركة التي تتوسّط ديار منزله العربيّ.

كان يمشي بسرعة، ويكره المواصلات العامّة والخاصّة، ولم يقُد سيّارة في حياته. حين كنت صبيًّا يافعًا أمشي معه، أذكر أنّني كنت أضطر للعدو قليلًا لألحق به، على الرّغم من أنّني ما تجاوزت السابعة من عمري، وكنت أرتدي بلطالي القصير، وحذائي المريح. وحدّث ولا حرج أنّه كان في كامل هندامه، منحني الظهر، ويحمل بين ساقيه فتقًا بعمر ثلاثين عامًا رفض معالجته. كما أنّ أيًّا من فردتي حذائه ما كان يرتفع عن الأرض لحظة. كان يشحط شحطًا: تتقدّم قدمه اليمنى فتلحق بها اليسرى، وحين تقف الأخيرة، تتقدّم الأولى. ولا أعلم إنْ كانت مشكلته فقدان قوّة رفع القدمين، أو فقد مرونة الركبتين، أو أنّ الفتق فرض هذا النوع من المسير، ولربّما اجتماع كلّ هذه العوامل! مع كلّ هذا الجهد، لم أستغرب الجدّيّة التي كانت تترجم نفسها في تعابير وجهه. ومع ذلك، كان دائمًا مصممًا عازمًا يتّجه إلى الأمام.

حين كنت طفلًا، وكان يصطحبني في مشيه، كان يقبض بكفّه على كفّي بإحكام، دون أنْ يترك لي مجالًا للإفلات. كانت يده قويّة، وقبضته بمقدار تصميمه على حمايتي من عبث المرور في الحارات والأسواق الضيّقة المزدحمة في دمشق القديمة: بشر، عربات، حمير، درّاجات، سيّارات، وحتّى باصات. وعلى عكس والدي وعمّي، كان جدّي يفضّل المرور من سوق "مدحت باشا"، الشارع الرئيس بين منطقة منزله ومنطقة الأسواق التجاريّة، بدل سلوك طرق مختصرة عبر الحارات الخلفيّة للحيّ القديم. لم تكن هناك أرصفة في معظم سوق مدحت باشا، وفي أماكن كثيرة منه كان أصحاب المحلّات والمارّة والسائقون والدواب يتشاركون في بحيرة الفوضى الواحدة. حين كان يصل الباص الكبير، مقتطعًا أكثر من حصّته من الشارع، كان كثير من المارّة يهرع داخل المحلّات، أو على الأقلّ يقف ملتصقًا بأقرب جدار، دون أنْ يمنع هذا بالضرورة بعض راكبي الدرّاجات من أنْ يحشر نفسه بين الباص والناس الملتصقين بالحائط، وأحيانًا يندفع كالسهم فخورًا باستعراض جنونه على حساب هلع الآخرين.

اليوم لن أشعر بأيّ ألم في يدي. بلغت سنتي الثانية عشرة، وتمتّعت بقدر لابأس به من صفات الشباب. كثافة الشعر المنتشر في جسمي كافية لردع جدّو عن مجرّد التفكير بإمساك يدي. حين مشيت إلى جانبه، أو خلفه، وأحيانًا أمامه، حسب حالة المرور، كان عليّ أنْ أناور بمهارة لأجاري تقدّم سيره. كنت ألحظ أنّه حينما كان يقلق عليّ بسبب تغيّر مفاجئ في حركة المرور، كان يرفع يده عفويًّا ليمسك يدي، لكنّه يستدرك فورًا برمي يده على صدره، أو التظاهر بأنّه يسوّي طربوشه!

عصر صيفيّ حارّ، وبينما كنت أغمض عينيّ اتقاء لوهج الشمس، لم يكن وجه جدّو يتبدّل قطّ. قد يعود هذا لطبيعته الجادّة، أو لأنّه كان متعوّدًا على المشي تحت الشمس بانتظام، طيلة سنين حياته. وعلى الرّغم من أنّ أخاه الأصغر، شريكه في العمل، كان يدير كلّ شؤون المتجر، لم يعلن جدّو تقاعده الرسميّ أبدًا. كان يزور المتجر يوميًّا. أمّا والدي وعمّي، فكان لهما متجر آخر قريب من متجر والدهما وعمّهما، يديران فيه ضربًا آخر من ضروب التجارة في سوق تعرف بـ"سوق الحرير"، تلك المادّة التي كان جدّي أحد أهمّ تجّارها في دمشق. كانت عادة جدّي أنْ يزور متجر ولديه قبل متابعة طريقه إلى متجره: مرّة صباح كلّ يوم، ومرّة في عصر اليوم، بعد عودته من قيلولة بعد الغداء، وأدائه صلاة العصر في منزله.

غادرنا الشارع الرئيس، ودخلنا سوق "البزوريّة" المغطّى، المتخصّص بالبذور، والحبوب، والمكسّرات، والفاكهة المجفّفة، والشوكلاته، والعطور، والزيوت، والصابون، والسمن البلديّ. والآن صارت تعابير وجه جدّو تتغيّر حين يردّ على تحيّات أصحاب المتاجر الذين يعرفونه كزبون مهمّ، أو أنّهم يقدّمون واجبات التبجيل لمكانته المهنيّة، وتقدّمه عليهم. كان يحيّيهم برفع يده عرَضًا لتلامس طربوشه في "سلام"، ثم يضرب بها على صدره تأكيدًا، ويبتسم ابتسامة عريضة تفارق ما بين شفتيه لتظهر نيرته عارية عن الأسنان التي فقدها منذ سنين طويلة، ولأنّه رفض استعمال أسنان مستعارة، صارت تلك النيرة على درجة كبيرة من القوّة والصمود مع مرور الأيّام.

ننتقل إلى سوق الصاغة، خلف الجامع الأمويّ، بمحلّاته الكثيرة التي يتنافس أصحابها بعرض مجوهراتهم ومختلف إنتاجهم من المصاغ، أو ما استوردوه، في واجهات زجاجيّة يرتّبونها كلّ صباح.

نخرج من هذا السوق المغطّى إلى فسحة سماويّة قصيرة نسبيًّا، قبل أنْ ندخل في شبكة من الأسواق المغطّاة الأخرى التي تتعاطى تجارة الأقمشة، ويصبّ معظمها في سوق الحميديّة.

في واحد من تلك الأسواق، يقع "خان الشيخ قطنا"، وفيه متجَرا جدّي ووالدي. دون أنْ ينطق بكلمة، انطلق جدّو كالرمح داخل متجر والدي باتجاه مجلسه المفضّل، كرسيّ في قسم الزبائن، يقع مباشرة قرب زاوية شكّلها مقعد والدي الرئيس مع مناضد تشكّل حاجزًا بين منطقة الزبائن ومنطقة التخديم التي كان يقف فيها والدي وعمّي ومساعداهما لفرد القماش وعرضه على الزبائن، وقياسه، وقصّه، ولفّه. كانت لفّات القماش، التي يطلق على واحدها "توب أُماش" باللّهجة الشاميّة، تصطف على رفوف تغطّي كلّ جدران المتجر، وكان القماش في معظمه للاستهلاك النسائيّ، وبالتالي كان معظم الزبائن من النساء.

كان جدّو يختار الجلوس في ذلك المكان لأنّه كان سهل المنال، فلو أنّه أراد الدخول إلى مكتب والدي في صدر المتجر، لكان عليه حشر نفسه في ممرّ وحيد ضيّق جدًّا بين منضدة التخديم ورفوف القماش على طول المتجر كلّه. كانت زيارته لمتجر أبي بعد الظهر لا تدوم أكثر من نصف ساعة، وقد تتضمّن استشارات ومناقشة بعض الحسابات أحيانًا، يذهب بعدها إلى متجره فيمضي ساعتين، ثم يعود إلى المنزل ليصلّي المغرب، ثم يتناول وجبة، فصلاة العشاء، قبل أنْ ينطلق مجدّدًا إلى سوق مدحت باشا، ولكن هذه المرّة يغادره في نهايته إلى شارع النصر، حيث يتوجّه إلى المقهى القابع قرب محطّة الحجاز في قلب دمشق.

وقفتُ وراء المنضدة مقابل جدّي، طامعًا بمساعدة الآخرين في عرض وبيع القماش، والحصول على موافقة والدي في قضاء عطلتي المدرسيّة في

متجره لأكتسب خبرة البيع. أمّا كرسيّ جدّو، فكان في موضع محرج بين المنضدة وباب مغلق يؤدّي إلى مستودع داخليّ، وعلى الباب مرآة كبيرة تساعد النسوة على تأمّل أنفسهن وهنّ يناسبن القماش على أجسامهن.

حين كان المتجر يعجّ بالزبائن، كان جدّو يضيع في زحمة الرجال والنساء المساومين والمساومات. كان عادة غير مبال بمن حوله، يثبّت نظره على الأرض وهو يمرّر سبحته بين أصابعه، ورسغه مثبّت فوق ركبة ساقه الملتفّة فوق ساقه الأخرى. كلّما مرّر أحدنا القماش فوق المنضدة لسيّدة لتطرحه فوق كتفها، كان يدير وجهه، أو يتراجع بجسمه إلى الوراء متلافيًا القماش.

كنت أعتقد أنّ جدّو فقد الرغبة في النساء منذ زمن غابر. كان يكبر جدّتي بأكثر من ثلاثين سنة، ومنذ أنْ فتحت عينيّ على الحياة لم أرهما، أو أشعر أنّهما على علاقة زوجيّة. كانت له غرفة نومه الخاصّة، وكان لها غرفتها، لكنّها كانت ترعاه كامل الرعاية. وكان يستعين بأصغر بناته من أجل احتياجاته التي لا تقدر جدّتي على القيام بها، بما في ذلك الإصغاء إلى الأذان المنبعث من الجامع الأمويّ لتنبّهه إلى حلول وقت الصلاة. وكان يقضي معظم ما يتوفّر له من الوقت في قراءة القرآن، وهو جالس قرب نافورة داره العربيّة.

ردّة فعله اليوم لم تكن معتادة. كانت عيناه تتألّقان بنظرة حنان، نظرة إعجاب وتقدير، مع أنّها كانت تحمل بعض مظاهر نظرات الرجال المنبهرة حين يستحسنون ما تقع عليه عيونهم من النساء. سرّني جدًّا أنْ أكتشف هذه الخصلة في جدّي، وهي صفة ربّما لم يكن هو نفسه واع لها. لكنّها كانت هناك، وهذا ما أثلج صدري، لأنّ انطباعنا عن جدّي كان أنّه عمليّ.

كان رأس العائلة وسيّدها، وكان علينا احترامه. خطواته معلومة، يتبع برنامجًا في النوم، والأكل، والصلاة، وقراءة القرآن، وزيارة المقهى. في المقهى كان يحتسي الشاي، ويدخّن النرجيلة، ويلعب النرد. تلك هي ما تبقّى له من ترفيه في هذه الحياة. كان ثريًّا من قبل، لكنّه لم يكن ممّن يحبّون التملّك.

عدا عن معارفه في المقهى، لم يكن لديه أصدقاء. لم يلمّح مرّة أنّه كان شغوفًا بالفنّ، ولا حتّى ببعض التحف المعروضة داخل منزله. لم أسمعه قطّ يصف أيّ شيء بأنّه "جميل". كانت كلماته دائمًا عن التقوى، والأهمّيّة، والمنفعة، والضرر. كنت أسمع منه مسبّة واحدة: "أكل خرا". بدا لي، ظاهرًا، أنّه "أسود وأبيض". وإن كانت الألوان هناك، لم يكن من الذين يستعرضونها، هذا إنْ عرف كيف!

كانت ردّة فعله اليوم ما جعلتني واعيًا، منذ ذلك العمر المبكّر، أنّنا كلّنا أصحاب ألوان، لكنّنا نختلف في طريقة عرضنا لها، أو في طريقة إظهار صدقيّتها، أم أنّ بعضنا سيمضي حياته دون توظيفها، ناهيك فيما إذا كان واعيًّا لها أصلًا. كما أنّ ذلك اليوم فتح عينيّ على تقدير جمال الجسد الإنسانيّ وأكثر.

حين نظرت إلى مصدر إعجابه، اضمحلّ تعجّبي! كانت امرأة في بداية الثلاثينيّات، ممشوقة القامة، مثاليّة المقاسات، عينان سوداوان واسعتان، شعر طويل أسود يختفي الجزء الأكبر منه تحت وشاح خمريّ اللّون. بشرتها سمراء داكنة، كأنّ أميرة من الصحراء تجسّدت للتوّ داخل لباس غربيّ ضيّق يفضح تقاسيم جسمها الرشيق. ثمّة بريق داخليّ كان يغطّيها بهالة يجعلها تشدّك إليها شدًّا، لكنّي لم أتصور أنّ جدّو سيهتمّ بذلك.

حين نظرت مليًّا كيف رمت قطعة من الحرير المذهّب فوق كتفها وحول خصرها، مرورًا بواحد من ثدييها البارزين، تخيّلت انعكاسها ضمن إطار المرآة، جسمًا مكتنزًا موشّحًا بالذهب، وأحد الكتفين وثدي تحته صارخين في التعرّي، وكذلك الساق في الجهة المقابلة من الجسم، والركبة مثنيّة قليلًا، تكشف المفاتن من تحت الحافّة الحريريّة للقماش: لوحة مدهونة بالأسود والأصفر، معلّقة في متحف اللوفر.

# خَواجا خَليل

كنت في سنواتي اليافعة أمضي بعضًا من فترة العطلة المدرسيّة في متجر أبي الواقع في سوق من أسواق المدينة القديمة. كان والدي يتعاطى بيع القماش، بينما كان جاره الخواجا خليل يتاجر بالحرير.

كانت النعمة واضحة على الخواجا خليل، الذي كان يحضر يوميًّا بكامل أناقته، ويقضي معظم وقته وراء مكتبه، وأحيانًا يُخرج كرسيًّا يجلس عليه في مدخل متجره. كان يبيع بالجملة، فلا يتعاطى مع المشترين وجهًا لوجه كما هي حال أبي.

كنت أغتنم فرصة جلوسه خارج المتجر، فأتحدّث إليه حين كانت تسمح الظروف. وكنت أُفاجأ دائمًا بتصرّفه حين كان يحضر جدّي لزيارة ابنه (والدي) في متجرنا. الخواجا خليل، الأنيق، المتعجرف، الذي لا يهتزّ للعالم الذي حوله، ينتفض فجأة، ويقف مسرعًا للسلام على الحاجّ رضا.

الحاجّ رضا هو مؤسّس التجارة التي كان أبي وأخوه يتعاطيانها في ذلك المتجر. وبما أنّ الخواجا خليل أكبر من والدي بقليل، كنت أعتقد أنّه يقدّم واجب الاحترام للحاجّ رضا الذي كان بعمرٍ يمكّنه أنْ يجعله والد الخواجا.

سألت الخواجا يومًا: "كيف تعرّفت إلى جدّي؟"

أجاب: "كنت أتاجر معه في خيوط الحرير. كان جدّك من أهمّ تجّار الحرير في البلد. ويمكن القول إنّني تتلمذت على يديه."

قلت: "ولكنّه يعمل مع أخيه في المتجر الثاني الذي تملكه عائلتنا، ولا أرى أثرًا للحرير هناك."

قال: "لقد توقّف عن مزاولة ذلك منذ فترة طويلة. الحرب العالميّة غيّرت موازين الأمور، كما أنّ جدّك تقدّم في السنّ."

قُلتُ له ببراءة الأطفال: "ولكنْ على الرّغم من أنّ أوضاعه الماليّة جيّدة، يبدو أنّك سبقته بأشواط بعيدة، فأنت التاجر الوحيد الذي يُقال

عنه 'مليونير' هنا."

ضحك ضحكة كأنّها الرعد في عصر يوم صيفيّ، فاستدارت وجوه المارّة نحونا، وهو يلّف ساقًا فوق الأخرى، ويُدخل بعض أصابع يديه في جيبي صدّارته التي ما استطاعت أناقتها، هي وربطة العنق الحريريّة، إخفاء الكرش العظيم الذي يحمله الخواجا خليل. ثمّ قال: "اِسمَعْ هذه الحكاية إذًا، فربّما تعطيك الجواب الشافي."

أحضرت كرسيًّا وجلست إلى جانب الخواجا أستمع إلى حديثه بشغف شديد.

قال وفي عينيه إسقاطات نحو الماضي، وشفتاه ترّقان وتغلظان وهو ينتقل بين تعابير الافتخار والتعجّب:

إبّان الحرب العالميّة، عقدت مع جدّك صفقة كانت في حينها أكبر صفقات حياتي: اشتريت منه كميّة كبيرة من خيوط الحرير. اتّفقنا على السعر، وكان البيع بيننا يتم بناء على الكلمة، فلا عقود مكتوبة، ولا شهود. كما أنّه كان بإمكاني استلام البضاعة كلّها والدفع فيما بعد، أي أنّ الأمور كانت مرتاحة جدًّا. عشيّة ذلك اليوم تسبّبت أحداث الحرب بارتفاع هائل في أسعار الحرير، وصل إلى أضعاف ما اتّفقت عليه مع جدّك. أصابني الهلع، ولم أنم طيلة الليل لأنّني لن أستطيع شراء ما اتّفقنا عليه، وحتّى لو استطعت زيادة مبلغ الشراء أكون من الخاسرين. كنت أعلم أنّ جدّك ينهض قبل الفجر لأداء الصلاة، ولذلك ما استطعت الصبر حتّى تشرق الشمس، بل اتجهت إلى منزل جدّك وأنا أبتهل إلى المسيح والعذراء، وأرسم شارة الصليب. طرقت الباب بشدّة، وأنا أعلم أنّه لن يستجيب إلى الطرق في هذه الساعة الباكرة سوى سيّد المنزل. سمعت وقع أقدامه المميّز، فتحرّكت معه دقّات قلبي.

فتح الحاجّ رضا الباب وهو يبتسم ابتسامة تجمع بين المرح والسخرية والاعتزاز بالنفس. تظاهر بأنّه لا يعرف، وقال لي مداعبًا: "ما سرّ تشريفك لنا والصبح ما حلّ بعد؟" قلت له: "يا حاجّ ... هل سمعت ... أنا تحت رحمتك ..."

واصل ابتسامته، وقال: "هل تتحدّث عن جنون الحرير؟" قلت: "وأيّ جنون يا حاجّ. هذا شيء ما حصل من قبل." قال: "ومتى حصل بالضبط؟" قلت: "بعد ساعات من اتفاقنا." قال: "إذًا ما علاقة ذلك باتّفاقنا؟" قلت: "ولكن ياحاجّ، إذا قبلتَ بالسعر الذي اتّفقنا عليه تخسر الكثير!" قال: "هذا نصيبي. أنا بعتك، وأنت اشتريت. اتّفقنا وباركنا عَقْدَنا. وكوننا لم ندوّنه لا يبدل شيئًا في نظري. إذهب إلى نومك، واتركني لصلاتي."

أحبّ أنْ أعترف لك أنّني لو كنت أنا مكانه لما قبلت بما قبلَ به، ولذلك تراني حيث أنا، وتراه حيث هو.

أجبت الخواجا خليل، وأنا أشعر بغيظ شديد (من كلا الرجلين)، ممزوج بإعجاب كبير (بجدّي فقط)، وبعض التقدير للخواجا الذي اعترف بالقضيّة: "من الناحية الماديّة فقط. من الناحية الماديّة."

صمت الخواجا خليل صمتًا ظننته أبديًّا، وسررت أنّ أبي ناداني لحظتها، فتركت الخواجا خليل دون حاجة لمزيد من الإحراج.

# نيسان، 1975

جلس الطالب مع أستاذه البريطانيّ في كافتيريا الجامعة، كعادتهما بين الحين والآخر، يتبادلان الآراء حول البحث العلميّ الذي يقوم به الطالب بمنحة من المجلس الوطنيّ اللبنانيّ. لكنّ الحديث اليوم لم يكن حول فيزيولوجيا الأسماك، ولا وحيدات الخليّة البحريّة التي يمكن تنميتها لتغذية هذه الأسماك.

منذ يوم الثالث عشر من نيسان عام 1975، والذي صادف قبل أسابيع من جلسة الأستاذ وتلميذه، كان حديث الناس الذي لا يتوقّف هو عن الحرب الأهليّة التي اندلعت في لبنان. وهكذا كان الحديث بينهما. كلاهما كان يعشق بيروت، كلّ على طريقته. والتلميذ يعتبر نفسه لبنانيّ لأنّه ولد لأمّ لبنانيّة. لا تهمّه "ورقة" الجنسيّة. يكفيه أنّه يحمل على ورقة فكره أختامَ فيروز، وسعيد عقل، ومنير البعلبكي، وسهيل إدريس، وغسّان التويني، وأحمد عارف الزين، وأنطون سعادة، وكمال جنبلاط، وغيرهم ممّن كانت لهم بيروت مرتعًا للحرّية فأبدعوا فيها مثل نزار قبّاني، وغادة السمّان، وأدونيس.

كان الأستاذ يستمتع بأحاديث التلميذ عن تاريخ لبنان، وشخصيّاته، ويترافقان في جولات سياحيّة في ربوعه.

أبدى البريطانيّ قلقًا كبيرًا على الأوضاع السائدة، وسأل تلميذه متى يعتقد أنّ الحرب ستتوقّف. أجاب التلميذ بثقة: "مع حلول الأعياد، في نهاية العام، سيكون كلّ شيء على ما يرام." وأضاف: "ألم تر أنّ هذا بلد التعايش والمحبّة؟ خذ الجامعة مثلًا. نحن هنا من كلّ حدب وصوب، ومن كلّ دين وملّة. نتشارك جميعًا في كلّ الأنشطة وكافّة المجالات. هذه دلال، مثلًا، صديقتي منذ سنة، وكانت تعتقد أنّني مسيحيّ، وأنا أعتقدت أنّها مسلمة. اكتشفنا حقيقة الأمر صدفة لأنّه لم يكن همّنا."

قهقه البريطانيّ وقال: "هذا ما أتمنّاه يا عزيزي، ولكن لا أشاركك تفاؤلك. خذ مثلًا الصراع الكاثوليكيّ البروتستانتيّ، في أيرلندا الشماليّة، المستمرّ منذ سنين طويلة، رغم نفوذ بريطانيا القويّ وسيطرتها على المنطقة."

جاءت الأعياد ولم تنته الحرب. وتأخّر تخرّج التلميذ سنة كاملة بسببها. كانت هناك أسابيع يمضيها في مكتبه في الجامعة دون أن يستطيع المغادرة إلى بيته. وخلال نومه في مستودعٍ ملحقٍ بالمختبرات التي يعمل فيها، كان أحيانًا يستيقظ على أصوات الميلشيات المسلّحة العابرة، فيراقبها في الظلام من نافذة المخبر.

كان كلّ صباح، فور استيقاظه، يجري اتصالات هاتفيّة مع أصدقائه ليطمئنّ عنهم ويطمئنهم أنّه لا زال على قيد الحياة. وفي صباح يوم توجّه كعادته نحو غرفة تجهيزات الغوص البحريّ، وفيها الحمّامات والمغاسل. وحين كان يحلق ذقنه، سمع صوتًا مفاجئًا غريبًا كأنّه نبضة سريعة هزّت المكان فوق رأسه. لحسن الحظّ أن نوافذ هذه الغرفة مرتفعة بطبيعة الحال. التقط من على الأرض رصاصة القنّاص الطائشة التي مرّت فوق رأسه بأقلّ من مترين.

حين سمعت بذلك إحدى صديقاته المقرّبات، استغلّت فرصة هدوء، بعد أيّام من الحادثة، وحضرت من الجبل إلى الجامعة لتطمئنّ عليه. كان هذا آخر لقاء بينهما. بعدها ما عادت تحضر، لكنّهما استمرّا بالتخاطب هاتفيًّا إلى أن جاء يوم يرنّ الهاتف فيه دون جواب. هل غادرت البلاد؟ هل بقيت على قيد الحياة؟ إلى اليوم لا يعلم أين هي.

وحين أنهى أموره وحصل على التواقيع الرسميّة التي كانت جواز تخرّجه، أراد العودة إلى دمشق، مسقط رأسه، لكنّ الطريق الرسميّة غير سالكة بسبب الاشتباكات. ترك سيّارته في بيروت بعهدة قريب له، والتحق بسيّارة أجرة يقودها درزيّ يستطيع العبور من مناطق جبليّة تسيطر عليها

طائفته وحلفاؤها. عبر إلى دمشق، وخلال المشوار كانت هناك مواقع تحفل بأصوات الرصاص والمدافع.

عدا عن ذلك، وخلال تلك الفترة التي قضاها في بيروت منذ بدء الحرب الأهليّة، تعرّض مرّتين للهلاك، وهو الذي لا ناقة له بتلك الحرب ولا جمل. لكنّها كانت أوقاتًا يمكن أن يذبح فيها لمجرّد إبراز هويّته السوريّة. كان يمكن أن يحصل هذا على حاجز للقوّات اليمينيّة، أو على حاجز فلسطينيّ، وفقًا لما كان عليه التحالف مع الدولة السوريّة في ذلك الوقت، والذي كان يتغيّر وفق المصالح، أو وفق تعليمات الأسياد الإمبرياليّين.

مجرّد الشعور بالخلاص من مأزق كهذا ترك في نفس صاحبنا صدمة نفسيّة عنيفة، ازداد شعوره بها مع تقادم الوقت. ذلك أنّ السنين التي مرّت بيّنت أنّ الحرب الأهليّة لم تتوقّف أبدًا. هذا هو يرى أنّ لبنانه ينهار من تداعيات الحرب ومخلّفاتها. وهنا في أستراليا قابل أشخاصًا لهم قصصهم وحكاياهم، مثل هذا الذي قُتل أخاه على أيدي مجموعة من طائفته لأنّ هويّته سوريّة، واسمه لا يدل على طائفة معيّنة.

كلّما سمع قصّة مثل هذه يتذكّر المأزق الكبير الذي وقع فيه مرّة ونجا منه لمجرّد أن صدف عدم تفتيش هويّته، ولا يحبّ أن يكرّر تفاصيله لأنّها تشير إلى فئة معيّنة، ولأنّه يعلم أنّ الجميع سواسية في السفالة والطغيان. (كلّن يعني كلّن!)

كلّما شاهد العنف على أرض فلسطين، والاعتداءات في أوكرانيا، يتجدّد في ذهنه استحضار تلك المواقف الصعبة. يتصوّر نفسه مكان تلك الضحايا البريئة، سواء استُهدفت بقصف، أو عصف، أو رمي بالرصاص، أو اغتصاب، أو أسر، أو تهجير. يعلم أنّه محظوظ بنجاته ومكان وجوده، لكنّ هذا لا يلغي الصدمة المستوطنة في تلافيف الذاكرة.

عدم حصول الفعل فيزيائيًّا لا يعني النجاة من استحضاره ذهنيًّا، والعيش في جحيم مدلولاته. أن لا تكون أنت الضحيّة، لا يعني أنّك لا تشعر

مع الضحيّة. ويصاب بخيبة كبيرة لأنّه يعلم أنّه لا حول له ولا قوّة. مجرّد متفرّج على الأحداث.

وطبعًا، يتذكر أستاذه البريطانيّ الذي كان أكثر فهمًا لطبيعة الأمور.

# أوّاه يا امرَأة ...

استوقفني رجل لبنانيّ في الطريق وقال إنّه ميّزني من صورتي التي تظهر إلى جانب كتاباتي في صحيفة التلغراف في سيدني، وبدأ بمديح كتاباتي خصوصًا ما يتعلّق منها بما سمّاه "الغزل"، وأكّد لي أنّني أكتب جيّدًا، وأنّ غزلي بالنساء في لبنان السبعينيّات قويّ جدًّا.

شكرت الرجل واستأذنته مغادرًا في طريقي دون أنْ أخوض معه في نقاش حول ماهيّة ما أكتب، لكنّني رأيت نفسي في حالة استحضار واستعراض لسلسلة ما كتبت، وأسباب وأصول ما دفعني لتلك الكتابة، فوجدت نفسي أقول له:

ياليتك تعلم يا صديقي أنّ تلك النساء اللاتي تتحدّث عنهنّ هنّ امرأة واحدة، مرّة تكون أمًّا ومرّة تكون زوجة، عشيقة أو صديقة، شقيقة أم ابنة عم، عمّة، خالة، جدّة، حماة. مرّة تصبغ شعرها، ترفعه، تنشره. مرّة تكحّل الجفون. مكتسية، أم عارية. تقود سيّارة، أم تحلب بقرة. تحضّر لجلسة قضائيّة، أم تخبز منقوشة بالصعتر.

هؤلاء النساء مساحيق على وجه امرأة واحدة، اغتصبها أبناؤها بمساعدة أشقائهم وأعدائهم، ولمّا تكوّرت بطنها بجنين مكرهم وترفهم، تركوها حبلى بهموم الغيب القادم. تركوها قلقة ليس من الفضيحة بقدر ما سيحدث عند الولادة، وهي تعلم أنّ وحشًا مفترسًا ينتظر على باب دارها الجنوبيّ، له من حاسّة الشمّ ما تستشعره في فرْجها الذي صار يخشى لحظة الفَرَجْ. صارت تخشى الأمومة، وهي التي فتحت صدرها حبًّا بكلّ المارقين، وأعطتهم من مفرزات تلذّذها بحبّهم الخادع. مات الجنين في أحشائها.

نعم! أنا واحد من عاشقيها، وقد أكون الأب الحقيقيّ لجنينها الذي ستأكله الضباع. لكنّني لا يمكن أنْ أثبت ذلك. وربّما لن يُسمح لي أنْ أثبت

ذلك. وأنا واحد من أبنائها، وأشقّائها، وأبناء عمومتها، وخالاتها، لكنّ مشكلتي أنّ لون جلدي في نظر بعضهم مغاير للون جلودهم.

كلّ الذي أعرفه أنّني أحببت هذه المرأة كثيرًا، وضاجعتها كثيرًا، وكنت أسمع أنين نشوتها وهو يخرج من مساماتي، وأشمّ عطر لذّتها حين ينسكب على جسدي. ولازلت أذكر ولادتي! رحلتي في الدهليز السحريّ الذي نقلني من داخل رحمها إلى الوهاد والسفوح في جسدها المستحمّ برذاذ البحر وعبق الصنوبر والأرز. نعم! أبصرت النور من فرجها، ثمّ رأيته بريقًا في عينيها. لذلك تراني أكتب عن ذكرياتي معها بهذه القوة.

أخشى أيّها المارق في طريقي أنْ أبوح لك أنّها أمّك، أختك، زوجتك ...

أوّاه يا امرأة ... يا لبنان.

# عندما تهتزّ الجدران

عمر الصبيّ سبع سنوات.

يراقب بمحبّة جدّته التي تقيم عندهم في زيارة لبضعة أيّام. ها هي هذه تلتفّ بثياب صلاتها القطنيّة البيضاء، وتؤدّي فريضة المغرب على أرض غرفة جلوس، وهو يروح ويأتي بين غرف الشقّة الواسعة، ينتظر بحماس انتهاءها لتقوم بإضفاء لمساتها على وجبة العشاء التي بدأت والدته والخادمة تحضيرها في المطبخ. مثل كلّ الجدّات في دمشق، "جدّته أعظم طاهية في العالم".

غرفة الجلوس تلك تتّصل بغرفة أصغر يستخدمها الصغار للدراسة والألعاب. يواظب الصبيّ على الانتقال من غرفة الجلوس إلى الغرفة الصغيرة لإشغال نفسه إذ بدأ الجوع يتمكّن منه. هناك يجلس أخاه الأصغر يتلهّى بالمكعّبات الخشبيّة ليفكّ الأحجية ويشكّل صورة. يجلس إلى جانب أخيه، وما إن يحمل مكعّبًا من المكعّبات حتى يسمع نوعًا من الهدير، ويرى جدران الغرفة الزرقاء تميد من جهة إلى الأخرى. إلى أيّ مدى، وكم استغرق ذلك ليس مهمًّا أمام تلك الصدمة اللحظيّة التي هزّته في أعماقه هزًّا. لم يشهد ذلك من قبل، وليس لديه أيّ تفسير. بدأ أخاه الأصغر بالبكاء العنيف. يخاف أكثر، ويواصل بكاءه الصارخ وهو يسرع إلى أحضان جدّته التي تجلس الآن على أرض الغرفة تتضرّع إلى الله أن يغمرهم برحمته، وهي تضمّ حفيدها الأثير. تسرع والدته خارج المطبخ باتجاه شقيقه المضطرب، وتتوجّه الخادمة نحو الرضيع الغافي في غرفة للنوم.

في جنّة جدّته، يشمّ رائحة ثياب الصلاة التي تحمل الكثير من عبق الخزانات الخشبيّة القديمة، الممتزجة مع روائح الجسد الأخرى. تواصل الجدّة تلاوة ما تحفظ من القرآن، خصوصًا تلك الآيات التي يتعارف أنّها تبعد الشيطان ومخاطره. وبين آية وأخرى تمطر وجنات حفيدها بوابل من

القبل، فما إن يترطّب وجهه حتّى يمسحه بثيابها الناعمة. يشعر بالأمان. ويستمع إلى تفاسير البالغين، وتقع في أذنه عبارة "هزّة أرضيّة" لأوّل مرّة.

عندما يصل والده لاحقًا، يستقبله الصبيّ بمزيد من البكاء، ولكنّه الآن بكاء أقرب إلى "التشكّي".

هذا المساء محفور في ذاكرة الصبيّ بوضوح سرمديّ. ولكن لا يمكن التأكيد إلى أيّ مدى صار جزءًا من عواطفه وقلقه. سيسمع بعد سنين قليلة بزلزال أغادير عام 1960. وسيعلم ما تعنيه الكلمة، ولكن ليس بالضرورة يفهم كلّ مدلولاتها.

من الطبيعيّ الآن، وهو يعلم كلّ المدلولات، أن يستذكر الحادثة حين سمع بزلزال مروّع ضرب سوريا وتركيا. يتساءل كيف سيشعر الأطفال ذوو السنوات السبع وهم يشهدون تطوّر هذه الكارثة حتّى انتهاء أجلهم قبل الأوان، دون أن يعلموا لماذا!

شباط/فبراير 2023

# شحنتان

نظر في شاشة هاتفه ليجد أنّ الشحنة عشرون بالمئة. اطمأنّ قلبه بحذر، وهو الحريص دائمًا على شحن هاتفه كلّما عاد التيّار الكهربائيّ في بلد تنقطع فيه الكهرباء معظم اليوم. الهاتف يلازمه مثلما يلازم كثيرين ممّن هم مثله في السنوات قبل العشرين بقليل من العمر.

في هذا البلد الذي أمضى أكثر من عشر سنوات من الحرب الوقحة، وعانى من الحصار السياسيّ والاقتصاديّ، ومن الاستغلال الداخليّ والخارجيّ، لم يبق فيه لمعظم المواطنين أيّ سبب من أسباب العيش الكريم، فما بالك بالرفاهيّات؟ لكنّ الهاتف المحمول جاء تعويضًا كبيرًا من حيث كونه خدمة أساس، وتسلية بما فيه من تطبيقات التواصل الاجتماعيّ. بواسطته يتواصل مع الأصدقاء والمعارف، ويأمل دائمًا بضرب علاقة مع فتاة من الفتيات. نعم، ما إن يشحن الهاتف، حتّى يتفرّغ من شحنته بسرعة البرق. هناك نهم شديد للحياة، ولكلّ ما انحرم منه هؤلاء الذين في ربيع العمر.

لكنّه لم يكن يتوقّع أبدًا أن تكون حاجته لهذا الرفيق كما هي في هذه اللحظات. أخوه على بعد أمتار قليلة منه، لكنّ سبيله الوحيد في التحدّث إليه هو هذا الهاتف. كانا معًا في غرفتهما، لكنّ أخاه خرج لقضاء حاجة، وفي تلك اللحظة قامت القيامة. جنّ جنون الجدران وهي تتراقص يمينًا ويسارًا، وزمجرت الحجارة الإسمنتيّة وهي تتفكّك وتتكسّر على بعضها وعلى كلّ ما يقع تحتها. وشكّلت بعض الكتل المتماسكة حواجز ومساند ترتكز عليها كتل أخرى فأعيد تشكيل البناء عشوائيًّا: صارت الشقّة عدّة حجيرات منفصلة بحواجز من الأنقاض الثقيلة.

ذهل من نفسه أنّه في وعيه "حيّ يرزق". (ابتسم حين تذكّر أنّه لا رزق ولا يحزنون في هذا الزمن المجنون.) نظر إلى هاتفه بشحنته العشرينيّة، وهو

الآن محبوس في زنزانة صغيرة توحي بالقبر. لا يستطيع الوقوف تمامًا من ضيق المكان. يعلم أنّ ثيابه تعفّرت، لكنّه لم يصب بجروح. تترامى إليه أصوات ضعيفة، ربّما من عائلته أو الجيران. ينادي عسى أن يستجيب أحد، ولكن لا! يضرب رقم أخيه على الهاتف فيسمع الرنين بالقرب منه قادمًا من تحت كومة حجريّة. ترك أخوه الهاتف في الغرفة قبل خروجه. ينادي اسم أخيه بأعلى صوته. لا من مجيب.

بدأت أخبار الزلزال المدمّر تتوارد على هاتفه، وقبل أن يبدأ أيّ مخابرات مع الأصدقاء، من حرصه على الشحنة، يقرّر تصوير نفسه في تسجيل حول مأزقه، ينشره على فيسبوك عسى أن يفيد في عمليّات الإنقاذ. يصوّر نفسه وهو معفّر بالغبار، يتكلّم منفعلًا مرتجفًا بلهجة شمال سوريا. يلفظ الشهادتين، ويقرّ أنّه لا يعلم إن كان سيخرج من هذه الورطة أم لا. يلفت نظر المشاهدين إلى الأصوات التي من حوله. يؤكّد أنّه لا يمكن لأحد أن يستوعب هذا الحدث ما لم يعشه. لا يستطيع وصف شعوره. عند هذه الكلمات نلاحظ ثمّة دموع وشهقات عجولة بدأت تصدر عنه، لينهي التسجيل بعدها.

ينظر من جديد إلى هاتفه. الشحنة الآن خمسة بالمئة. يسائل نفسه: "هل ستنتهي الشحنة البسيطة الباقية، ومع ذلك سأخرج إلى الحياة من جديد؟ أم ياترى ستطير شحنة حياتي الطويلة في لمح البصر، قبل أن تتبدّد شحنة الهاتف؟"

شباط/فبراير 2023

# أنقاض

تعلم أنّها على قيد الحياة. وحين سحبها المنقذون من بين الأنقاض شاهد العالم معجزتان. معجزة إنقاذها، ومعجزة الفتاة الجميلة الواثقة ذات الثلاثة عشر عامًا.

قبل هذا بساعات، حين عاد القصف الإسرائيليّ يمعن في دمار غزّة، سمعت دويّ الانفجارات. خطر ببالها أنّها يمكن أن تلحق ببعض معارفها إلى الموت بعد أن قضت عليهم آلة الإبادة الإسرائيليّة. تساءلت فيما إذا كان ذلك سيكون مؤلمًا، أم أنّها ستقضي دون أن تشعر بشيء. تساءلت أيضًا إن كان هناك عالم آخر، أم حياة جديدة كما صوّر لها مجتمعها.

لكنّها لم تتصوّر أبدًا، أو تحسب حساب اللحظات التي تكون فيها على قيد الحياة وهي تحت الركام. وجدت نفسها في معضلة كبيرة. وطرحت على نفسها أسئلة كثيرة.

أين أمّي وأبي وأخوتي؟ تنادي صراخًا، فتسمع بعض ردود. أصواتٌ مكتومة، لكنّها كافية لتؤكّد لها أنّ عائلتها لا زالت على قيد الحياة أيضًا. أو على الأقلّ هذا ما كانت تتوخّاه. وطبعًا تريد أن ينجو الجيران كلّهم. كلّ من سكن في تلك العمارة.

تتردّد في ذهنها أخبار من سمعت عن مفارقتهم الحياة في غارات مماثلة: الأعداد اليوميّة من النساء والأطفال لعمليّات بات واضحًا أنّها تستهدف الإبادة الجماعيّة.

تستحضر صداقتها مع بعض من رحل منذ أيّام. تستذكر التطلّعات التي كانت تلك الزهور المتفتّحة تتداولها في الأحاديث عن العائلة، ومستقبل الدراسة والتخصّص، والحبّ، والزواج، وخصوصًا تطوّر الجسم الأنثويّ وهنّ في هذا العمر. تستحضر المعاناة التي واجهتها نتيجة قلّة التغذية، ونقص أو فقدان معظم عوامل النظافة والعناية الجسميّة الحميمة: الماء

بشكل رئيس، والفوط الصحيّة. كادت تسأل نفسها لماذا خُلقت أنثى. لكنّها خنقت السؤال في مهده، فلطالما كانت راضيّة ممتنّة لحياتها في كنف عائلة محبّة. اعتبرت السؤال سخيفًا دون أن تدرك تمامًا لماذا.

صمت يخيّم للحظات، تتنفّس خلالها ما تيسر لها من هواء الجو القاتم الذي يحيط بها، وهي جاثية على الإسمنت المكسّر بين الحجارة والأخشاب وبقايا الأدوات المنزليّة. تخاف من الحراك الكثير خشية أن تُخَلْخِل الركام من حولها، أو هكذا خيّل لها. تخطّط في ذهنها ما عساها تفعل لو احتاجت لقضاء حاجة. تشعر بارتياح لأنّ دورتها الشهريّة لا زالت بعيدة.

جمهرة من المنقذين، أدواتهم تصميمهم وسواعدهم، تبدأ برفع الأنقاض حجرًا حجرًا، وتبحث عن أيّ كوّة أو مسلك بين الجدران المنهارة. وينادي واحدهم علّ ضحيّة تسمع، وترشده إلى البقعة التي يجب أن يركّز عليها في التنقيب.

استبشرت خيرًا حين وصل النداء إلى مسامعها، وبدا على أنّه كان على مسافة جدار. نادت لتدلّ على مكانها، فوجّه أحدهم ضوء مصباحه اليدويّ على الكوّة التي جاء الصوت منها. سألها السائل أن تصف الوضع الذي هي عليه، وما يحيط بها، وهو يهمّ بتوسيع الكوّة ليصل إليها. لكنّها، بالإضافة لظلام المكان، عدا بصيص نور يأتي من فراغات محدودة، والآن من شعاع المصباح، لم يكن هذا همّها.

نادت السائل بأعلى صوتها: "أرجوك يا عمّ، أرجوك، أرجوك، أرجوك، اِذهب وخلّص أفراد عائلتي أوّلًا، ثم تعال إليّ. أريد أن أكون الأخيرة. أرجوك، لا بدّ أنّهم بالقرب من هنا. أرجوك."

كانون الأوّل/ديسمبر 2023

# فليمِنْغتُن ماركِت

كثير من اللوحات الفنيّة يجذب المتفرّجين لجمالٍ في الشكل أو لعمقٍ في الموضوع. وكثير من الأحداث اليوميّة يصلح ليكون موضوعًا ناجحًا للوحة جميلة. وهنا أطرح السؤال التالي: كم لوحة من تلك اللوحات تمنّى المتفرّج أنْ يكون هو عنصرًا فيها؟

أعتقد أنّ سوق سيدني الشعبيّ الشهير، المعروف بسوق "فليمنغتن"، الذي يكتظّ أيّام السبت بالباعة والمشترين الذين يتداولون الخضر والفاكهة والأسماك ومتفرّقات أخرى، يصلح لإبداع مئات اللوحات.

وسؤالي الثاني: هل أريد التفرّج، أم أريد أنْ أكون داخل اللوحة، أم الاثنين معًا؟ أم تراني أحاول الرسم؟

السوق يطفح بأشكال وألوان ما تشتهيه النفس، وما يحتمله الجيب في هذه الأيّام العسيرة من تسعينيّات القرن العشرين، لما فيها من كثرة البطالة، وقلّة الدخل. ويعجّ السوق بصنوف البشر من تلك الأعراق والشعوب المختلفة التي تشكّل المجتمع الأستراليّ المتعدّد الثقافات. الجولة في أرجاء هذا السوق رحلة أمميّة مختصرة، لكنّها مليئة بالبهلوانيّات.

الخطوة الأولى تبدأ بعد أنْ يجد المرء مكانًا لإيقاف السيّارة. وبما أنّني لا أجد مانعًا من المسير قليلًا، أوقف سيّارتي عند أوّل مكان أجده حتّى لو ابتعد عن مركز السوق قليلًا. أبدأ بالمسير نحو السوق، فتصادفني حارات مليئة بالسيّارات عليّ تجاوزها. وعلى الرّغم من استعمالي الأماكن المخصّصة لعبور المشاة، لا بدّ من وجود سائقين حملوا معهم عادات بلادهم الأصل، فلا يتقيّدون بقواعد المرور، وبذلك يعرّضون حياة المارّة للخطر. أضف إلى ذلك عرقلة السير الناتجة عن التسابق على صفّ السيّارات في أماكن معينة، والخلافات الحادّة التي تنجم عن ذلك، فتسمع الشتم المتبادل بلهجة مألوفة، مفهومة أحيانًا، وغير مفهومة أحيانًا أخرى. هكذا يبدأ النهار.

أدخل حرم السوق فتطالعني أمواج البشر، ولا يتطلب الأمر وقتًا طويلًا حتّى أستنتج أنّ عليّ السباحة عكس التيّار في أيّ اتجاه اعتمدت، أو أيّ أعماق قصدت، والناس حولي كأسماك القرش تنهش من لحمي ومن كرامتي. فهذا قدمٌ يدوس على قدمي، وتلك عربة تدّك أوصالي دكًّا. لفافة تبغ تحرق ساعدي، دخانها يتسرّب إلى رئتي، رمادها يهطل على رقبتي. هذا طفل يعلق بين ساقيّ، وتلك سيّدة تصفع وجهي غلطًا، لأنّها كانت تخاطب صاحبها بالإشارة.

كلّ هذا وما سمعت كلمة اعتذار واحدة! ولهذا بدأتُ أشكّ بتصرّفاتي، أو على الأقلّ بسلامة مداركي وردود فعلي، خصوصًا أنّني كنت أنا أعتذر من أولئك الذين أصطدم بهم. كلّ هذا وما مضى على وجودي داخل السوق سوى ربع ساعة.

أتوجّه إلى قسم الأسماك، لكنّ المشكلة هناك أعظم! الازدحام أشدّ، والناس تتجمّع حول الباعة دون ترك المجال للآخرين. أدفع وأدافع، وأصل بجهد جهيد إلى غايتي. أشتري الأسماك، وأعود محاولًا شراء بعض الفاكهة حتّى "يحرز المشوار". وهنا تطالعني مشكلة جديدة: الحرب بين البائع والشاري. لا بدّ من "المفاصلة" في الأسعار، لأنّ الأسعار المدوّنة لا يتقيّد الباعة بها، وهذا نقيض الوضع العامّ في أستراليا. لكنْ على الأقلّ هناك تسعيرة يمكن الرجوع إليها، عدا حالة واحدة أصادفها كلّما كنت هناك. بائع برتقال لا يضع أيّ تسعيرة، تبيّن لي من ملاحظته أنّه يغيّر سعر الصندوق بمقدار عدد من الدولارات حسب شكل أو جنس الزبون. ولست بحاجة لأفصح لكم عن أصل هذا المواطن الشاطر. المهمّ أنّني تلافيت هذا البائع، وحاولت حمل ما أمكن من حاجياتي، وبدأتُ رحلة العودة إلى سيّارتي.

أتى المشترون إلى السوق مثلما هي حالهم حين يذهبون في نزهة إلى الحدائق العامّة. عائلات بأكملها: الأب والأمّ وما تيسّر لهما من أبناء كبار، ومراهقين صغار، ورضّع على السواعد أو في عربات. الجدّ والجدّة والعمّ والعمّة والخال والخالة، وما لحق ذلك وما تبع. فهذا أبو فلان يمشي مرحًا

يفصّص البذر وينّف القشر على من حوله وعلى الأرض، والابتسامة لا تفارق وجهه. وهذه أمّ فلان وقفت تقطع الطريق وهي ترعى شؤون رضيعها. وهذا رجل يبصق على الأرض، ثم يمسح فمه بكمّ قميصه. وهذا صبيّ يدفع عربة التسوّق بسرعة جنونيّة مصدرًا أصواتًا يقلّد فيها سيّارة أبيه مثقوبة العادم. والآن مفاجأة المفاجآت: صبيّة في العشرينيّات من عمرها تختال في حلّة من النوع الذي يصلح للسهرات الليليّة. هل ضلّت الطريق واختلط عليها الليل والنهار؟ هل تبحث عن عريس في سوق الخضار؟

الباعة أتوا إلى السوق وكأنّهم لازالوا في الفراش. أكثرهم لم يحلق أو يعتن بهندامه أو مظهره، على الرّغم من أهمّيّة ذلك في مهنة تتعاطى الغذاء، والتعامل مع الناس.

أضع مشترياتي في صندوق سيّارتي، وأنظر إلى ثيابي التي صارت بحاجة للغسيل والكيّ، لكنّي أدخل السيّارة مع شعوري بانزياح مشكلة عن صدري.

لو عدت مرّة أخرى، فسأعود بـ"لباس الميدان".

سيدني، 1994

# هذا العصر التِقانيّ

ثلاثون عامًا مضت على وجودنا في أستراليا، البلد الذي تبنّيناه وتبنّانا.

خلال هذه المدّة، شهدنا مع العالم تطوّرات هامّة في التقانة الحديثة، مثلًا انتشار الإنترنيت، ووسائل التواصل الاجتماعيّ، وأجهزة الموبايل، وغيرها من أجهزة تسهّل عمليّات نقل المعلومات بسرعة الضوء.

هذا الموبايل صار عشيقًا للناس كبارًا وصغارًا، قعودًا ووقوفًا، مشيًا، وفي حافلات النقل والسيّارات الخاصّة. يستعملونه أثناء القيادة، حتّى لو عرّض أصحاب هذا العشق المجنون للموت. ومع كلّ ميّزاته لا زال يحتاج للشحن الكهربائيّ.

وخلال هذه المدّة، انقطع التيّار الكهربائيّ عن مناطقنا مرّتين، وكلّ مرّة ما زاد الانقطاع عن ساعتين. وأسباب الانقطاع عوامل طبيعيّة قاهرة.

كان هذا صدمة إيجابيّة لنا نحن الذين قَدِمنا من بلاد كان انقطاع التيّار فيها حدثًا يوميًّا نتعايش معه كتعايشنا مع أيّ أمر عاديّ من أمور الحياة، رغم تذمّرنا الدائم، واستعداداتنا من المولّدات الكهربائيّة، ومصابيح البطّاريّة، والقناديل، والشموع.

مع بداية عطلة نهاية الأسبوع يوم 2018/12/15، شهدت سيدني عاصفة هوجاء أدّت إلى انقطاع التيّار في منطقتنا لمدّة ثلاثين ساعة متواصلة. زاد الطين بلّة أنّ الإرسال الهاتفيّ المحمول اختفى أيضًا. وبما أنّ أجهزة الهواتف الأرضيّة الموصولة بالأسلاك التقليديّة تعمل أيضًا على الكهرباء، على اعتبار أنّها حديثة وحمّالة لعدد من التطبيقات التي تزيد من فائدتها، لم يعد بإمكاننا الاعتماد عليها.

صدف أنّه سبق لنا دعوة حفنة من الأصدقاء صباح ذلك السبت على ترويقة دمشقيّة من "التسقيّة" وأخواتها. وبما أنّ لدينا وسائل تعمل على الغاز بغرض التسخين وغلي الماء، قرّرنا أنْ لا نلغي الدعوة. ومن حسن الحظ

أنّ من المدعوّين صديقة عزيزة تسكن في ضاحية مجاورة، علمت بالمشكلة فرأيناها تطرق بابنا منذ الصباح الباكر لتسأل إنْ كنّا بحاجة لشيء، خصوصًا أنّ منطقتها نجت من انقطاع التيّار. طلبنا إليها أنّ تُحضِر معها ما تستطيع من ثلج حين تأتي مع زوجها في موعد اللقاء.

كان لقاءً ممتعًا، على الرغم من أنّ غلي الماء مثلًا كان يستغرق على الموقد الغازيّ ضعف وقت الإبريق الإلكترونيّ، وكذلك تسخين الطعام بعدم وجود "الميكرويف". والطريف أنّنا نحصل على الماء الساخن من طريق الغاز أيضًا، لكنّ جهاز التسخين الذي يعمل بمجرّد سحب الماء، يحتاج إلى الكهرباء لإحداث الشعلة في الوقت المناسب. لا مشكلة: الوقت صيف، ويمكن الغسل والاستحمام بماء الصنبور.

بعد مغادرة الزوّار، بدأنا بالاستعداد للمساء. سبق أن تأكّدنا من وجود علب الكبريت حين استخدمنا الموقد الغازيّ صباحًا. ولكنْ هل لدينا شموع؟ بعد البحث والتنقيب، عثرنا على علبة للشمع الجيّد. كذلك استنفرنا ما لدينا من المصابيح المحمولة، التي تعمل على البطّاريّة، ووزعناها على مناطق استراتيجيّة بين طابِقَي المنزل عسى أنْ نحتاجها في الليل لتقصّي الأمور، خصوصًا أنّ شجرة هائلة سقطت فوق تعريشة الحديقة عند الجيران فطرحت سقفها أرضًا.

واحتمال حدوث المخاطر ذكّرني بضرورة الهاتف، فحتّى لو كانت إشارة الإرسال موجودة، لا بدّ بالنتيجة أنْ تنتهي شحنة الهواتف النقّالة. أسرعت إلى المِرأب أنقّب عن أجهزة الهاتف الأرضيّة القديمة التي لا تحتاج للكهرباء، والتي لم أعد أذكر إنْ رميتها أم أبقيتها. وجدت جهازين فوصلت واحدًا بالخط الرئيس، وتأكّدت أنّه يعمل. على الأقلّ بإمكان أولادنا الاطمئنان عنّا.

آه، شكرًا للشمعتين الباسقتين كنخلتين، المضيئتين كشمسين في عتمة تلك الليلة، اللتين أنارتا صفحات رواية "الياطر" للرائع حنّا مينة،

فتمكّنتُ من قراءة آخر مئتي صفحة وإنهائها. وشكرًا لوجود الرواية على ورق مطبوع.

ذلك اليوم جعلني أتأمّل كم نأخذ الأمور على أنّها مسلّمات وبديهيّات حين ننعم برفاهيّتها. وتذكّرت الشقاء الذي لا زالت تمرّ به المنطقة السوريّة من انقطاع في الكهرباء والماء، وغيرها من مشاكل الصّحة والنظافة. تساءلت ما يمكن أنْ يحدث لو أنّ أستراليا وقعت في حبائل ذلك التخلّف فجأة. واستنكرت في نفسي ما يقوم به الغرب من مشاركة في تدمير الشعوب، والدول الأخرى، وتركها فريسة للتخلّف والجوع والمرض والإبادة دون حاجة لذلك. لو حصل هنا ما يحصل هناك لما استطعنا الصمود.

لكنْ لنترك السياسة جانبًا ونرجع إلى التكنولوجيا.

ذلك الصباح اضطررت، لأوّل مرّة منذ أربعين سنة، أنْ أستعمل الشفرة التقليديّة في حلاقة ذقني، لأنّني طبعًا لم أتمكن من تشغيل آلة الحلاقة الكهربائيّة. لا شكّ أنّنا لا زلنا في عصر التقانة الانتقاليّ، ومن السابق لأوانه اليوم إلغاء الهاتف التقليديّ، أو الاعتماد الكلّيّ على الوثائق الرقميّة، والتخلّي عن الورقيّة. هذا لا يضرّني، خصوصًا أنّي لا زلت أفضّل قراءة الكتاب مطبوعًا على قراءته على شاشات الحواسب، والهواتف، وغيرها من عفاريت هذا العصر.

وإيّاك إيّاك أنْ لا يكون لديك شفرة حلاقة، إنْ كنت مثلي تحلق كلّ صباح قبل مغادرة غرفة النوم.

# ستة وماشي بالسبعة

تُقاطع الناظرة صفّ السنة الأولى ابتدائي، وتطلب إلى المعلّمة أن تسمح للطالب شاميّ مغادرة الصفّ لمدّة ربع ساعة.

شاميّ، الذي سيبلغ السابعة بعد أسبوعين، يقف حين تناديه المعلّمة، ويتبع الناظرة التي تمسك يده. تأخذه خارج الصفّ، وعبر ممرّ في الطبقة الأولى، إلى درج من الحجر الأسود، نزولًا إلى باحة المدرسة حيث يقفان أخيرًا أمام غرفة الحضانة. الأطفال في هذه الغرفة هم في سنّ السادسة عمومًا. وبعضهم من الأصدقاء المقرّبين إلى شاميّ، أو على الأقلّ أهلهم أصدقاء أهله.

قبل دخول الغرفة، تشرح الناظرة لشاميّ أنّه الآن سيختار من بين الأطفال من يريد دعوتهم لحفل عيد ميلاده. لم تكن لشاميّ أيّ فكرة كيف سيقوم بهذه المهمّة. ولم يفكّر أبدًا بأيّ إجراء مناسب، مثلًا كأن يعطي الناظرة الأسماء التي يريد. الذي حدث فعلًا جاء صدمة قويّة بقي تأثيرها على شاميّ مدى الحياة. وهو من الأمور النادرة التي يتذكّرها بوضوح من أيّام طفولته، بل لعلّها من أهمّ الحوادث التي ساهمت في تكوين شخصيّته والقيم التي يحملها. والآن يعتزّ شاميّ بأنّ ردّة فعله تجاه هذا الأمر كانت كيف كانت، وهو في ذلك العمر الغضّ.

يدخلان الغرفة. مجموعة من حوالي دزّينة من الأطفال تجلس حول طاولة خشبيّة، بيضويّة، بنّية اللون، وسط الغرفة. مجموعتان أخريان من الأطفال، أقلّ عددًا، جلست كلّ واحدة حول طاولة مستديرة، في زاوية من زوايا الغرفة. المعلّمة تأمر الأطفال بالوقوف تحيّة للناظرة. "صباح الخير آنستي،" يردّد الأطفال، ليس تمامًا بصوت واحد.

عندما يعود الأطفال إلى الجلوس من جديد، تحمل الناظرة شاميّ، وتضعه فوق الطاولة المركزيّة، ثم تسأله بصوت مرتفع أن يقوم باختيار من

يريد دعوتهم إلى بيته. يصاب شاميّ بهلع شديد، وحرج مديد. يتمنّى شاميّ أن تنشقّ الأرض فتبتلعه خجلًا من أولئك الذين لن يدعوهم. يعرف تمامًا أنّ هذا الأسلوب مغلوط، وأنّ الدعوة كان يجب أن تتمّ بطريقة أخرى. كان مدركًا لذلك تمامًا رغم صغر سنّه. يشعر بالعجز. يشير بيده إلى طفل ويلفظ اسمه، كما أتته أوامر الناظرة. يختار بعض الأطفال متجنّبًا النظر في وجوه الآخرين. يهرع للقفز من الطاولة، والركض نحو الباب. يريد الاختباء من عيون الأطفال الذين جرح مشاعرهم.

حفل عيد ميلاده السابع سيكون أوّل وآخر حفل عيد ميلاد يقيمه له والداه. عندما يفكّر الآن بالسبب، لا يجد الجواب. طبعًا الرقم "سبعة" مميّز تقليديًّا: سبعة أيّام الخلق، عجائب الدنيا السبع، سبع سموات ... وهو أيضًا العمر الذي يبدأ الأطفال فيه الدراسة الابتدائيّة.

يتذكّر ذلك الحفل بمعظم تفاصيله، أكثر من أيّ بهجة أخرى من أيّام طفولته. هذه الذكريات تأتيه واضحة كمشاهد من صور ساكنة، لا كتسجيلات فيديو متحرّكة. هل هذا سببٌ في تفضيله، الآن، تصوير اللقطات الساكنة مقارنة مع تسجيلات الفيديو؟

واحد من تلك المشاهد الملحّة هو مديرة المدرسة تجلس في صدر غرفة الاستقبال في منزل شاميّ أثناء الحفل. المديرة عانس، بدينة، وقصيرة القامة. ملامح وجهها حادّة، بعينين زرقاوين ثاقبتين، رغم نظّاراتها السميكة. ولربّما كانت الآن في أكثر حالات مزاجها استرخاءً، بيد أنّ مظهرها الصارم لا زال يحافظ على كلّ مقوّماته. حين يخاطبها الحضور، هي "وداد خانم". حتّى حين يخاطبها أقرب الأصدقاء إليها. مع العلم أنّه في ذلك الوقت كان الناس يتخاطبون بطريقة شبه رسميّة، و"ست" تسبق الاسم المخاطب حتّى بين الصديقات. أمّا حين تُخاطَبُ المديرة وداد، يرتفع المصطلح إلى مراتب أعلى! سلطتها تتجاوز تلميذاتها إلى أهلهنّ، خصوصًا أمّهاتهنّ.

صوت وداد خانم قويّ، ولكن لا يمكن وصفه على أنّه مدوٍّ. وهو صوت مميّز، لا يمكن خلطه مع أيّ صوت آخر. أولئك اللاتي يصلن إلى

الحفل، ولا يعلمن أنّها وصلت، يخفضن من أصواتهنّ لمجرّد سماعهنّ صوتها، حتّى لو كنّ في غرفة أخرى. كلّ الحضور في خشوع من حضرتها. تحاول كلّ أمّ أن تسأل المديرة سؤالًا ما حول تدبير شؤون الأطفال، أو حتّى الحياة. قد تكون الأجوبة معلومة للسائلات، لكنّ المقصد من السؤال إظهار المحبّة والولاء لأفضل العقول المتوفّرة بينهنّ: أوليست هي وداد خانم؟

وداد خانم لا تخيف شاميّ، ولا تسلّيه. يبدو أنّه كان غير مكترث بتلك الضجّة حولها أو بها، مع أنّ معظم تفاصيل ما يجري منها وبشأنها كان يتسجّل راسخًا في ذاكرته. كان يحتار دائمًا في ضعف كلّ الذين حوله، بما في ذلك والدته وعمّاته، تجاه وداد خانم.

لم يكن يعلم في ذلك الوقت إن كان صموده هذا نتيجة لعزمه، أم أنّه بسبب مكانة عائلته. عائلته من داعمي المدرسة الخاصّة التي كانت وداد خانم مديرتها. عمّ والده، الحاجّ عليّ، عضو في مجلس إدارتها، والخازن، والمشرف المباشر على المدرسة. عمليًّا هو رئيس وداد خانم، الذي لا رئيس غيره. ولمّا كانت المدرسة مدرسة بنات بشكل رئيس، ما كان يسمح لأيّ رجل أن تطأ قدمه أرض المدرسة وقت الدوام الرسميّ. الاستثناء الوحيد كان الحاجّ عليّ، المشرف، الذي كان يمكن رؤيته في مكتب المديرة في كثير من أيّام الأسبوع. الحاجّ عليّ أعْزب مزمن!

الاستثناءات الوحيدة لقبول الصبيان مع البنات، كانت صفوف الحضانة. واستثناءان، لا ثالث لهما، في الصفّ الأوّل الابتدائيّ، ألا وهما شاميّ وفاروق. فاروق ينتمي أيضًا إلى عائلة ثقيلة الوزن لها علاقة بالمدرسة. الصبيان في الحضانة عادة ينتقلون إلى مدرسة للصبيان حين يصلون إلى الصفّ الأوّل.

وداد خانم تستعرض حبّها وولاءها للعائلات المسؤولة عن دوام وظيفتها. وإنّه لمن أسباب خبرتها، وبدواعي حكمتها، أنّ الصبيّين المهذبين الرقيقين، شاميّ وفاروق، لا يستحقّان التعرّض لقسوة الصبيان بعد، وأنّ بقاءهما سنة إضافيّة في مدرسة البنات يصبّ في منفعتهما. سنة إضافيّة مع

"الجنس اللطيف"، تحت رعايتها، وإشراف المعلّمات، هو لا شكّ من صالح الطفلين برأيها. ويبدو أنّ عائلتي الطفلين لم يكن لديهما غضاضة في ذلك. لا أحد يعلم ما كان التفكير، أو حتّى الجرأة على التفكير، لدى العائلات الأخرى ممّن كان لها صِبيان لم تتلقّ الالتفاتة نفسها.

تشغل المدرسة مبنى بيت دمشقيّ تقليديّ الطراز العربيّ، بباحّة رئيسة في الوسط، محاطة بقاعات وغرف تنتشر على طابقين. وفي زاوية من زوايا الباحّة هناك ممرّ يقود إلى باحّة أخرى متواضعة الحجم، فيها قاعة واحدة، ومدخل ثانويّ للمدرسة يستعمل لتسلّم البضائع، ودخول عمّال الصيانة، ودرج يقود إلى الطابق الثاني من جهة مشغلٍ للخياطة والتطريز، يعتبر علامة المدرسة المميّزة بما يخرّجه من شابّات ضليعات من هذا المجال.

تحت الدرج، في هذه الباحّة الصغيرة، يوجد مرحاض "عربيّ" يمكن الوصول إليه بالصعود درجة واحدة. ليس للمرحاض نوافذ. بابه الخشبيّ سماويّ اللون، وله قسم زجاجيّ مصنفر، ومقفول دائمًا. إن كان الزجاج يكشف لنا ضوء المصباح، فهذا يعني أنّ المُستَخدِمة الوحيدة للمرحاض في داخله. وداد خانم هي الوحيدة التي تستعمل المرحاض، بأمر منها طبعًا. لديها مفتاحه، وتتجنّب استعماله عادة حين يكون الأطفال في الباحّة. هناك مرحاض آخر جانب مكتبها، ولكن يمكن التخمين أنّها تتجنّبه لأنّه يستعمل أحيانًا من قبل زوّار المدرسة. وداد خانم معروفة بهوسها الشديد بالنظافة والترتيب، خصوصًا ما يتعلّق بالصّحة العامّة.

ذات يوم، اتجه شاميّ وفاروق نحو الباحّة الصغيرة حيث يمضيان استراحتهما عادة في فسحة خلف البوّابة الثانويّة للمدرسة، بعيدًا عن ضجّة بقيّة التلاميذ. ولكن كانت يومها مشغولة من قبل تلاميذ آخرين. يقرّران الجلوس على العتبة العريضة أمام باب مرحاض وداد خانم. وبمجرّد أن يجلس شاميّ ويميل للخلف ليدعم ظهره بالباب، يرتَدُّ للخلف فينفتح الباب. يصاب بدهشة كبيرة، وربّما هي بصدمة شديدة، حين يلمح تلك الكتلة الضخمة من جانب فخذ وداد خانم العاري، وهي تجلس القرفصاء. ينهض

كالبرق، ويغلق الباب. سويًّا، مع فاروق المتفاجئ أيضًا، يهرعان إلى الباحّة الرئيسة. لا بدّ أنّ وداد خانم نسيت تأمين الباب بعد دخولها، أو أنّها اعتقدت أنّه لا يمكن لأحد أن يجرؤ على الجلوس على تلك العتبة. لم يسمعا من وداد خانم مباشرة، لكن في اليوم التالي تمّ التعميم على كافّة الطلّاب أنّه لا يسمح لأحد الجلوس على عتبة المرحاض لأيّ سبب كان.

الباحّة الرئيسة هي أكثر جهات المبنى تعديلًا، ولهذا البيت العربيّ تشويهًا. لن تجد فيها البركة بنافورتها المعهودة، ولا الأحواض الجانبيّة التي تحتضن النارنج والكبّاد والياسمين. أزيل كلّ ذلك لجعل الباحّة صالحة للهو الطلّاب بلا إعاقة، ودون مخاطر. استثناءٌ واحد هو شجرة نارنج يتيمة، تنتصب جانب باب مكتب وداد خانم الذي يطلّ على الباحّة. أمّا الباب الرئيس لمكتب المديرة فينفتح، في الجهة المقابلة، إلى فسحة تقع خلف بوّابة المدرسة الأساس.

مكتب وداد خانم يرتفع عن أرض الباحّة، ويمكن الوصول إليه بصعود درجتين عريضتين من الحجر الأسود. يمكن للمديرة وداد خانم أن تراقب معظم الباحّة وهي تجلس إلى منضدتها، ولكنّها غالبًا ما تجلس على كرسيّ تضعه بطريقة تمكّنها من مراقبة الباحّة بأكملها. وأحيانًا تُشاهَد مع صديقة لها، تلازمها، وهما تجلسان، تستمتعان بدفء شمس الشتاء، على كرسيّين من الخيزران في الباحّة، جانب مدخل المكتب مباشرة.

يمكن لكلّ الأطفال اللعب في هذه الباحّة، لكنّ صبيًّا واحدًا يتمتّع بامتياز خاصّ. يمكن لفاروق استعمال سيّارة حمراء تحتفظ وداد خانم له بها في أحد مستودعات المدرسة. كلّما عنّ على باله استخدامها أثناء الاستراحة، تقوم أم هادي، عاملة النظافة المقيمة في المدرسة، بإحضارها تاركة واجباتها الأخرى لتركّز على الإشراف على فاروق. الولد الوحيد الذي يشارك في هذا هو شاميّ، كلّما أذن فاروق. الأطفال الآخرون يراقبون فقط، ربّما بحسد، وغِيرة، وكبت، وربّما بغضب شديد.

لا يتذكّر شاميّ، اليوم، إن كان لديه وقتها أيّ شعور بالذنب تجاه الآخرين الذين كانوا يراقبونه يلهو بقيادة السيّارة الحمراء. لكنّه يتذكر أنّه لم يكن مرتاحًا كثيرًا. لم يشعر هنا شعوره حين كان فوق الطاولة يختار المدعوّين إلى بيته. ربّما كانت ملكيّة فاروق للسيّارة، وسلطته عليها هما ما جعلا شاميّ يشعر أنّه بريء من هذا الموقف.

شاميّ محبوب جدًّا من قبل كلّ معلّماته. معظم الوقت، أثناء الاستراحة في الباحّة، يلتصق بالآنسة بسمة، أثيرته، ويمشي معها حين تشرف على الطلّاب. أحيانًا ترمي بذراعها حول كتفه وهما يمشيان حول الباحّة. ينتهز الفرصة فيلتصق بها أكثر لـ"يشمشم" روائحها، التي عادة ما توحي بأروقة المستشفيات. الآنسة بسمة هي "الممرّضة بسمة" في المساء، وحين لا تكون في المدرسة. حين يكون ملتصقًا بها ما فيه الكفاية، يرفع رأسه نحو صدرها، ويشعر أنّه صدر غاية في الجمال. يفرك جبينه على قميصها القطنيّ الناعم.

يبدأ الأطفال، وبعض الأمّهات المدعوّات، بالوصول إلى الحفل. يحصل كلّ طفل على كيس مملوء بالحلوى واللعب المسليّة. وداد خانم تستقطب اهتمام الزوّار. لكنّ الآنسة بسمة توجّه عنايتها نحو تسلية الأطفال، والمساعدة في استلام الهدايا وترتيبها على طاولة إلى جانب غرفة الطعام. أمّا الطاولة الرئيسة فكانت مليئة بالطعام والفاكهة والحلويّات.

يتذكّر شاميّ العدد الكبير من الهدايا التي تلقّاها ذلك اليوم، لكنّه يسهى عن أيّ من الألعاب مارس مع رفاقه. أمّا ضجيج الصفّارات التي كان الأطفال يلعبون بها، وهي من جملة ما تلقّوه في كيس الهدايا، فلا زال عالقًا بذاكرته.

والدته وعمّتاه اهتممن بالضيوف، بتقديم الطعام والشراب بصورة مستمرّة. الخادمة، مريم، كانت تسعى بين طفل وآخر لتمنع سقوط الطعام، واندلاق الشراب على السجّاد العجميّ الذي يفترش أرض المنزل. شاميّ يلاحظ حبور أصدقائه وصديقاته بالطعام والحلوى.

شاميّ يرى كلّ ذلك، لكنّه لا يرى نفسه بوضوح بين الزحام. لا يتذكّر كعكة العيد، ولا الشموع. وفقط، حين تغادر الزائرات وأطفالهنّ، ويبدأ رجال العائلة بالحضور، يباشر هو بفتح الهدايا. يرى الآن نفسه بوضوح يحمل طائرة أحضرها له عمّه. ويحبّ هديّة أخرى: قطار كهربائيّ. وكانت هناك أشياء أخرى مثل السيّارات، والأحاجي، والمكعّبات، وأقلام التلوين، والكتب، والملابس. عدا عن طائرة عمّه، لا يذكر من أهداه ماذا!

تصبح أخبار الحفل على كلّ لسان في الحيّ والمدرسة. لم يسبق أن أقيم حفل كهذا لولد في السابعة في ذلك المجتمع حينها. وترتقي تلك السمعة بفضل شادية، ابنة عمّ شاميّ، وهي في الصفّ الخامس الابتدائيّ في المدرسة عينها.

كانت شادية كابوس وداد خانم الرهيب. شادية مثال الفشل الأكاديميّ. رسبت أكثر من مرّة خلال سنواتها الابتدائيّة، فصارت في الثالثة عشرة في صف أكبر الفتيات فيه لا تتجاوز الحادية عشرة. جسمها جسم امرأة ناضجة. ولا تشترك فقط باسمها مع واحدة من أهمّ نجوم السينما المصريّة، بل تشبهها شبهًا كبيرًا، وجهًا وجسمًا. أمّا صوتها فلم يكن بمستوى صوت شبيهتها، ولكنّ هذا لم يمنع من أن تكون رائدة المدرسة في المسرحيّات ومهرجانها السنويّ. هي سيّدة مسرح المدرسة، تقوم بتأليف، وإخراج، والمشاركة بتمثيل مسرحيّات المدرسة بعد أن تنقل الأفكار من أحدث الأفلام السينمائيّة التي تقوم بحضورها دون علم أهلها أو المدرسة. لديها زميلة تتشارك معها في التغطية على حضورها بالادّعاء أنّهما كانتا معًا تراجعان فروضهما المدرسيّة.

ظلّت شادية لأسابيع بعد الحفل تخبر زوّار والدتها، والأطفال الذين لم يحضروا، كيف أنّهم خسروا خسارة كبرى. وتخبرهم كيف كانت هي نجم الحفل، تغنّي وترقص أمام إعجاب الأمّهات والأطفال. شاميّ لا يذكر هذا أبدًا!

تقنع وداد خانم نفسها أنّ الحاجة لموهبة شادية المسرحيّة تطغى على مساوئها. صحيح أنّها تعاقب شادية على أشياء كثيرة، لكنّها تغضّ النظر عن أشياء أخرى. في كلا الحالين تتقن اللعبة بامتياز. تُري عائلة شادية أنّها المربيّة المهتمّة، دون أن تتجاوز حدودها في إغضاب ابنتهم المحبوبة.

تعلم شادية أنّها الرابحة، وأنّها يمكن أن تفعل ما تريد باللعب على هذين الحبلين المتعاكسين الملفوفين حول عنق وداد خانم. شاميّ معجب بتمرّد شادية، رغم أنّ شادية لا تبدي أيّ اهتمام بشاميّ. المديرة وداد خانم تنتظر نهاية العام بفارغ الصبر حتّى تتخلّص من شادية بسلام. عندها تذهب شادية إلى مدرسة إعداديّة، وينتقل شاميّ إلى الصفّ الثاني في مدرسة الصبيان. التقاؤهما بعد ذلك سيقتصر على الاجتماعات العائليّة.

حين انتقل شاميّ إلى الصفّ الثاني في مدرسة الصبيان المقابلة لمدرسة البنات، بدأ فصلًا جديدًا من حياته، لكنّه ظلّ لفترة على علاقة بمدرسة البنات. كلّ عصر، بعد انتهاء الدوام المدرسيّ، كان يقطع الشارع لينتظر أخوته الأصغر سنًّا، وحين يجتمعون يكون من حضر لاصطحابهم إلى البيت قد وصل. أثناء فترات الانتظار تلك كان أحيانًا يرى وجه وداد خانم بين جموع التلاميذ المغادرة. ربّما كانت تؤكّد حضورها أمام أهالي الطلّاب لتثبت لهم اهتمامها، مع العلم أنّ الكلّ كان يشهد بكفاءتها ويحلف بحياتها. يستغرب كثيرًا أنّه لا يذكر مطلقًا من كانت الناظرة، أو ربّما إحدى المعلّمات، التي وضعته فوق الطاولة ليغرق في بئر تأنيب النفس. لكنّه، من ناحية أخرى، يشعر أنّه مدين لهفوتها في نشوء وعيه، وصحوة فكره الدائم في التركيز على المساواة والعدالة الاجتماعيّة.

غادرت وداد خانم الحياة منذ أمد طويل. ومنذ مدّة أقرب، غادر بعض ممّن تشارك شاميّ معه الرحلة المدرسيّة. ومعظمهم لا زال مثله على قيد الحياة: منهم من بقي في وطنه الأصل، ومنهم من توزّع في أرجاء الأرض. منهم من لا زال شاميّ على اتصال معه، خصوصًا مع سهولة وسائل التواصل الحاليّة، ومنهم من انعدم معه التواصل.

يعلم شاميّ أنّ فاروق بخير، ويعيش في بلد غربيّ، لكن ليس بينهما أيّ تواصل.

الآنسة بسمة لا يعرف عنها شيئًا سوى أنّها تزور مخيّلته بين الحين والآخر، وحين تفعل تأتي بكثافة الحواسّ الخمس فتثير في نفسه عواطف حبّ سرمديّة، ومشاعر جنسيّة متأخّرة.

لكنّ أعمق المشاعر تطغى عليه حين يتذكّر وقفته على طاولة الصفّ البيضويّة. يستجمع في تلك الذاكرة الأساليب الاجتماعيّة السائدة بكلّ جهلها وبراءتها، بتعمّدها وعدم قصدها. الاستبداد، والنفاق، والتمييز بين الناس، وعدم التمييز بين المعطيات.

طيلة حياته بقيت معه ردّة فعله المستاءة من كلّ تلك الممارسات الاجتماعيّة دون أن يتخلّى عن محبّته واعترافه بفضل الجوانب الأخرى لمن كان يمارسها، وبعضهم من أقرب الناس إليه. لكنّه الآن فقط ربط بينها وبين تطوّر سلوكه الحياتيّ الذي جعل منه رجلًا مباشرًا صريحًا لا يجامل، ولا يخشى، فيما يعتبره الحقّ، لومة لائم.

لم تترك له أساليبه كثيرًا من الأصدقاء، لكنّه يفتخر بأنّه فكّر بتلك الشوائب المسلكيّة، التي يدّعي الناس أنّهم يريدون التخلّص منها، وهو لم يتجاوز السابعة.

# إسماعيل

فرحته كبيرة، هذا الصبيّ البريء الذي لم يتجاوز السابعة، حين جلبوا كبشًا صار حيوانه الأليف، الأوّل والأخير.

يعشق الصبيّ هذا الخروف. يودّعه صباحًا حين يغادر إلى المدرسة، ويسرع إلى لقياه حين عودته بعد الظهر، فيطعمه ويغنّجه ويحضنه بحنان كبير.

فرحة الخروف واضحة كلّما اقترب الصبيّ منه. ثمّة رابطة توثّقت بينهما.

ذات يوم، بعد ما يقارب الشهرين، يستفيق أهل البيت بحيويّة زائدة. الكلّ يرتدي ثيابه. يُحمَّم الصبيّ، ويُهنْدم، ويساعدونه على ارتداء ملابسه الجديدة. الكلّ متجه إلى بيت الجدّ في دمشق القديمة، على مسافة سير لا تتجاوز ربع الساعة.

الكبش ذاهب أيضًا.

يصغي الصبيّ إلى قصّة التضحية الكبرى التي قبل بها إبراهيم وإسماعيل في خضوعهما لإرادة الله. لكنّ مكافأتهما جاءت سريعة. ظهر لهما كبش ليكون الأضحية بدلًا عن إسماعيل.

الصبيّ يرتعد خوفًا على حياة أليفه الوديع، حين بدأ يفهم ما يجري من حوله بغموض. حائر عاجز. في ذهنه دون الواعي اعتراض على كلّ ما يجري. لا ينبس ببنت شفة.

إلى أرض ديار بيت الجدّ يصل لحّام العائلة، وهناك يذبح الكبش أمام من يريد المشاهدة. الصبيّ المشدوه يشاهد.

لا يأكل الصبيّ من لحم وجبة العيد. يردّد أنّه ليس بجائع.

"أضحى مبارك،" و"كلّ عام وأنتم بخير،" يتبادلون التهاني. الصغار يقبّلون أيادي الكبار. حلوى العيد.

يتصوّر الصبيّ أنّه إسماعيل. يتأمّل في هذا المأزق. هل القضيّة أنّه إمّا هو أو أليفه؟ هل هو أكثر سعادة الآن؟ مرتبك، وليس لديه أيّ جواب.

لم تترك هذه الحادثة تفكير الصبيّ، لكنّ النظر إليها بعين وعيه تطلّب مرور سنين.

الآن لديه كثير من الأجوبة التي لا يحبّ سماعها سوى القليل من الناس.

# طريقي الكَبير
# إلى العيد الصَغير

يحمل إليّ الأسبوع الأخير من شهر رمضان في أواخر الخمسينيّات وأوائل الستينيّات من القرن المنصرم ذكريات منقوشة في عمق فلسفتي الاجتماعيّة. تعكس هذه الذكريات أحداثًا أثّرت في تشكيل بنيتي الثقافيّة ومنهجي السلوكيّ.

أتيحت لي الفرصة، وأنا طفل، أنْ أتعلّم عن الحبّ والتعاون والإدارة والاحتفاء بالنعمة التي نحن فيها، مباشرة من أشخاص مقرّبين كانوا قدوة في "مكان العمل" الذي بدا لي مغريًا جدًّا. عشت بامتياز لدى أسرة متمكّنة في مدينة سرمديّة: دمشق!

كان كلّ يوم من أيّام الأسبوع الأخير من رمضان بهجة أتنعّم بها في منزل الجدّ والجدّة، مكان ولادتي، في دمشق القديمة. ذلك البيت الدمشقيّ، العربيّ الطراز، يشكّل جزءًا من روحي وجسدي.

كنت أذهب لأبيْت مع الجدّ والجدّة والعمّ والعمّتين بدل الرجوع إلى بيتنا بعد انتهاء الدوام المدرسيّ. كانوا حين يحين موعد الإفطار، عند الغروب، يتناولون طعامهم الذي يتضمّن عددًا من المقبّلات الرمضانيّة والمشروبات المحلّيّة مثل السوس والتمر هندي.

كلّ ليلة، حين أذهب للنوم، كنت أترقّب بشوق انقضاء الليل سريعًا لأستقبل السحور. لم تكن تهمّني وجبة السحور بكلّ مغرياتها، بل النشاطات التي كانت تمارس خلال ذلك الوقت، ومن ضمنها إمكانيّة أهل البيت تذوّق ما يعدّون من الحلوى الأساس في احتفالات العيد.

عمّتي الأكبر درّيّة، وشقيقتها الأصغر عائدة كانتا المحرّك الفعليّ لعمليّات التحضير للعيد. وكانت درّيّة قائدة العمليّات ولو بصورة غير

مباشرة. الآخرون، بما في ذلك جدّتي، كانوا مساعديها. هذا لا يعني أنّ جدّتي، صاحبة الخبرة الأكبر، لم تكن تبدي رأيها وتعطي توجيهاتها. أمّا عمّي، فيستيقظ وينفّذ ما تمليه عليه العمّتان.

تمّ تكليفي بأعمال رمزيّة، رغم حماسي الشديد لأقوم بما يقوم به الآخرون. نعم، سمحن لي بتذوّق منجزاتهنّ، وادّعَيْن بأخذ رأيي. كان جدّي يتناول سحوره، ويقرأ القرآن بانتظار موعد صلاة الفجر.

عمّتي درّيّة، التي تدلّلني أيّما دلال، هي من يسرع لإيقاظي من أجل السحور لعلمها أنّ هذا ما يسعدني. كنت استيقظ على صخب الصواني والأوعية والأدوات المطبخيّة. صخب لا يطغى عليه سوى السجال الحادّ بين النساء الفَطِنات حول ما يجب إضافته من هذا أو من ذاك.

بيد أنّ أهمّ حافز لي على الاستيقاظ كان رائحة الموادّ المستعملة في تحضير عجينة وحشوة الحلويّات الدمشقيّة المميّزة التي تقدّم في العيد كتقليد عريق. السمن الحمويّ (البلديّ)، ماء الزهر، والسّكر، والفستق الحلبيّ، والجوز، والتمر، هي من أهمّ هذه الموادّ. حين يبدأ عرك العجينة بالسمن الحمويّ تبدأ الروائح الشهيّة بالانتشار.

تمدّد العجينة وفيها الحشوة ضمن قوالب خشبيّة من أشكال مختلفة لتمييز كلّ نوع من الحلوى: معمول بالفستق، معمول بالجوز، أقراص بالتمر ... يُطرق القالب على منضدة فيخرج الوليد الصغير وعلى ظهره نقوش القالب، ثم تصفّ الأقراص وفق مسافات مناسبة، بين الواحد والآخر، على طول وعرض صينيّة سوداء كبيرة.

بعد صلاة الصبح، يقوم عمّي هاني برفع الصينيّة على رأسه، ويدعمها بكلتي يديه، ويمشي بها مسافة مئتي متر إلى فرن الشاويش في منطقة القيمريّة المتاخمة. كنت أتبعه، وأراقب عامل المخبز وهو يساعده في إنزالها ووضعها على منضدة، ثمّ يتّفقان على موعد يعود فيه عمّي لإحضار الحلوى المخبوزة إلى البيت الذي ينتظرها بفارغ الصبر.

# مُفارَقات بوليسِيَّة

اتجهت بسيّارتي لبنانيّة التسجيل نحو منطقة "سبع بحرات"، في أحد أيّام شهر آب 1976، وانعطفت داخلًا "شارع العابد" بالطريقة نفسها التي اتّبَعها آلاف الدمشقيّين طيلة سنين عديدة. وقفت دوريّة من شرطة المرور عند مدخل الشارع تقوم بواجبها في الحفاظ على تنظيم السير، وسلامة المواطنين. أسعدني حضورها هذا، خصوصًا أنّني أمضيت حتّى ذلك الوقت ثماني سنين من القيادة بين لبنان وسوريا دون مخالفة واحدة.

توقّفت بسيّارتي في شبه ساحة صغيرة في منتصف الشارع، وهذا عين ما قمت به مرّات عديدة خلال الأسبوعين السابقين، أتبضّع من أحد المحلّات هناك ما يلزمني من أدوات لتجديد غرفة نومي التي نويت قضاء أوّل ليلة من زواجي فيها، بعد يومين اثنين فقط.

أمسكت بيد ابنة صديق لي كان يزورني من لبنان، أحببت إحضارها معي في نزهة صباحيّة، ودخلنا المحلّ. اشتريت حاجياتي، ولازالت الساعة التاسعة والربع صباحًا. انطلقت بالسيّارة عائدًا بعد استدارتي في تلك الساحة، أيضًا كما فعلت في مرّات سابقة، ووصلت إلى مخرج الشارع حيث لازالت تقف دوريّة الشرطة.

أشار إليّ شرطيّ شابّ أسمر، برتبة ملازم، بالتوقّف فتوقّفت. حضر طالبًا أوراقي فسلّمتها له. أخذها وابتعد ليتوقّف على ما يشبه الرصيف في وسط الشارع، وبدأ يكتب.

ظننت بادئ ذي بدء أنّه يتحرّى أمر السيّارة، لأنّ دمشق كانت في تلك الفترة مليئة بالسيّارات اللبنانيّة المسروقة، أو التي لا تحمل أوراقًا قانونيّة. بدأت الصغيرة تبكي، فطيّبت خاطرها، وخرجت من السيّارة متّجهًا نحو الملازم أسأله عن طبيعة المشكلة.

لم يستجب الملازم إلى تساؤلي، وواصل كتابته دون أنْ يتكلّف النظر إليّ مطلقًا. سألته مرّة أخرى، بمنتهى الأدب واللباقة، عن ذنبي الذي اقترفت، لكنّه لم يغيّر من شأنه أبدًا. سألته للمرّة الثالثة قائلًا: "يا أخ! أنا بشر مثلك، فهل تتكرّم وتخبرني ما هو الذنب الذي ارتكبته؟" أمسك الملازم أوراقه كلّها بيد، واتجه نحوي بيده الثانية، وأمسكني بما استطاع القبض عليه من قميصي، ثم دفعني بكلّ ما أوتي من عزيمة وهو يقول: "روح يا حمار، يا ..."

ارتددت إلى الخلف حتّى اصطدم ظهري بسيّارتي، ولقد أذهلني تصرّفه الذي لم أجد له تفسيرًا حتّى يومي هذا. من حسن حظّي أنّ درجة الذهول كانت عظيمة بحيث شلّتني عن الإتيان بأيّ حماقة سوى تقريعه بأعلى صوتي وتأنيبه على فعلته، والصغيرة تزداد بكاء في السيّارة، حتّى سمع صياحي رئيسه، النقيب، الذي حضر يسألني عن المشكلة. أخبرته الحكاية كما حصلت، فنظر إلى الملازم وسأله عمّا إذا كان كلامي صحيحًا. نفى الملازم ذلك، وحين قلت للنقيب إنّ الملازم يكذب، قال النقيب لي: "ولا يهمّك. إذهب إلى مقرّ الشرطة العامّ، الساعة الواحدة بعد الظهر، لنعطيك أوراقك." شكرت النقيب، وسألته أنْ يتكرّم فيخبرني عن ذنبي الذي اقترفت. قال إنّي حضرت في اتجاه ممنوع. قلت وكيف ذلك وأنا استدرت في الساحة دون أنْ يكون فيها إشارة "ممنوع المرور"، أو سهم "اتجاه إجباريّ"؟ قال إنّ الإشارة هي في نهاية الشارع، بعد الساحة بكثير، وبما أنّ القرار بمنع المرور في هذا الاتجاه سرى مفعوله اعتبارًا من الساعة السابعة ذلك الصباح، لم تتح الفرصة بعد لإتمام وضع كلّ إشارات المرور في أماكنها المناسبة. قلت في نفسي إنّ النقيب قدّر وضعي، ولا شكّ أنّه صادق في مسألة إعادة أوراقي دون مشكلة بعد ظهر ذلك اليوم.

عدّت إلى المنزل، وسلّمت الصغيرة إلى أبيها، وسارعت إلى الهاتف أستشير شقيق خطيبتي في هذه المسألة، ذلك أنّني تركت دمشق بعد تخرّجي من المدرسة، وما كنت متضلّعًا من الحياة العمليّة فيها، على الرّغم من شهادة الماجستير التي أحملها وأفتخر بها في ذلك الوقت.

ضحك صاحبي كثيرًا حين أخبرته عن إمكانيّة إحضار الأوراق من مقرّ الشرطة، وقال إنّ القرار الذي صدر اليوم يقضي بمصادرة رخصة القيادة، والسجن لمدّة شهر، ودفع غرامة ماديّة. قلت له: "لا بأس، هذا يعني أنّك ستصاهر خرّيج سجون!" قال: "طبعًا لا، والحلّ عندي. أُحْضُر إلى دكّاني، وسنذهب سويًّا إلى مقرّ الشرطة العامّ."

علمت من صاحبي، ونحن في طريقنا إلى مقرّ الشرطة، أنّ القائد المسؤول عن العمليّات ذلك الصباح يتردّد على دكانه بين الحين والآخر، ويأخذ مايلزمه من أدوات المطبخ، فيقدّمها صاحبي هديّة له. سكتُّ، على الرّغم من رفضي الضمنيّ لتلك الأساليب، لكنّي كنت مدركًا أنّ الحلّ الوحيد لتلك المشكلة، وإنصافي، هو ذلك الأسلوب الملتوي.

دخلنا القاعة التي كان الضابط المسؤول يستقبل فيها المراجعين (من أصحاب النفوذ والوساطة). كانت تغصّ بالوجهاء والأعيان، من رجال دين، وتجّار، وموظّفي دولة. حضروا جميعًا لأغراض تشبه غرضي، ما يدلّ على حجم المشكلة التي نزلت على المواطنين نزول الصاعقة في يوم لا غيم فيه.

انتهزت الفرصة لآخذ من بعض ثأري، وعرضت القضيّة على المسؤول بصوت مرتفع، ناقلًا الألفاظ نفسها التي أهانني الملازم بها. احمرّ وجه الضابط، وتلوّن بألوان أخرى، وقال إنّ هذا غير معقول، لأنّ دفعة الملازمين هذه كلّها من خريجي الحقوق، تمّ اختيارهم كذلك لتعليم المواطنين على أصول السير واحترام القوانين. قلت له إنّ جريمته مضاعفة إذًا، لأنّ خريج الحقوق يجب أنْ يكون مهذّبًا مع الناس، ومعي، حتّى لو كنت مسؤولًا عن الغلط الذي وقع. واصل تبريره بالقول إنّ رجال الشرطة تمّ كبتهم فترة طويلة، والآن أغدقت عليهم بعض الحرّيّة في تطبيق القانون، فلا بدّ من حصول بعض الملابسات. تعجّبت من ذلك المنطق، لكنّ صاحبي بادر إلى الكلام شاكرًا الضابط على حسن استقباله، وأنّنا رهن إشارته. أمر الضابط شرطيّه بإحضار أوراقي التي استلمتها دون إشكال.

تمّ العرس في اليوم المحدّد، واستعملت سيّارتي في الذهاب "أسبوع عسل" إلى منطقة اللاذقيّة الجميلة.

بعد شهرين من تلك الواقعة، غادرت مع زوجتي إلى بريطانيا لمتابعة تحصيلي العالي ونيل الدكتوراه في العلوم. ولقد ارتحت لنظام السير في بريطانيا، خصوصًا أنّني بطبيعتي أحبّ التقيّد بالنظام. أمضيت في بريطانيا عدّة سنوات مارست فيها القيادة في مدنها الكبيرة وأريافها دون مخالفة واحدة.

بعد مرور سنتين على وجودنا في بريطانيا، اتجهت مع زوجتي في صباح أحد أيّام السبت إلى مركز المدينة، كما هي عادتنا معظم أيّام السبت، للتبضّع. كنّا دائمًا نجتاز بسيارتنا شارعًا عريضًا ذا اتجاهين، يفصل بين شارعين متوازيين. دخلت الشارع بهدوء لأنّني أردت إيجاد بقعة خالية لإيقاف السيّارة. بيد أنّي فوجئت بأن شرطيًّا يزيد عمره عن خمسين سنة، وتقل رتبته عن رتبة الملازم بدرجات، يمشي وسط الشارع مرحًا مترنّمًا، يغنّي ابتهاجًا، وقد أدار ظهره إلينا.

أوقفت السيّارة خلفه، فاستدار بهدوء وتقدّم مبتسمًا باتجاه نافذتي التي فتحتها لمعرفة ما يريد. أشار بيده إلى مدخل الشارع خلفي دون أنْ ينطق بحرف. استدرت برأسي فوجدت على كلّ طرف من طرفي الشارع إشارة "ممنوع المرور" بثلاثة أضعاف حجمها العاديّ. قلت للشرطيّ: "يبدو أنّي دخلت الشارع غلطًا بحكم العادة. فهذا الاتجاه كان مسموحًا الأسبوع الماضي." أجاب: "نعم. هذا صحيح! ولذلك تراني هنا لأدرّب الناس على التقيّد بهذا التغيير الجديد الذي سرى مفعوله منذ خمسة أيّام فقط." قلت له: "وهل أستطيع الرجوع؟" قال: "إذا تكرّمت يا سيّدي."

# مُفارَقات مَاليَّة

قالوا إنّ من حقّنا زيارة الوطن على حساب البعثة مرّة واحدة خلال مدّة الإيفاد، لذلك حين مضى نصف مدّة إيفادي إلى بريطانيا للحصول على الدكتوراه، قرّرنا زيارة الأهل في دمشق في صيف عام 1978.

اتصلت بالسفارة السوريّة في لندن آملًا الحصول على بطاقات السفر، لأنّنا وصلنا إلى مرحلة بالكاد نملك فيها جنيهًا واحدًا، إذ لم يصل راتبنا منذ أشهر، دون أنْ نعرف سبب ذلك، فنحن تحت رحمة الملحق الثقافيّ في السفارة، الذي يستلم ويوزّع رواتب المنح الدراسيّة.

قالت لي السيّدة التي ردّت على الهاتف إنّ الملحق الثقافيّ السابق، الذي انتهت مهمّته، أخذ معه ما تبقّى من أموال لتصفية الأمور في دمشق قبل مجيء الملحق الجديد. وحين سألتها ما الذي يمكننا فعله والحال كذلك، وما هو مصير الرواتب غير المدفوعة منذ شهور، قالت لي: "والله يا أستاذ لو معي نقود لأعطيتك." صدمني هذا المنطق السخيف الذي يصل إلى حدّ الإهانة، لكنّني أدركت أنّ تلك الموظّفة جاهلة، ولا بدّ أنّها حصلت على وظيفتها بالواسطة. وتيقّنت أنّ تلك السفارة عاجزة عن تقييم الوضع وتصحيحه، وأنّه لا بدّ أنْ أشتري البطاقات بنفسي، ثم أستردّ حقّي.

المشكلة أنّنا كنّا فعلًا دون نقود، بعد توقّف الرواتب عدة أشهر، وزوجتي حامل وفي حاجة كبيرة لزيارة الأهل، كما أنّ أهالينا كانوا يعوّلون على تلك الزيارة الموعودة. فكّرت أنّ الحلّ قد يكون من طريق لم أسلكها سابقًا، لأنّنا من ثقافة لا تحبّها، ألا وهي الاستدانة. توجّهت إلى المصرف البريطانيّ الذي نتعامل معه، وهو المصرف الذي يردنا الراتب عادة من طريقه، وليس لدينا معه أيّ معاملات أخرى. وطبعًا كنت أتوقّع أنْ أعود من حيث أتيت، إذ ما الذي سيجعل هذا المصرف يسلّفني ثمن بطاقتَيْ طائرة، ونحن نغادر البلاد؟ ما هو ضمان رجوعنا؟

حين تحدّثت إلى موظّف المصرف، أصابته الحيرة، وقال إنّ هذه القضيّة يجب أنْ تحال إلى المدير. قلت في نفسي إنّ القضيّة واضحة: لن نحصل على أيّ قرض، ولن نسافر.

بعد حديثي مع الموظّف انتظرت خمس دقائق لا أكثر، حضر بعدها المدير ودعاني إلى غرفته. شرحت له الأمر، وبعد خمس دقائق أخرى خرجت مع الموافقة على كلّ المبلغ الذي طلبته!

حين وصلنا إلى دمشق، توجّهت إلى مصرف سوريا المركزيّ للاستفسار عن أموال البعثة التي توقّف إرسالها إلينا منذ شهور، ومن حسن الحظ أنّ لي قريبًا يعمل في ذلك المصرف، وهو من الموظّفين المرموقين. أخذني إلى القسم الذي يتعاطى مسائل الإيفاد، فتبيّن لنا أنّ كلّ أموال الموفدين كانت ترسل بانتظام، ولم تتوقّف أبدًا كما كانت السفارة تدّعي. وقيل لنا إنّ التفسير الوحيد لذلك هو أنّ الملحق الثقافيّ (أو من هو مسؤول عن تلك الأموال) كان يحتجز الأموال لديه لمدّة أشهر قبل أنْ يدفع الرواتب. حين سألت عن سبب ذلك، ضحك قريبي وموظّف المصرف المركزيّ، وقالا لي: "فهمك كفاية!" هنالك عشرات الموفدين، فإذا احتفظ شخص بتلك الأموال لديه في المصرف، كانت الفائدة التي يجنيها تزيد عن راتبه، بغضّ النظر إنْ ترك الطلّاب عرضة للعوز والمهانة. بالنسبة إليه، "الملحق الثقافي" وظيفة تجاريّة، وليست لها علاقة بالثقافة والأخلاق. ويبدو أنّه على حقّ، لأن الإشاعات تسرّبت فيما بعد أنّ أحد موظّفي السفارة بقي في بريطانيا، وصار يملك فندقًا في وسط لندن.

# قَيْدُ نُفُوْس

عدت إلى الوطن عام 1981، ومعي زوجتي، وابنتان، وشهادة الدكتوراة التي حصلت عليها من بريطانيا، وكنت مليئًا بالفخر والاعتزاز أنّي عائد لأسهم في تطوير البلد الذي طالما خفق قلبي له منذ الولادة في دمشق. كان من أهمّ ما يدعو إلى اعتزازي هو أنّي رفضت عرضًا مغريًا للعمل والبقاء في بريطانيا حتّى قبل الحصول على الدكتوراه، لكنّي اعتذرت لمن عرض عليّ ذلك العمل، وقلت إنّي أودّ العودة لخدمة بلدي.

حرصت على أنْ أنجز معاملاتي بسرعة لألتحق بمركز عملي المقرّر، وأرتّب أمورًا أخرى، بما في ذلك التحاقي بالمدرسة العسكريّة لأداء خدمة العلم الإجباريّة. ولا بدّ من الحصول على وثيقة "قيد نفوس" من دائرة الأحوال المدنيّة، لأنّها أساس لكلّ المعاملات.

توجّهت إلى شعبة دائرة السجلّ المدنيّ الخاصّة بمكان قيدنا، فوجدتها مكتظّة بطوابير المراجعين، لكنّي استرحت لمّا رأيت الناس تصطفّ وتنتظر دورها على الأقلّ. تبشّرت بالخير حين وجدت منضدة عليها نسخ من استمارات قيد النفوس، ولافتة تشير إلى ذلك، كما رأيت كلّ مراجع يسحب استمارة ويصطف بدوره. شعرت أنّ هذا تطوّر كبير عن آخر مرّة سبق لي خلالها زيارة هذا المكان، قبل خمس سنوات، حين كان المراجعون يتزاحمون أمام الكوّة التي تشكّل منفذهم الوحيد إلى التعامل مع الموظّف الذي كان وجهه يظهر وراءها، وكان يصل إليه أوّلًا من دافَع ونَهَر وسرق دور غيره.

سحبتُ إحدى الاستمارات، واصطففت في أحد الأرتال، وبدأتُ أدوّن المعلومات المطلوبة، إلى أنْ وصلت إلى خانة تشير أنّها للاستعمال الرسميّ، وهي ما سيثبّت فيها رقم السجلّ ومكانه بعد تدقيق القيود، ويتمّ عليها الختم والتواقيع الرسميّة. طبعًا حتّى ذلك الحين كانت تلك الوثائق تُملأ كتابة بخطّ اليد، أي لا تستعمل الآلة الكاتبة، ولم يكن الحاسوب قد دخل إلى تلك

الدوائر. كنت سعيدًا لاعتقادي أنّني سهّلت مهمّة الموظّف، ووفّرت بعض الوقت لنفسي، وللآخرين، لأنّ استمارتي جاهزة.

وصلت إلى نافذة الموظّف بعد انتظارٍ زاد عن الساعة. حيّيته، فردّ علي دون اكتراث، بل بمسحة من العنجهيّة، لكنّها لم تكن شيئًا يذكر مقارنة مع ما قام به حين سلّمته الوثيقة. نظر إلى الوثيقة فاستشاط غضبًا، ونهض من على كرسيّه وخبط بيده، التي تحمل الوثيقة، على الطاولة بعنف اهتزّت له أرجاء المكان، والتفت إليّ قائلًا: "يا كلاب، يا حمير، كم مرّة قلنا لكم أنْ تتركوا الاستمارة لنا لندوّن المعلومات فيها؟ العمى شو ما بتفهموا!"

أذهلني تصرّفه، لأنّني حتّى لو اقترفت ما لا يرغب، ليس هذا هو أسلوب التعامل مع الناس. إذا لم يريدوا من المواطن أنْ يملأ الاستمارة، لماذا عرضوها على المنضدة بمتناول اليد، دون تنبيه إلى وجوب عدم تدوين أيّ شيء فيها؟ كان بالإمكان أنْ يحتفظ الموظّف لديه بهذه الاستمارات لينجز كلّ شيء بنفسه.

وبّخت الموظّف على قلّة أدبه، وارتفع صوتانا لأنّه ازداد وقاحة، إلى أنْ حضر مدير السجلّ ودعاني إلى مكتبه. هناك حضّر لي وثيقة كاملة، وختمها، وسلّمها لي معتذرًا. فهمت من سياق كلامه أنّه عاجز عن توجيه موظّفيه لأسباب لا تخفى على أحد كما قال!

سيدني، 1993

# تَحليق

## 1

ودّعت زوجتي في مطار مدينة ملبورن، حيث كنّا نقيم عام 1989، إذ كانت مغادرة في زيارة إلى دمشق لإنهاء بعض الأمور العمليّة والماديّة بعد قرارنا الاستقرار في أستراليا. وعلى الرّغم من أنّه لم يمض على وجودنا هناك سوى أقلّ من سنة واحدة، كانت زوجتي سعيدة لزيارة الأهل الذين ترك فراقها لهم أعظم الأثر في نفوسهم ونفسها، كما هي حال كلّ من غادر لأكثر من مجرّد السياحة.

حرصنا، كعادتنا، على أنْ يكون الحجز مضمونًا تمامًا في كلّ مراحل الرحلة التي كانت على متن "الخليجيّة" من طريق البحرين. أي أنّ الطائرة تتّجه من ملبورن إلى المنامة، وهناك يقضي المسافر ليلتين قبل استقلال طائرة الخطوط السوريّة إلى دمشق. وكنّا نعلم أنّ أيّ تغيير في المواعيد قد يعني تأخر الوصول إلى دمشق لمدّة تزيد عن اليوم، بسبب عدم توفّر الرحلات الواصلة بين البحرين ودمشق في ذلك الوقت.

طبعًا، ليلتان في البحرين كانتا مشكلة لكلّ المسافرين، لكن هذا ما كان متوافرًا في ذلك الوقت للوصول إلى دمشق بطريقة وسعر معقولين. ولم تكن هذه بالذات مشكلة لنا، لأنّ في البحرين عائلة من أعزّ أصدقائنا، رتّبت زوجتي أمر إقامتها معها على الرّغم من أنّ شركة الطيران تؤمّن المبيت للمسافرين مجّانًا.

كان لقاء زوجتي مع تلك العائلة التي سبق أنْ قضينا معها فترة خمس سنوات في بريطانيا في المدينة نفسها، والجامعة نفسها، لقاءً حميمًا بعد افتراق أكثر من ثماني سنوات. وبعد يومين من الاستمتاع بذلك اللقاء والتعرّف إلى المدينة، قام أصدقاؤنا بإيصال زوجتي إلى المطار، فكانت هناك

قبل ساعة ونصف من الموعد المحدّد لإقلاع الطائرة.

دخلَتْ إلى المطار مرتاحة مستبشرة، ولم يكن على بالها سوى الإزعاج الذي ستسببه لذويها وأصدقائها الذين سيكونون في انتظارها في مطار دمشق بعد منتصف الليل، خصوصًا أنّ والدها المسنّ المريض أصرّ على أنْ يستقبلها في المطار. ولمّا وصلت إلى قسم المغادرة كانت تنتظرها مفاجأة كبرى: قيل لها إنّ الطائرة السوريّة غادرت منذ عشر دقائق، أي قبل موعد الإقلاع بأكثر من ساعة. وحين سألتْ كيف يمكن أنْ تغادر الطائرة قبل الوقت المحدّد بأكثر من ساعة، أحضروا لها المسؤولة عن شركة الطيران التي أفادت بأنّه حينما لم يجدوا زوجتي في عداد من حضر إلى الفندق، اعتبروا أنّها لم تحضر، وأعطوا الأمر بإقلاع الطائرة طالما أنّ عدد ركّابها اكتمل!

## 2

بعد سنتين من وجودنا في بريطانيا، وأنا أتابع تحصيلي العلميّ في بعثة دراسيّة، قمنا بزيارة لدمشق عام 1978، وكانت زوجتي حينها حاملًا في شهرها السابع. فرحة الأهل كانت كبيرة طبعًا، وكنّا في غاية السعادة التي يشعر بها المرء وهو في كنف دمشق بحفاوتها وياسمينها وحبّها. وكان لا بدّ من العودة إلى مهمّتنا بعد أسابيع قليلة، فانطلقنا مع حشد من العائلتين والأصدقاء المودّعين إلى المطار. بطاقات الطائرة مدفوعة بالكامل، على حساب البعثة كجزء من شروط الإيفاد الذي يُلزمني بعد الحصول على الدكتوراه بالعمل لدى الدولة (الشعب السوريّ) إلى أجل معيّن، ولذلك كان لا خيار لنا سوى شركة الطيران العربيّة السوريّة، وهذا فخر لنا طبعًا، ولكن ...

وصلنا إلى المطار، وبعد الوداع وإجراءات المغادرة الرسميّة، علمنا أنّ الظروف الأمنيّة تقتضي أنْ يصطفّ المرء في طابور يتوجّه بعده لحمل أمتعته بنفسه ووضعها في حاوية تنقل المتاع إلى الطائرة مباشرة، ويتوجّه الشخص بعد ذلك إلى سلّم الطائرة، وكلّ ذلك يحصل على أرض المطار تحت لهيب شمس الصيف.

دفعني حرصي على زوجتي أنْ أنتبه إلى تحرّكات المضيفات، وأرصد لحظة الإعلان عن بدء الاصطفاف الأوّليّ داخل مبنى المطار، قبل الخروج للتعرّف إلى الأمتعة المرميّة على أرض المطار، ونقلها إلى الحاوية.

لحظة الإعلان عن بدء العمليّة، نجحت في أنْ أكون الأوّل في الطابور المخصّص للرجال، لكنّ زوجتي لم تستطع منافسة غيرها من النساء فجاءت في مركز متأخّر، وكنت ألحظ عليها علامات الإعياء. تكلّمتُ إلى المضيفة التي كانت على رأس طابورنا، شارحًا لها حال زوجتي، وأنّه لا بدّ أنْ تكون إلى جانبي لأساعدها في نقل أمتعتها طالما أنّ الأوامر هي أنْ يتعرّف كلّ فرد إلى حقيبته. أكّدت المضيفة لي أنّها ستكلّم زميلتها المسؤولة عن الطابور النسائيّ لحلّ هذه المشكلة.

مضت أكثر من ربع ساعة ونحن ننتظر، دون أنْ يتحرّك الطابور. كرّرت طلبي، وأكّدت أنّ زوجتي حامل، ولن تستطيع الوقوف أكثر، وأشرت إلى مكان وقوفها، وطبعًا لم يكن ليخفى على أحد من هي الحامل الوحيد بين حشد النساء، لكنّ المضيفة توجّهت إلى جانب زوجتي ووضعت يدها على كتفها وكأنّها طفلة صغيرة، وقالت تخاطبني عن بعد: "أهذه هي زوجتك؟" قلت بالإيجاب، لكنْ لم يحدث أيّ شيء.

فجأة بدأت المضيفة تنادي بأعلى صوتها أنّ هناك تأخيرًا، وعلينا الانفضاض إلى أنْ يأتينا خبر جديد. حين انفضّ الطابور، ووصلت مع زوجتي إلى أقرب مقعد، وما كادت تجلس حتّى جاء صوت المضيفة من جديد يعلن أنّه بإمكاننا العودة إلى الصفّ.

طبعًا كان أصدقاء المضيفة الآن في أوّل الطابور، وسيتجنّبون المكوث طويلًا تحت وطأة الشمس، كما سيصعدون أوّلًا إلى الطائرة، ويختارون ما يناسبهم من الأماكن، لأنّها لم تكن محدّدة مسبقًا.

تمّت الولادة بخير في بريطانيا، وأَسْتَحْضِر هنا معاملة مغايرة تلقّيناها في هولندة، حين صار عمر ابنتنا سنتين. توجّهنا مع ابنتنا على متن سفينة

تنقلنا من بلد إقامتنا في بريطانيا إلى ميناء روتردام الهولنديّ الذي سوف ننطلق منه في رحلة أوروبيّة.

حين رست السفينة، خرج منها مئات المسافرين، وانتظموا في أرتال محدّدة، وحين كنّا نأخذ مكاننا بينهم، وابنتنا في كرسيّها المتحرك ندفعها أمامنا، جاءت إحدى المضيفات بسرعة نحونا، تودّ مخاطبتنا، فأصابني نوع من التوجّس، لظنّي أنّها كانت تريد تعريضنا لإجراءات خاصّة، ونحن نحمل في قسماتنا ملامح الشرق الأوسط، وفي أيدينا جوازات سفر سوريّة. قالت لنا بكلّ أدب: "سيّدي، سيّدتي، معكما طفلة، تفضّلا معي." ذهبنا خلفها، متجاوزين كلّ الطوابير، وسهّلت ختم جوازات سفرنا، وودّعتنا بابتسامة، وشكرتنا متمنّية لنا رحلة سعيدة.

## 3

بدأ نجم "الأماراتيّة" يعلو على أنّها أفضل شركة للطيران، وهناك رحلات مباشرة بين سيدني ودبيّ بشكل مستمرّ. كما أنّ الأسعار تنافس أفضل ماكان موجودًا في السوق. لذا تشجّعنا مع كثير من الناس فاستخدمنا هذه الشركة مرّة بين سيدني ودبيّ، ثم تابعنا إلى أوروبا. الطائرات فخمة، ومزوّدة بأحدث التجهيزات، ما جعل الرحلة مريحة خلال المسافة الطويلة بين سيدني ودبيّ.

وفي زيارة إلى دمشق، قرّرنا استخدام الشركة مرّة أخرى، وهذه المرّة في الذهاب والإياب بين سيدني ودبيّ، وكالعادة ننتقل من دبيّ إلى دمشق على متن ما هو متوفّر من شركات.

صادف أنّ زوجتي وابنتينا أردن العودة إلى سيدني قبل عودتي بأسبوع. حين اتصلت للاطمئنان على وصولهنّ إلى سيدني، حذرنني من أنْ أقع بما وقعن فيه حين العودة من دبيّ إلى سيدني. حين وصلن إلى مطار دبيّ قيل لهنّ إنّ الطائرة محجوزة بنسبة أكثر من نسبة استيعابها، وفعلٌ كهذا من حقّ الشركة، وإنّهم على استعداد للحجز لهنّ في اليوم التالي، وتأمين المنامة

مجّانًا. لكنّ زوجتي وبنتينا شننّ حملة من الاحتجاجات، خصوصًا أنّ كلّ واحدة منهنّ لا بدّ أنْ تعود إلى عملها في الموعد المناسب، وأنهنّ حجزن مقاعدهن على الطائرة منذ مدّة طويلة، وأنّ تلك المعاملة لا تليق بشركة ذات سمعة حسنة كما هو الادّعاء، وإلى ما استطعن إليه من حجج دامغة. كانت النتيجة أنْ قبلت الشركة، وتركتهنّ يتابعن الرحلة كما سبق أنْ خطّطن لها.

حين جاء موعد رجعتي، تعمّدت أنْ أكون في مطار دبيّ قبل خمس ساعات من موعد الإقلاع حتّى أضمن سلامة الحجز، على الرّغم من أنّه جرى منذ أكثر من ثلاثة أشهر، ولدي البطاقة التي تؤكّد أنّ كلّ شيء على مايرام بالنسبة إلى موعد وتاريخ الرحلة. حيّيت موظّفة الشركة، ولم يكن أحد غيري ينتظر. قالت لي إنّني لا أستطيع المغادرة على هذه الرحلة، وستحجز لي على رحلة أخرى ربّما غدًا. رفضت الأمر رفضًا قاطعًا، وقلت إنّ أشغالي لا تسمح لي بذلك. قالت إنّها لا تستطيع فعل شيء، ولا بدّ من أنْ أتكلّم إلى مديرها. قلت حسنًا، ليحضر المدير. قالت إنّه لن يأتي قبل أربعين دقيقة على الأقلّ، وطلبت منّي أنْ أستريح في مكان آخر. رفضت مغادرة المكان، وقلت إنّي منتظر هناك، ولن أقبل لها أنْ تتعامل مع أيّ مسافر آخر قبل حلّ مشكلتي. وقفت كلّ الفترة، إلى أنْ حضر المدير الذي حاول أنْ يفسّر لي أسباب هذه المشكلة، لكنّي لم أفهم منه شيئًا، بل كان جليًّا لي أنّه يختلق قصصًا لتبرير ما يريدون القيام به، دون أنْ أدرك سبب ذلك، على الرّغم من مضايقة الزبائن وإضاعة الوقت، لأنّني طبعًا لم أكن أنا المستهدف الوحيد. بعد أخذ وردّ، استمرّ فترة غير قصيرة، عرض عليّ أنْ يضعني على رحلة أخرى تنطلق بعد ساعة من رحلتي، لكنّها تصل إلى سيدني قبل رحلتي الأصل، لأنّها رحلة دون توقّف. قلت له إنْ كان الأمر كذلك فلا بأس. وحين ذكّرته بأمتعتي، وأنْ لا يختلط الأمر بين الرحلة السابقة والحاليّة، خصوصًا أنّ الأمتعة تنتقل من طائرة دمشق إلى طائرة دبيّ مباشرة، سألني إذا كانت معي حقيبة سفر. أعربت عن استغرابي لسؤاله، وذكرت له أنّني كنت للتوّ ألفت

نظره إلى ذلك، وشرحت له أنّه من البديهي أنْ يحمل الإنسان حقيبة سفر إذا كان مسافرًا، خصوصًا إذا كان المشوار بين سيدني ودمشق، وأنّ من يسافر هذه السفرة، يمضي في البلد التي يزور أسبوعًا على الأقلّ، ولا بدّ له أنْ يحمل ما يكفي من الثياب. واستغربت كثيرًا حين قال لي إنّه بإمكاني البقاء على رحلتي المقرّرة سابقًا طالما أنّ معي حقيبة سفر.

وهكذا، وبعد مضيّ أكثر من ساعتين، عدنا إلى حيث ابتدأنا، وكأنّ شيئًا لم يكن، سوى أنّ أمرًا كان من الممكن أنْ يُقضى خلال خمس دقائق، استغرق ساعتين، واستنزف جهدًا وضغطًا نفسيًّا كبيرين.

بعد اطمئناني على سلامة رحلتي، ذهبت ثانية إلى ذلك المدير، وما أنْ رآني متّجهًا نحوه، ترك عشرات المراجعين، واتجه نحوي محاولًا تلافي أيّ حوار أمام حشد المسافرين. طلبت منه أنْ يشرح لي، من باب العلم بالشيء، سبب كلّ هذا الذي يحدث، خصوصًا أنّ النتيجة بيّنت أنّه لا فائدة ممّا يقومون به. لفّ ودار، وحدّثني عن وصول طائرة أصغر ممّا كان مقرّرًا، وعن أمور أخرى لم أفهم منها شيئًا. وحين واجهته بأنّ الشيء نفسه حدث مع عائلتي منذ أيّام، وأنّني لا أستطيع تصديق أنّ شركة عالميّة محترمة تترك الأمور لمثل هذه الفوضى، زاد حديثه غموضًا. بالنتيجة، تركته دون أنْ أفهم واقع الأمر، لكنّني كنت على يقين أنّ هذه الأمور لا يمكن أنْ تقوم بها الشركة في مطار مثل مطار سيدني، وأنّني لن أستعمل هذه الشركة مرّة أخرى طالما توفّر أيّ بديل.

## 4

دُعيت في الثمانينيّات من القرن العشرين من قبل جامعة بريطانيّة لإلقاء محاضرة عن أبحاث سبق أنْ قمت بها، ففرحتُ لتلك الدعوة لأنّني كسوريّ سأشارك نخبة من العلماء الأوروبيّين في ذلك المؤتمر. ورحّب المركز العلميّ الذي أعمل لديه في دمشق بالفكرة، بل وافق على إيفادي من أجل تلك المهمّة، وأمّن لي بطاقة السفر على متن شركة الطيران العربيّة السوريّة.

علم بعض الأصدقاء بسفري، فكلّفني أحدهم بنقل عيّنات طبيّة مأخوذة من جسم قريبة له مصابة بمرض عضال، ولا يمكن إجراء التحاليل المطلوبة سوى في لندن. العيّنات يجب أنْ تنقل مبرّدة في حاوية خاصّة، ولهذا اتّفقنا على موعد استلام العيّنات قبيل مغادرتي منزلي مباشرة.

وصلت إلى مطار دمشق وفوجئت أنّ عددًا كبيرًا من المكتتبين على الرحلة نفسها لن يتمكّن من المغادرة، وسرت شائعة أنّ الطائرة المخصّصة لهذه المهمة أصغر ممّا كان يجب.

استرعى انتباهي رجل يدور في المكان وكأنّه سلطان زمانه، يروح جيئة وذهابًا، ويدخل بين الحين والآخر إلى غرفة صغيرة، فيتبعه رجل أو أكثر ممّا كان يبدو أنّهم من رجال الأعمال. حين خرج أحدهم سألته إنْ كان يعرف ما يجري، قال إنّه دخل واشترى بطاقة درجة أولى ليستطيع السفر في تلك الرحلة.

حين خرج "السلطان" تبعته وتكلّمت معه شارحًا عن المركز العلميّ الذي أعمل لديه، ومشكلة العيّنات الطبيّة التي أحملها، وأنّني موفد رسميّ، قال إنّه لا يوجد أماكن على الطائرة، لكنّه سيرى ما يستطيع أنْ يفعل، وتركني باستعلاء شديد.

أمضيت فترة وأنا أشاهد عددًا من المواطنين يدخل الغرفة الصغيرة، ويخرج منبسط الأسارير، ربّما بعد أن دفع الرشوة المناسبة، لكنّني ما علمتُ كم عدد الذين استطاعوا السفر دون أنْ يكون لهم اكتتاب مسبق.

غادَرَتْ الطائرة، ولا زال عدد كبير ينتظر ظنًّا منهم أنّها لازالت جاثمة على أرض المطار، وعدتُ خائبًا. أرجعت العيّنات التي صارت عديمة الفائدة إلى صاحبتها، واتصلت بزميل بريطانيّ وكلّفته إلقاء المحاضرة عني.

# هَرْوَلَة

عندما أنهيت تخصّصي، وعدت إلى دمشق بدرجة الدكتوراة في العلوم، عام 1981، كان عليّ أن التحق بالخدمة العسكريّة التي كانت مؤجّلة لحين انتهاء الدراسة.

كان حملة الدكتوراة، والأطبّاء، وأطبّاء الأسنان، والصيادلة يشتركون في كتيبة واحدة. وأذكر أنّ كتيبتنا ضمّت حوالي ثلاثمئة نفر، لا يزيد حملة الدكتوراة بينهم عن ستة عشر.

وحملة الدكتوراة هم الأكبر سنًّا بين أفراد الكتيبة، نظرًا لأنّ الدكتوراة لا يتمّ التحضير لها إلاّ بعد إنهاء الدراسات العليا الأخرى. أي أنّني كنت واحدًا ممّن هم أكبر سنًّا.

كنت إلى ذلك الحين لا أمارس رياضة منتظمة، وليس لي في اللياقة البدنيّة والقوّة الجسديّة لا ناقة ولا جمل.

التحقت بالمدرسة العسكريّة في مدينة حلب، وتمّ في اليوم الأوّل استقبالنا من قبل حلّاق المدرسة الذي قضى على كلّ شعرة من شعرات رأسنا. ثم سلّمونا ملابسنا العسكريّة، ووزّعونا على مهاجع يتّسع كلّ واحد منها لخمسين فردًا، يشترك كلّ فردين في سرير مزدوج: سفليّ وعلويّ. ولحسن حظّي أنّني كنت في سرير سفليّ، فلم أكن على رغبة في بهلوانيّات التسلّق.

وعلى الرغم من أنّ الأوامر جاءت أنّ النوم هو عند الساعة العاشرة مساء، وأنّ الأضواء إن تركت ستكون عاقبتنا وخيمة، بقي المهجع ساهرًا حتّى منتصف الليل. كلّ فرد في سريره، ولكنّ عدّة محاورات أخذت دورها، رغم أنّ الناس لا تعرف بعضها. مثلًا بدأ أحدهم بالصياح: "في حدا من الضيعة الفلانيّة؟" ردّ عليه اثنان بالإيجاب، وبدأت رحلة التعارف.

خلدت بعدها إلى النوم بعد يوم متعب، ولكن حين دوّى في المهجع صراخ أحد المسؤولين عنّا، اعتقدت أنّي نمت قبل خمس دقائق فقط. كانت الساعة لم تصل الخامسة صباحًا. أمرنا الرقيب بالحضور خلال ربع ساعة إلى الساحة العامّة بملابسنا الرياضيّة.

كانت تلك أولى ما واجهت من مفاجآت، لأنّ ما قيل لنا سابقًا هو أنّ اجتماع اليوم التالي هو الثامنة صباحًا. الرسالة واضحة. هذه عسكريّة، وليس لنا سوى الخضوع للأوامر. امتثلنا طبعًا، واجتمعت الكتيبة كلّها في الساحة. صدرت الأوامر بالهرولة، وانطلق الجمع أمامًا في وجهة نعلم بدايتها ولا نعلم نهايتها. كان علينا أن نتبع سيّارة "جيب" تسبقنا وتتوقّف، تسبقنا وتتوقّف ... وفي المؤخّرة بعض الرقباء يتأكّدون أنّ أحدًا لن يغادر.

أنا الذي لم يهرول مئة متر في حياته حتّى ذلك الحين، كان الآن يشارك في "ماراثون" يغطّي عدّة كيلومترات. طبعًا بدأ بعضهم بالسقوط إلى جانب الطريق تعبًا، وبمجرّد أن يسقط أحدهم تنهال عليه تعليمات وشتائم الرقيب، وأهمّها تعييره بأنّه "حرمة"، وحثّه على المواصلة.

لم أكن أعرف متى سيكون سقوطي. لكنّني صمّمت أنّه إذا لم أستفد شيئًا من دورة العسكريّة هذه، فعلى الأقلّ أحسّن أدائي الرياضيّ.

حين انتهى المسير كنت أنا بين الخمسة في المؤخّرة. على الأقلّ لم أسقط. واجهت بقيّة ذلك اليوم بالدروس والتدريبات، وألم شديد في عضلات الساقين.

فكّرت أنّه حتّى أكون واقعيًّا، ربّما يمكنني تحسين أدائي لأكون بين آخر خمسين من أصل ثلاثمئة. علّمت نفسي كيف أنظّم حركتي وتنفّسي، فلم يكن هناك من يعلّمنا ذلك. يقولون اركض، فتركض.

مع انطلاقي، كلّ صباح، قرّرت أن ترافقني بعض الكلمات التي تكون لي عونًا على حسن الأداء، ليس في تحمّل المشقة فقط، بل تحويلها إلى فائدة. كنت دائمًا أفكّر بزوجتي وابنتيّ. ولهذا بدأتُ حين الهرولة أردّد مع كلّ خبطة قدم:

نجاة، عزّة، جمانة: حبّ، حياة، أمانة / نجاة، عزّة، جمانة: حبّ، حياة، أمانة / ....

التأثير كان سحريًّا. صارت الهرولة متعة، ومع كلّ يوم كنت أحسّ بروعة الإنجاز مهما كان بسيطًا.

في آخر مسيرة من هذا النوع، كنت أنا بين العشرة الأوائل. هنّأت نفسي وقدّمت لها الجائزة الكبرى: ابتسمتُ فتجلّت لي صور تلك القدرات التي رافقت عزمي وإصراري: ثلاثٌ من أجمل نساء العالم.

بعد انتهاء الدورة العسكريّة وعودتي للحياة العاديّة، تابعت رياضة الهرولة لسنين عديدة، ثم عدلت عنها إلى المشي الجادّ، بالإضافة للسباحة وتمارين أخرى لا زلت أمارسها بشكل يوميّ.

# زيارة

السنوات الخمس الأولى لبداية القرن الواحد والعشرين بدت لكثير من السوريّين على أنّها قد تكون بداية عهد جديد يقوم فيه رئيس البلاد الشابّ بإصلاحات طال انتظارها.

أمّا ذلك الكهل، فكان يعلم تمامًا أنّ هذا مجرّد أمل، لكنّه على الرغم من ذلك لم يفقده ولا للحظة. ولذلك حين اتجه من سيدني إلى دمشق في إجازة إلى وطنه الأمّ، كان فكره يعجّ بتمنّيات الخير والازدهار لوطن سرمديّ. أكثر أفكاره الملحّة كانت أنّه يريده وطنًا دائم الوجود على أرض الواقع، لا مجرّد ذكرى زمنٍ مضى وانقضى، يمجّدها الناس ويبقون عندها ساهين عن مستلزمات الحاضر والمستقبل.

ذات يوم من أيّام الإجازة اتجه مع زوجته إلى مدينة حمص على متن حافلة أنيقة، يدعونها "بولمان"، تعمل على خطّ دمشق-حلب، على أساس أنّها في طريقها تتوقّف عند مدينة حمص، من أجل الركّاب المتوجّهين إلى هناك، قبل المواصلة إلى وجهتها النهائيّة.

سبب الزيارة دعوة من رابطة أدبيّة كانت بينه وبينها نشاطات كثيرة، وأرادت الرابطة تكريمه وتعريفه إلى أعضائها، وإلى بعض أدباء وفنّاني حمص. استعدّت زوجته كعادتها لهكذا زيارة، فارتدت حلّة وثيرة، وتزيّنت بمصاغها من الذهب والألماس، وتألّقت بجمالها الفتّان، حتّى بدت وكأنّها نجمة سينمائيّة حلّت في بلاد الشام.

أشار مُضيّ وقت الرحلة، وملامح الجغرافيا التي يعرفها، إلى اقتراب مدينة حمص. قدّر أنّ ما تبقّى للوصول لا يزيد عن عشرة كيلومترات. ولكن عند تلك اللحظة توقّفت الحافلة أمام استراحة من تلك التي تخدم المسافرين. ظنّ أنّ التوقّف هو من أجل ركّاب حلب، وأنّ الحافلة ستتابع إلى مركز حمص. لكنّه قبل أن يكمل تقييم الوضع في ذهنه سمع السائق ينادي

بصوت غلب عليه الصراخ وصيغة الأمر: "ركّاب حمص انزلوا هون، يللا أوام."

حين بدأ احتجاجه، وأنّه لم يعلمه أحد، قيل له إنّ الكلّ يعلم هذا الترتيب، وأنّ القضيّة بسيطة لأنّهما إذا وقفا على الطريق العامّ تمرّ بعض الحافلات الصغيرة التي يسمّونها "ميكرو"، ويمكن بسهولة التوجّه بواسطتها إلى قلب حمص خلال عشر دقائق.

لا خيار لهما! تجاوزا منطقة وعرة بين الاستراحة التي سبق أن توقّفا عندها، والطريق العامّ. وتحمّلت الزوجة تبعات ارتداء "الكعب العالي". (سيضيف هذا إلى لائحة ذنوبه.)

باشرا عمليّة جادّة في تحرّي الحافلات المارّة، ولأيّ منها يجب أن يؤشّرا لتقف. وبعد حوالي ربع ساعة توقّفت واحدة. قام بفتح الباب بصعوبة، وهو من النوع الذي ينزلق للخلف على جانب الحافلة. فوجئ أنّها مليئة، عدا مقعد واحد جانب الباب. لاحظ الركّاب والسائق ارتباكهما. توجّه السائق إلى الزوجة بصوت فيه بعض العصبيّة قائلًا: "طْلَعِي يا إختي طلعي. قعدي هون،" مشيرًا إلى المقعد الخالي الوحيد.

كان يتساءل ضمنًا إلى أيّ مكان سيشير السائق من أجل جلوسه. انحنى السائق قليلًا، وسحب بيده قطعة ظهرت وكأنّ الأمر من فعل ساحر. ضغط السائق عليها للتأكّد من ثباتها، وقال: "شرّف يا أستاذ."

جلس على شبه مقعد مواجهًا زوجته وكلّ الركّاب. الحافلة تغصّ بركّابها الذين لا يشكّلون أكثر من درّينة من الرجال والنساء. ما إن بدأ بالتأمّل وعواقبه من التفكير، حتّى طلبت شابّة النزول. تطوّع لفتح الباب رجل بثياب عسكريّة كان يجلس خلف الشابّة، ووقف منحنيًا، مادًّا ذراعه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، فأمسك بقبضة الباب وشدّه بكلّ قوّته إلى الخلف. لا يمكن للشابّة النزول دون أن تنزل زوجته أوّلًا، وتثني مقعدها. وبعد مغادرة الشابّة التي يبدو، ممّا تحمل من أدوات، على أنّها فتاة في كلّيّة الهندسة، تحاول زوجته إعادة المقعد لوضعه السابق، فيتطوّع هو وأكثر

من راكب وراكبة بالمساعدة. تعود زوجته إلى مكانها. يُغْلَق الباب. تنطلق الحافلة، وتتكرّر هذه العمليّة مرّتين على الأقلّ قبل الوصول إلى حمص.

نظر في الركّاب. معظم الشباب والرجال بألبسة عسكريّة. معظم النساء بألبسة قرويّة. رجال ونساء بألبسة بسيطة. لم تتزيّن أيّ من النساء بالحليّ، والخاتم الوحيد الذي لمحه على إصبع سيّدة كان خاتم زواج متواضعًا جدًّا. شَعْر النساء والرجال شبه "منكوش". لم تكن هناك أيّ إشارات أنّ أحدًا استحمّ ذلك الصباح. يستثنى من ذلك تلك الفتاة الجامعيّة.

السيّدتان المجاورتان لزوجته لم ترفعا أعينهن عن أصابعها وجيدها. حتّى تلك التي تجلس وراءها، إلى يسارها، كانت تشرئبّ بعنقها قليلًا لتحاول النظر. الوجوه كلّها كانت جادّة، بل أقرب ما تكون ممسوحة بالحزن.

أصابه قلق شديد. هل من المعقول أن يكون ابن هذه البلاد وتفاجئه هذه المشاهد؟ نعم، كانت هذه أوّل مرّة يرتاد فيها حافلة كهذه. حتّى حين كان مقيمًا في دمشق، في طفولته وشبابه، ماذا كان يعلم عن الجماهير؟ يبدو لا شيء. قال لنفسه: نحن أبناء المدن يولد بعضنا و"في فمه ملعقة من ذهب". نستعمل السيّارات الخاصّة، ونستأجر "تاكسي"، وبعضنا يذهب للسياحة داخل وخارج البلاد.

زاد اطلاعه على هذا الجانب من وطنه الأمّ وهو بعيد عنه آلاف الأميال، وبعد سنوات من تلك الزيارة. بعد اندلاع العنف عام 2011، وبداية التهجير واللجوء، ظهر حجم المأساة التي تزداد مع زيادة الفقر والتخلّف الاقتصاديّ. هل أهمّ أسباب المشاكل انعدام الشعور بها، رغم أنّها أقرب من حبل الوريد؟

دخلت الحافلة مدينة حمص، وبدأ يسأل السائق عن العنوان الذي يقصده. طمأنه السائق أنّ العنوان على الطريق نفسه الذي تسلكه الحافلة: "ولا يهمّك أستاذ ما بتنزل إلا عالتمام." اهتم الركّاب بالمسألة. استفسرت احداهنّ عن طبيعة المكان، وأكّد أحدهم أن لا تثريب عليهما، ولسوف

يعلمهما حال الوصول. أكّد السائق أنّه سبق له التأكيد على هذا: "شو قصتكم، مو قبل شوي قلنا للأفندي إنو حنّزلوا محل ما بيريد؟"

حين توقّف السائق لنا، أكّد كلّ من تكلم سابقًا على صحّة العنوان: "إي هادا هو،" "ليكو المدخل جنب البناية الزرقا ... "

بدأ يرى في العيون ابتسامات، وخرجت من الشفاه سلامات.

"وداعًا" قالا. "وداعًا" قالوا.

نزل من الحافلة مغادرًا، يحمل معه كرم وطيبة هذا الشعب المغلوب على أمرة، وعقدة ذنب لا يعلم إن كان هو أحد المسؤولين عن ارتكابه.

# عمّة عايدة

ماذا تفعل حين ترقد الإنسانة، التي تعتبرك من أحبّ الناس إليها، على فراش المرض، وأنت على بعد يزيد عن أربعة عشر ألف كيلومتر عنها، ولا تسمح ظروفك الحاليّة، وغيرها من الظروف، أن تسافر إليها؟

بعضُ ما اختزنت الذاكرة يتشبّث بنا لأنّه ينمّ عن لحظات دمغت حياتنا بالحبّ والأصالة. من هذه اللحظات التي لا تبرحني هي حين كانت عمّتي "عائدة"، والتي نخاطبها "عمّة عايدة"،معلّمة الفنون الجميلة، تصطحبني معها إلى "مدرسة مكتب عنبر" العريقة في دمشق القديمة، وكانت لفترة تسمّى "مدرسة الفنون النسويّة" على ما أذكر، حيث كانت تُدرّس مادّة الخياطة والتطريز، فتتباهى بي أمام زميلاتها وطالباتها، وأنا صبيّ السنوات السّبع الذي حمل معه مشاهد تلك اللحظات طوال حياته.

أصل تسمية "مكتب عنبر" تعود للعهد العثمانيّ حينما صادرت الدولة "العليّة" هذا الصرح الذي يعتبر من أجمل البيوت الدمشقيّة، وحوّلته إلى مدرسة للصبيان، تخرّج منها بعض أهمّ رجالات سوريا.

يعود البيت لمنتصف القرن التاسع عشر، صمّمه وبناه يوسف أفندي عنبر على مساحة خمسة آلاف متر مربّع، وجعله من ثلاثة أقسام، لكلّ منها باحّته، وضمّت الأقسام أربعين غرفة تتوزّع على طابقين. وآخر ما توصّل إليه هذا الصرح من تطوّر هو أنّه الآن مقّر لمديريّة دمشق القديمة.

أكثر ما علق في ذهني، من تلك الزيارات، الفُسح التي تصل بين الأقسام المختلفة، والصعود إلى الطابق الثاني لزيارة أحد صفوف الرسم والأشغال اليدويّة. أمسكت عمّتي بيدي وطافت بي بين الفتيات للاطّلاع على ما يقمن بإنجازه. استوقفني كرّاس لتلميذة من معارف عائلتنا، لمياء، التي ابتسمت لي ابتسامة لا زالت تومض في ذهني بكلّ جمالها كلّما عُدت بالذكرى

إليها. قلّبت صفحاته من الرسوم، والزخرفات، والنقوش الدقيقة التي قامت بإنجازها، ولوّنتها بألوان تكشف عن ذوق رفيع.

كانت تلك الزيارات تصيبني بنوع من الذهول، وهو ما يمكن أن يكون تعبيري عن إعجابي الكبير بما كنت أرى وأكتشف. كما كانت ترضي غروري، إن صحّ التعبير، لما كنت ألقاه من اهتمام من قبل من كنّ لي نجمات متألّقات في سماء ذهني، وأنا اليافع الذي يتوق لمعانقة السحاب.

العمّة عايدة صارت أيضًا "الحاجّة" عايدة، وربّما كان هذا من أهمّ بهجات حياتها، وهي التي آلت على نفسها (أو ربّما جنت عليها) أن لا تقبل من تقدّم منها للزواج، على قلّتهم. كانت أبيّة النفس عزيزتها، ولا زالت تعيش على تراث سمعة والدها الذي كان في وقت من الأوقات من الأثرياء، لكنّه فقد تلك المنزلة نتيجة لظروف الحرب العالميّة، وتغيّر أساليب تجارة الحرير التي كان يعمل بها. خسر مكانته في الثراء، لكنّه حافظ على مكانته كأحد أعيان مجتمعه، وهذا ما مكّن أفراد العائلة الاستمرار بشعورهم "الأرستقراطيّ" تجاه الآخرين، رغم أنّ كثيرًا من الجيل الجديد، من عائلات متواضعة، صار يفوق جدّي ثراءً أضعافًا مضاعفة.

حادثتان بقيتا في ذهني، إمّا لأنّي لم أسمع غيرهما، وإمّا لأنّهما فريدتان لا ثالثة لهما. أولاهما، تاجر كويتيّ ثريّ من عملاء والدها تقدّم إليها. رفضته، أو رفضوه، لأنّها لا تريد أن "تتغرّب"، وهي ابنة "الأكرمين". هذا ما وَصَلَنا، نحن الأطفال والشباب، من شذرات الأحاديث، أو الإشاعات التي كنّا نسمع ممّن هم أكبر منّا، أو من الخادمات حين يتهامسن.

الحادثة الثانية حصلت بعد سنين من الأولى، وهذه المرّة تقدّم لها رجل يعمل سائقًا شخصيًّا عند أحد الأقرباء. أذكره مائل إلى السمنة، وسيم الوجه، أنيق الملبس، مهذّب الكلام. رَفَضَتْهُ! المسكين سليل عائلة متواضعة، فقيرة، وفوق هذا "مجرّد سائق". أذكر أنّني حزنت جدًّا، لأنّني كنت أحبّه وأحترمه، بيد أنّني احترت على من يتوجّه الحزن: أعليه وقد خسر نسب عائلة مرموقة، أم عليها وقد خسرت "فرصة عمرها"؟ أم أفرح لكليهما

بفشل ما كان لا يستند على تفاهم خاصّ بين الطرفين؟ لكنّها اختارت، ولا أعتقد أنّها أُرغمت على أيّ قرار. ما كان يتحكّم في ذهنيّتها هو الكبرياء، وعدم مواجهة الواقع، والتآلف مع متغيّرات الأمور، مع عبور الزمن.

الكبرياء، وهذه الأنفة، واعتمادها على نفسها بعد أن رمتها الظروف في ربوع الحياة الوظيفيّة طيلة عمرها الفاعل، كانت خلالها تمشي كثيرًا، وتستعمل حافلات النقل العامّ بكلّ عشوائيّتها وزحمتها، تذهب للتعليم، وتتبضّع حوائج إعداد الطعام، وتحمل الأكياس في طريق عودتها إلى المنزل، التي انتهت إلى العيش فيه وحيدة مع ابنة أخ لها سنين طويلة حتّى اليوم، هو ما يجعلها الآن ترفض المساعدة من أحد.

بعناد شديد طردت كلّ الممرّضات اللاتي حاول الأقرباء إحضارهنّ للمساعدة في الاعتناء الكامل بها، بعد أن صارت حركتها متعثّرة حتّى باستعمال الوسائل التي تعين على المشي والتنقّل. كما رفضت مساعدة عدد من القريبات اللاتي تطوّعن لذلك بكلّ طيبة خاطر. تلك التي في يوم من الأيّام كانت تتّخذ قراراتها متأثّرة بإرثها "الأرستقراطيّ"، نراها اليوم تتّخذها متأثرة بإرث الكادحة التي لا تحتاج أحدًا.

وأخيرًا وافقت على الانتقال إلى المستشفى بعد إقناع شديد قام به قريب ذو عقل راجح، مستعينًا باستخدام "نفوذي" لديها على أنّني أنا الذي يرغب لها في هذه الخطوة حتّى تتحسّن صحّتها، وهو يعلم ما تكنّه لي من محبّة واحترام، ما دفعه للتنسيق معي حول هذه القضيّة.

كنت أكلّمها مرّة أو مرّتين في الأسبوع عبر الهاتف من سيدني، ولفترة طويلة كنّا نتواصل عبر تطبيق حمّلناه لها على لوحة إلكترونيّة، زوّدناها بها، وتعلّمت كيف تستخدمها للرّد على مكالماتي. أمّا الآن، وهي في المستشفى، فليس لي سوى أن أعتمد على الأقرباء، الذين يقومون بزيارتها، وما لديهم من تطبيقات، في السلام عليها.

أربكني هذا، لكنّني حالما اتصلت بأحدهم، علمت أنّها عادت إلى البيت بعد ثلاثة أيّام، ولا بدّ من العناية المنزليّة. وهكذا عدنا إلى محاولة إقناعها

بقبول الممرّضة في البيت، ويبدو أنّها لانت قليلًا بعد تجربتها مع الممرّضات في المستشفى. وبدأتُ بمخابرتها يوميًّا لدوام تشجيعها، وحثّها على الثقة بمن حولها، وأنّهم يعملون لصالحها.

وعلى الرغم من أنّ عمّتي عايدة كانت أصغر عمّاتي سنًّا، وعلاقتي الوطيدة كانت مع عمّتي دريّة، أكبر العمّات، والتي كانت بمثابة أمّ ثانية لي، إلّا أنّ العمّة عايدة، كانت أيضًا تسبغ عليّ ممّا تيسّر لها من عناية الأمومة كلّما اضطّر الأمر. مثلًا، في سنوات طفولتي الأولى، لايمكن أن أنسى أبدًا فضلها في تنظيفي والعناية بهندامي حين كنت أزور بيت جدّي، في فترة سبق فيها للعمّة دريّة الانتقال إلى بيت الزوجيّة. هذه المحبّة والعناية انتقلت، دون استئذان، إلى زوجتي وابنتينا. وامتدّ احتضان الطفولة إلى ابنتينا، فكثيرًا ما تركناهما عندها حين كنّا نلتفت إلى أشغالنا وزياراتنا. وكلّ مرّة، حين أكلّمها هاتفيًّا، يكون أوّل سؤال لها عن زوجتي، وابنتينا. وتستفهم بشغف عن أحفادنا الذين لم تشاهد أحدًا منهم إلّا بالصّور، وسبق أن أمّلت نفسها بحضورنا جميعًا، لكنّ الوباء الكوفيدي عرقل الخطّة وقتها.

أعتبر نفسي محظوظًا أنّه عام 2010 بدأتُ بالتخطيط لرحلتنا السياحيّة السنوية المقرّرة عام 2011. قرّرنا أن ندعو عمّة عايدة وشقيقة زوجتي لمشاركتنا في رحلة حول تركيّا، وحجزت بطاقات الطيران بشكل نجتمع فيه في مطار اسطنبول في اليوم ذاته، ونتوجّه جميعًا إلى الفندق الذي سنلتقي فيه بمنظّمي الرحلة، وبقيّة المشاركين. كنت قلقًا حول إمكانيّة عمّتي المشاركة في هكذا رحلة، مليئة بالتنقّل والمسير والاستكشاف. لكنّها أثبتت خلال الرحلة أنّها لا تقلّ عزيمة عن أيّ منّا، ولم تسبب لنا أيّ إزعاج أو تأخير. كانت الرحلة من أجمل ما قمنا به من رحلات. كنّا سعداء جدًّا.

أثناء الرحلة بدأت شعلة الحرب في سوريا تتّقد. وبدأنا نفكّر أنّه ربّما نضطرّ لتغيير وجهة عمّتي ورفيقتها إلى بيروت، حيث تسكن شقيقة لي، عوضًا عن دمشق. لكنّ هذا لم يحصل، وانطلقنا في نهاية الرحلة إلى المطار.

العمّة ورفيقتها تتوجّهان إلى دمشق، وأنا وزوجتي نبدأ رحلة العودة إلى سيدني.

عند الوداع، تمنّتا علينا زيارة دمشق في المستقبل القريب. كان جوابي أنّنا ربّما لن نرى دمشق ثانية. غادرتنا العمّة والدموع في عينيها. ومنذ ذلك الوداع لم تطأ قدمنا أرض دمشق. لكنّ تلك الرحلة عنت الشيء الكثير بالنسبة لي.

وكذلك كنت على غاية السعادة حين أحضرنا عمّتي في زيارة إلى سيدني عام 1994، فتعرّفت إلى أسلوب حياتنا واجتمعت بابنتينا من جديد. وصادف حضورها بعد حصول حرائق الغابات، وأوّل ما طلبت منّي هو أخذها إلى إحدى المحميّات التي احترقت.

حين وصلنا، لم تصدّق أنّ حريقًا نشب في تلك الغابات. الذي حصل هو أن امطارًا غزيرة هطلت بعد الحريق، فبدأت أشجار الأوكاليبتوس بتجديد نفسها، وكانت مكسوّة بالنموّ الجديد للأوراق بشكل لم أتوقّعه أنا بالذات. وبما أنّ العمّة لم تكن على علم كيف كان شكل الأشجار قبل الحريق، اعتقدت أنّها طبيعيّة كما رأتها.

أذكر أعمالها الفنّيّة في تطريز اللوحات، ودقّتها في تفصيل القماش. وأذكر متابعتها لمجلة "بوردا" حين كانت ناشطة في تدريس التفصيل والخياطة.

استطاعت عمّة عايدة التصالح مع نفسها، فكانت حياتها غنيّة بالعمل والعطاء.

يمكن القول إنّها ثبتت دون مساعدة أحد، وكانت جبّارة في قدراتها وكبريائها، لكن ربّما لم تكن تتصوّر أن يأتي يوم تكون فيه عاجزة، وبحاجة لرعاية الآخرين.

كيف يمكن للمرء ردّ أفضال من كانت تمسح أسفله، وكيف له أن يصبر الآن وهو يراها تتداعى بعيدة على فراش النهاية، دون أن يكون له شرف ردّ الجميل، أو على الأقلّ طبع آخر قبلة على يدها؟

# مئةُ سَنة وسَنة:
# حكايتي مع الدكتور يوسُف سمَارَة،
# عاشق دمشق والشمس والكلمة

أذكر قامته النحيلة، والهدوء الذي يظهر في تصرّفاته، لكنّ قسمات وجهه الأنيقة كانت تقول لي إنّ وراء ذلك بركانًا من القدرة لم أكن في وضع يسمح لي بمراقبة تخبّطاته. كنت مجرّد تلميذ مدرسيّ في دمشق أقصد مكتبتين بغية تحصيل كتب لا توجد لدى المكتبات الأخرى، خصوصًا الكتب الإنكليزيّة. المكتبة الأولى "مكتبة صايغ"، تركّز على كتب التدريس. المكتبة الثانية، "مكتبة أطلس"، تمتاز ببيع مجلّات وجرائد أجنبيّة، وكتب في شتّى مجالات الحياة، بلغات مختلفة. ولي حكاية مع أشخاص كلّ من هاتين المكتبتين، لكنّي الآن بصدد الشخصيّة التي كنت أراها وأتعامل أحيانًا معها في مكتبة "أطلس".

ماكنت أعرف اسمه ولا من هو، وما كان هذا من ضرورات الموقف. أنا شابّ صغير، وهو في عمر والدي. أذكر، في مرّات زيارتي للمكتبة في الستينيّات من القرن المنصرم، أنّه كان دائمًا يجلس على كرسيّ أتخيّل أنّه في وسطها. وأذكر مرّة واحدة على الأقلّ قام فيها وساعدني في تفهّم بعض المحتويات، وانتقاء كتاب. كان مهيبًا جادًّا في تعامله، لكنّني أحببت ذلك فيه، وانطبع في ذهني كلوحة زيتيّة لرسام عظيم. ويبدو أنّ هذه اللوحة انتقلت إلى عقلي الباطن لتبقى فيه فترة طويلة دون أنْ أستذكر ملامحها تحديدًا، على الرّغم من تأثيرها على مجال التلقّي الحياتيّ لدي.

حين قابلته في بيته في دمشق في أوائل التسعينيّات من القرن المنصرم، كان في الثمانينيّات من عمره، وكنت أنا تجاوزت الأربعين. أمضيت

معه ساعة من العمر، وما ربطتُ بين يوسف سمارة، والد صديقتنا الدكتورة لين المقيمة في أستراليا، والذي ذهبتُ للتعرف إليه أثناء زيارة لدمشق، وبين يوسف سمارة صاحب مكتبة "أطلس"، الذي سبق أنْ تعاملت معه، وترك لديّ انطباعًا خاصًّا، مع أنّهما الإنسان نفسه.

يوسف سمارة، والد صديقتنا، ترك في نفسي انطباعًا مشابهًا، لكنّه الآن أكثر عمقًا. أنا الآن وجهًا لوجه أمام هذه الشخصيّة التي ناء جسدها بأحمال سنين من العلم والثقافة والعمل. ولا زلت أرى في ملامحه التصميم على المواصلة، فهو في تقاعده لجأ إلى تعليم الألمانيّة للمتخرّجين، والرسم، والنحت، وجمع الآثار. أهداني إحدى القطع التي نحتها، لكنّه كان فخورًا بغرفة الاستقبال الرسميّة في بيته، والتي كانت كلّها مشغولة من النجارة الدمشقيّة العريقة، بما تحتويه من نقوش وخطوط وفسيفساء كست الجدران والأبواب وقطع الأثاث.

ودّعته، وفي ذهني لوحة زيتيّة ثانية للشخص نفسه، دون أنْ أعلم. استرجعت هذه اللوحة الأخيرة من عقلي الباطن مرّات عديدة، لأسباب لا أعلمها سوى أنّ يوسف سمارة، مع نخبة من معارفي يتجلّون لي بين الحين والآخر، أسترشد من وحيهم حكمة وبهجة.

وجاء يوم خبّرتني صديقتنا لين أنّها بصدد الذهاب إلى فرنسا، حيث أقام والدها يوسف في الفترة الأخيرة من عمره، للاجتماع بكلّ أفراد العائلة، وذلك للاحتفاء بعيد ميلاده المئة في شهر أيّار 2010.

كان يوسف مبتهجًا باجتماع شمل عائلته المبعثرة بين أصقاع الأرض، فرأى ابنه وبناته وأحفاده وأولاد أحفاده. وبفضل مكانته، وجهود ابنته الدكتورة رانية، الأستاذة في جامعة السوربون، أقامت بلديّة باريس حفل تكريم له ألقت ابنته رندلى خلالها كلمة بالفرنسيّة لخصّت فيها أوجهًا من عبقريّة الدكتور يوسف سمارة، خرّيج الاقتصاد من السوربون. وألقت الضوء على ممارساته المهنيّة، وهو الذي كان محاميًا، وقاضيًا، وناشرًا، وبائع كتب، ومؤسّسًا للسياحة في سوريا، ومديرًا لها، ومساعدًا لوزيرها.

منذ أيّام خبّرتني صديقتنا، الدكتورة لين، أنّ أباها غادر هذه الحياة، وكان لبقًا حتّى في وداعه، فانتظر إلى نهاية الأعياد، واطمأنّ إلى سعادة الأبناء والأحفاد، واستقبل العام الجديد في ذمّة الكون العريض، إذ أدركته المنيّة في اليوم الأوّل من هذا العام.

الحديث الذي جرى بيني وبين لين كشف لي ما استتر من حكايتي مع يوسف سمارة، ولكأنّ الموت هو ما وحدّ أخيرًا الصورتين المحفوظتين في عقلي الباطن لرجل تسرّب إلى قلبي دون أنْ أعيه حقّ الوعيّ، وربّما أحبّه الآن أكثر مع زيادة وعيي له. وأتمنّى أنْ تصله ومضة من احترامي وتقديري، أُحمّلها على بحيرة الضوء التي تغطّي الكون.

سيدني، 2011

# نهاية ... وبداية

منذ كنت طفلًا وأنا أسمع عبارة "هذه نهاية العالم!" كانت جدّتي على وجه الخصوص تردّدها، ضاربة بكفّيها على رأسها، كلّما أرادت التعبير عن استغرابها، أو احتجاجها على مشاكل العالم، أو ما تراه من كلّ ما هو جديد، وخصوصًا ذلك الذي يصطدم مع ثوابتها وأفكارها التي نشأت عليها.

اليوم هرعت حفيدتي ليلى، ذات السنة والنصف من العمر، التي كانت في زيارتنا، باتجاهي تريد مشاركتي بـ"إصبع" من اللوز والبندق والزبيب كنت أتناوله. قسمته نصفين، وأعطيتها النصف الباقي مع ورقة اللف التي كانت حوله لتدربها على مسكها. أمْسَكَتْ القطعة بيد، ونزعت عنها الورقة محتفظة بها باليد الأخرى، رافضة تسليمها لي، وتفَقّدَتْها عسى تحوي أيّ بقايا. وقبل أن تشرع بالتهام ما في يدها، اتجهت مسرعة بخطواتها، التي لا زالت بحاجة لكثير من التوازن، من حيث كنّا في غرفة الجلوس، إلى المطبخ. فَتَحَتْ الخزانة تحت المغسلة، وألقت الورقة في سلّة المهملات، وعادت إلى غرفة الجلوس تلتهم ما في يدها بلذّة ظاهرة.

كان هذا مفاجأة بالنسبة لي لأنّ حفيدتنا لا تقيم معنا، ولم أكن أتوقّع أنّها تعرف أماكن الأشياء، أو أنّه يمكنها اكتشافها بالقياس والاستنباط، خصوصًا أنّه لم يسبق لنا مشاهدتها تقوم بمثل هذا عندنا.

أنا متأكّد أنّ كثيرًا ممّن له أحفاد قد يمرّ بمثل هذه التجربة، والمقولة الدارجة في عصرنا التقانيّ اليوم "يا له من جيل ذكيّ". ولذلك حين أرى أنّ من سيخلفنا على الأرض هو بمثل هذه الفطنة، لا يسعني سوى القول: "هذه بداية العالم."

# "هاي تي"

يرنّ هاتفي الجوّال. إنّه زوج ابنتي. أمر غير عاديّ أنْ يتّصل في منتصف النهار من يوم إثنين، نظرًا لارتباطاته في العمل. سرعان ما أسمع صوت ابنتي وبكاء وليد جديد. نعم، حفيد جديد. نتبادل التهاني.

منذ بداية شهر أكتوبر عام 2016، احتفظت بالجوّال مفتوحًا طيلة الليل، بالإضافة إلى جهاز الهاتف الأرضيّ جانب السرير. موعد الولادة المفترض هو العشرين من الشهر، ولكنْ منذ سنتين جاءتنا حفيدتنا الأولى قبل أسابيع من موعد ولادتها. لهذا اتخذت ما يلزم من الاحتياطات لنكون جاهزين للمساعدة عند الطلب.

المكالمة إذن ليست مفاجأة تمامًا. وما أجمل أنْ نعلم أنّ الولادة كانت متيسّرة، وتمّت بعد ساعتين من دخول ابنتنا إلى المستشفى عند الساعة التاسعة صباحًا من ذلك اليوم. الأمّ وابنها بخير. هذا هو المهمّ!

أصل إلى المستشفى قبل الثالثة بعد الظهر بقليل. وأسعدني أنْ أشهد شخصيًّا ما سبق لزوج ابنتي أنْ نقل إليّ حول حسن صحة وسلامة الأمّ ووليدها. يحتفي عقلي وقلبي بهديّة الحياة هذه بكلّ حبّ وامتنان. ستصل زوجتي لاحقًا بعد الانتهاء من عملها اليوميّ.

عند الثالثة بعد الظهر ننضمّ إلى آخرين من الأمّهات والآباء والعمّات والخالات والأعمام والأخوال والأقرباء والأصدقاء، في قاعة ذات نوافذ كبيرة تطلّ على هضاب هذه الضاحية، وضواح مجاورة تتماوج بخضرة أشجارها وحدائقها أمام النظر حتّى الأفق. الشمس تحاول احتواء نفسها ضمن غيوم كثيفة تبدو وكأنّها تتلاعب بالضوء دون أنْ تحجبه. مشهد ساحر.

يقدّم المشفى ضيافة سخيّة من الشاي والقهوة والسندويشات والحلويّات والفاكهة في وجبّة عند العصر تسمّى هنا "هاي تي". القاعة مكتظّة، بما في ذلك ستّة مواليد جدد من أعمال هذا الصباح.

أنظر في وجوه الأمّهات: مُتْعَبَة، ولكنّها تفيض بالبهجة والانفراج، ومشاعر يمكننا تحسّسها دون أنْ نستطيع وصفها تمامًا. يرتعد جسمي من هيبة الأمومة والطفولة. هذا ما أراه في الوجوه، وهذا ما يجعلني أراهم جميعًا أمًّا واحدة، وطفلًا واحدًا. فقط حين أجول بنظري على تفاصيل وجوه الناس الآخرين أرى الأنكلوساكسونيّ، والأوروبيّ، والأفريقيّ، والآسيويّ، والأميركيّ-الجنوبيّ، وآخرين يصعب تصنيفهم.

أفكّر بعظمة أستراليا: موطن للجميع، وتحاول أنْ تكون أفضل.

أنظر إلى حفيدي وأجد أنّه من الصعب تخصيصه بسمة معيّنة. أنظر إلى ابنتي وأتذكّر كم مرّة ظنّ الناس أنّها يونانية، أو إيطاليّة، أو أسبانيّة، أو يهوديّة. وأتساءل: لماذا تزول الحواجز عند لحظة الولادة، بينما نخسر هذا النقاء مع تقدّم العمر؟ ابنتنا، أستراليّة علمانيّة من خلفيّة إسلاميّة-بريطانيّة-سوريّة، متزوّجة من كاثوليكيّ أستراليّ من أصول كرواتيّة. طبعًا سيتأثّر الوليد الجديد بكلّ هذه النواحي، إلى أنْ يظهر فيه الفرد المتميّز بذهنيّة خاصّة، ما لم يتمّ غسل دماغه وفق عقيدة معيّنة.

وأفكّر: هل نُقدّر فعلًا عظمة لحظة الولادة؟ لماذا إذن يمضي معظمنا عمره وهو يحقن أبناءه بمعتقداته الخاصّة عوضًا عن أنْ ينقل إليهم هذا المشهد من قاعة الشاي عند العصر؟

هل أنا وحدي من يرى كلّ هذه الأمّهات والأطفال الأمَّ الواحدة التي أحبّ؟

فرحتي كبيرة بولادة حفيدي.

وسعيد أنا بهذه القاعة التي تحتضن كلّ هذه الوجوه المتنوّعة.

مستقبل حفيدنا رهن جوهر الإنسانيّة في أنّنا نولد أحرارًا متساوين. وليس رهن ما يريد الوالدان أنْ يكون الوليد عليه.

الإثنين 2016/10/10

# اسمي ياسمين

عمري الآن سنتان ونصف.

أكثر ما يستهويني، حين يقوم جدّي برعايتي الدوريّة أثناء غياب والديَّ للعمل، هو حين يصطحبني معه إلى مقهى قريب من محطّة قطار وولستنكرافت، الضاحية التي نقطنها في سيدني. نقوم بهذه الزيارة بعد أنْ نقضي الصباح في حديقة عامّة استمتع فيها بما يرشدني إليه جدّي من جمال الطبيعة، وما يساعدني في تجربيه من ألعاب مخصّصة للأطفال.

صاحبة المقهى ومساعدتها تعرفاني جيّدًا. الواقع، أنا من عرّفتهما على جدّي. تستقبلاني بابتسامتيهما وتعابير محبتهما، لكنّني أتماسك كبالغة راشدة، وأدخل المقهى بكلّ وقاري. أشير بجِدّ نحو صينية الكعك المكوّب المزيّن بطبقة سكّريّة زهريّة اللون، وأقول كما أقول حال دخولنا هذا المكان كلّ مرّة: "أريد من هذه يا جدّو، لو سمحت." طبعًا أنا أحدّثه بالإنكليزيّة، ومنذ وعيي أناديه "جدّو"، دون أنْ أدري في حينها أنّها اللفظة الشاميّة الدارجة في البلد الذي يرجع إليه أصله. وطبعًا لم يكن بمقدور أحد أنْ يقنعني باستبدال هذه اللفظة بغيرها بعد أنْ علّمتني إيّاها والدتي وجدّتي. حتّى أنّني ارفض أنْ أناديه "جدّو رغيد". لا حاجة لذلك. جدّي لأبي تومسلاڤ من أصل كرواتي (طبعًا أنا لا أعلم هذا بعد)، وأناديه "ديدا". لا أناديه "ديدا تومسلاڤ"، بحقّ السماء!

عمّا كنت أتحدّث؟ آه، نعم! بعد أنْ أشير إلى غايتي، وهو أمر معروف بوضوح لجدّو وللعاملتين في المقهى، أنتقل بثقة إلى إحدى الطاولات، وأرتقي كرسيًّا يواجه النافذة الكبيرة المطلّة على الحارة الضيّقة التي تصل بين الشارع العام ومنصّة القطار، فأراقب الركّاب بشغف: القادم منهم والمغادر.

يتأكّد جدّو من أنّ كعكتي المفضّلة ستذهب إليّ مباشرة. ويطلب هو قهوته "السادة" ووجبة "بيفبرغر".

حين يبدأ جدّو برشف قهوته، أكون قد قضيت على الطبقة السكّرية الخارجيّة التي تغلّف كامل الكعكة. واليوم، خلافًا لكثير من الأيّام، لم أتوّقف عند الطبقة الخارجيّة، بل التهمت كامل الكعكة؛ ويبدو أنّها ليست من الحلوى رخيصة الثمن. لكنّني لا أعلم هذا بعد. جدّو لا زال يحتسي قهوته.

عندما يصل البرغر، ألاحظ أنّ جدّو يستمتع به. سمعته مرّة يقول لوالدتي إنّ تلك السيّدة الإندونيسيّة في المقهى تُحَضّر ألذّ برغر في سيدني. يحاول جدّو تقاسم البرغر معي، لكنّني أريد اللحم فقط، وغير معنيّة بالسَلَطة الوافرة، أو شريحتي الخبز الطازج اللتين تحتضنان قرص اللحم، ولا حتّى الجبن، أو البيضة المقليّة التي يلمع صفارها كالذهب. أتناول اللحم، وأترك ما عداه لجدّو المسكين. طبعًا، حتّى حينه لم أكن أعلم أنّني أحرمه من أيّ شيء.

أعتقد أنّه ستمضي سنوات كثيرة قبل أنْ أسمع عبارة "حبّ بلا قيد أو شرط". أتمنّى فقط أنْ يكون جدّو لا يزال معنا حينها.

# اسمي يعقوب

وهكذا، لمجرّد أنّني لم أبلغ من العمر ثلاثة أشهر، وغير قادر على التجوّل والتعبير عن نفسي بشكل لائق، تأخذونني كأمر مسلّم به.

لكنّني أراقبكم. ولربّما أعلم أكثر بكثير ممّا تظنّون.

أعلم أنّكم تحتفون بأختي الأكبر ياسمين، التي تستطيع الآن التواصل معكم وتوضيح ما تريد.

ياسمين في الواقع تحبّني. تواصل الاقتراب منّي لتلمس رأسي بيدها وخدّها. وعادة ما تقول لي: "أحبّك." يا لها من طيّبة.

أسمعكم تتشكّون من أنّني دائم البحث عن صدر لأرضع. أوه! هذا صحيح. أحبّ الحليب الطازج. وإذا لم تلاحظوا، أعلم تمامًا من هي أمّي وأبتسم لها. كما أستطيع تمييز "فزّاعات" أخرى لا تكفّ عن الحوم حولي بين الحين والآخر، معبّرين عن أنفسهم بطرق مضحكة في محاولات منهم لجعلي أفهمهم.

الحقيقة لا يهمّني كلّ هذا، عدا الضوضاء التي يسبّبون. يصيبني الهلع حين يظهر بعضهم في وجهي فجأة ليصبّ أثقالًا من الحبّ فوقي. لا أعلم بعد أنّ هذا هدفهم الحقيقيّ، لكنّني أشعر بالتأثير المريع لهذا التصرّف. لهذا أنا مرتبك من هذا الأمر، وأحيانًا يساورني الشكّ أنّهم مجانين.

كلّ ما بإمكاني أنْ أقوم به هو أنْ أبكي كلّما شعرت بالجوع. هذا يعني أنّني أبكي معظم اليوم. ومن طريق هذا اكتشفت أنّ البكاء مفيد في تحريضهم على حملي وهزّي، وحتّى على الخروج بي إلى الشرفة.

أوه، كم أحبّ الهواء النقيّ!

# تعاطف

الخميس: اليوم الذي نقوم فيه برعاية حفيدتنا وحفيدنا، بينما يواصل والداهما العمل من المنزل بسبب تداعيات الوباء "الكوفيديّ" الذي يجتاح سيدني.

عادة كنت أحضر مع زوجتي لتقديم الرعاية، لكنّني الآن أقوم بذلك وحدي لأنّ القوانين تشدّدت، ويجب أن لا يقوم أكثر من شخص واحد بالزيارة. وبما أنّني أنجزت الجرعتين المطلوبتين من اللقاح، بينما زوجتي لا زالت تنتظر الجرعة الثانية، رأينا أنّ المهمّة تقع على عاتقي.

أصِلُ في الساعة العاشرة صباحًا، وأبدأ مباشرة في الإشراف على برنامج تدريس ياسمين، ذات السنوات السبع، من البيت. تقوم بمشاهدة بعض التسجيلات التعليميّة، وتحلّ المسائل، وتجيب عن الأسئلة ... كلّ ذلك وفق لائحة منظّمة ترسلها المدرسة من طريق البريد الإلكترونيّ. اللائحة تشرح الخطوات التي يجب أن يتبعها التلميذ، وتحدّد أوقات الراحة كما لو كان الأمر في المدرسة. والطريف أنّه حالما وصلنا إلى وقت الراحة أوّل مرّة كنت فيها مع ياسمين، كانت هي من نبّهني إلى ذلك، وطلبت منّي أن أعطيها ما جلبت لها من الحلوى، والتي يبدو أنّها كانت في انتظارها منذ الصباح.

عند منتصف النهار تمامًا يأتي موعد التواصل مع الصفّ المدرسي من طريق تطبيق "زووم". المعلّمة، ومساهمات التلاميذ والتلميذات، ترفع الرأس.

بعد ذلك مباشرة نجلس لتناول الغداء "الخميسيّ"، وهو ما أُحْضِر معي من المنزل من لبنة، وجبنة الحلّوم، وزيت وصعتر، وزيتون، وما تيسّر لي ممّا هو عادة عناصر الترويقة الدمشقيّة، لكنّ هذا ما يفضّله الحفيد والحفيدة، خصوصًا بوجود الخبز "العربيّ". يستمتعان بقيامي بتحضير "لفافات" حسب طلباتهما. أفتح ربع رغيف، وأضع فيه نوعًا أو أكثر ممّا

يروق للطالب حينها، وألفّ الخبز على نفسه على شكل "سيجار". ويلتهمان أكثر من سيجار!

بعد الظهر نمارس معًا نشاطات مختلفة تهدف إلى تنمية الذهن والترفيه معًا، بما في ذلك التمشّي في الضاحية العامرة بالأشجار، وارتياد أقرب حديقة عامّة، بما فيها من ألعاب.

عند الرابعة، أترك الحفيدة والحفيد يتشاركان في الاستفادة من بعضهما، مثل القيام ببناء عمارات من "ليغو"، وأراقب كيف يتعاونان على خلق مساحات جميلة من الأبنية، والمساحات الخضراء، والمزارع، ومحطّات القطار، وما تجود به قرائحهما وهما يتنافسان على إبراز عملهما المشترك في أحسن حلّة حتّى ينال استحسان الجدّ والأبوين، وحتّى الجدّة بالتواصل صوتًا وصورة على "واتساب". ولا أمانع بعد يوم مفيد حافل أن يستمتعا بمشاهدة التلفاز. أثناء ذلك أبدأ بتحضير العشاء للعائلة.

منذ صباح ذلك اليوم كنت أشعر أنّ يعقوب، حفيدنا، يريد أن يقول شيئًا. كان بين الحين والآخر يسألني متى تنتهي شقيقته من فروضها المدرسيّة. كان يعلم أنّ الأولويّة في الصباح لها بسبب الدراسة المنزليّة، مع أنّني لم أكن أتركه تمامًا، بل أعود إليه مرارًا لأرى ما يفعل، وأشجّعه. لكنّه، ولحسن حظّنا، لبقٌ لطيف المعشر. وكنت أعلم لو أنّ ذلك الشيء الذي يريد قوله عاديّ، لربّما سألني عنه في أيّ لحظة.

ما إن انتهينا من الغداء، والتفتنا إلى نشاطات العصر، حتّى رمى يعقوب عليّ قنبلته. نظر إليّ ابن الرابعة برهبة وترقُّبٍ وسألني: "من هم الأبورجينيّون يا جدّي؟ ومتى سكنوا أستراليا؟"

أحسست من تصرّفاته أنّه كان يعلم أكثر ممّا يصرّح، وأنّه أراد تأكيدًا لمعرفته من جهة يعتبرها موثوقة.

قلت له إنّهم السكان الأصليّون لهذا البلد، وإنّهم كانوا هنا قبل أن تسمّى أستراليا.

عاد يسألني ببعض التلعثم: "ولكن ماذا حلّ بهم؟ ماذا حلّ بهم؟"

بدأتُ أشرح، محاولًا عدم الوقوع في مأساة تفسير الحقيقة الأولى، أنّ الإنكليز حضروا للاستيطان في أستراليا منذ مئتي سنة، وتبعهم الأوروبيّون، ثم بشرٌ من كلّ أنحاء العالم، وها نحن هنا.

"ولكن ما حلّ بالأبورجينيّين؟"

أخبرته، بتردّد، أنّه نشبت بعض المعارك بين المستوطنين والسكان الأصليّين. عندها تدخّلت أخته، ذات السبعة أعوام، وقالت إنّ الإنكليز قتلوا معظم الأبورجينيّين.

نظر الصغير إليّ برعب أرعبني، وفي ملامحه سؤال. هززت رأسي مصادقًا على قول الشقيقة. عندها أدار رأسه بعيدًا عنّي، وبِصَمْتٍ مطبق رأيت قميصه يتبلل بغزارة دموعه التي حاول كبحها دون أن يفلح.

أدير رأسي بعيدًا، مداريًا دموعي وعذابَ كوني مُتعدٍّ آخر على حرمة هذه الأرض.

# الهديّة

"بابا، هل لك أن تناولني الكيس الأزرق من داخل حقيبة سفري؟"

أناول الكيس المطلوب لابنتي التي سبق أنْ ولدت طفلًا جديدًا ذلك الصباح. تفسّر لي أنّ الكيس يحتوي بضع هدايا تريد أنْ تدّعي أنْ الوليد الجديد جلبها معه ويريد تقديمها لشقيقته، طفلتها الأولى ياسمين، ذات السنتين من العمر، حين تعود من دار الحضانة لتقابل أخاها لأوّل مرّة.

حاولت أنْ أفسّر أنّ هذه الطريقة قد لا تكون المثلى في تقديم الأخت إلى أخيها. وأكّدت لها أنّنا لم نفعل ذلك حين رزقنا بأختها الأصغر، بل شرحنا لها أنّها لا زالت على الأهمّيّة عينها بالنسبة لنا، وأنّها الآن ستساعدنا في العناية بأختها التي تصغرها بثلاث سنوات.

تصرّ ابنتي على أنّ هذا ما تريد القيام به، وأنّ الجميع يقوم بذلك. أقرّ لها بأنّ هذا شأنها.

تصل ياسمين مع أبيها. تدخل غرفة المستشفى وترتسم على وجهها ابتسامة عريضة حين تراني. أردّ بابتسامة وتحيّة، لكنّني أقف بعيدًا عنهم، تاركًا للوالدين مهمة العناية بذلك اللقاء الأوّل بين الشقيقة وشقيقها.

تنظر ياسمين إلى أخيها بابتسامة تنمّ عن ذهول. وحين يقولان لها إنّ هذا أخوها، تعلّق قائلة: "طفل لي." وتدمدم وهي تشير إليه بذراع ممدودة.

تسرع ابنتي لتعطيها الهدايا وتعلمها أنّ هذا ما جلبه لها أخوها الوليد. تأخذ أوّل هديّة ملفوفة وتسرع محاولةً تقديمها إلى أخيها.

تصرّ والدتها: "هذا لك يا ياسمين، من الطفل يعقوب!" تدفع الأمّ بالهديّة نحو ياسمين، وتدفع ياسمين بالهديّة نحو أمّها قائلة: "لا ماما. طفل يعقوب. هذه الواحدة." تصرّ على تسليم الهديّة لشقيقها.

يفضّان غلاف الهديّة الثانية حتّى ترى ياسمين ما فيها علّها تنجذب إلى قبولها. تأخذ الهديّة وتصرخ بإعجاب: "أووووه!" وتصرّ من جديد على تقديمها لأخيها.

لا بأس ببنت السنتين التي تحاول إثبات أنّها أكثر حكمة من والديها.

الإثنين 2016/10/10

# أحبُّكَ بالثلاثة!

مشينا معًا ذلك الصباح. تحمل على ظهرها حقيبة المدرسة المحمّلة بالكتب وصندوق الغداء، والمزركشة بما علّقته عليها من حمّالات الألعاب المتناهية الصغر من سيّارات وحيوانات وشنطات، وهي هدايا أحرزتها من المعلّمات أو الأصدقاء.

وجهها مشرق ناصع بالأمل. تقول لي إنّها تحبّ المدرسة، وتسألني لو كنت أحببت المدرسة حين كنت من عمرها. تجنّبت الإجابة بمبادرتي بسؤالها عن برنامجها لذلك اليوم.

أمسَكَتْ ابنة السنوات السبع بيدي، ورفَضَتْ أن تتركها كلّ مسافة الدقائق العشر من البيت إلى المدرسة. فاجأتني حين أحسست بقبضة يدها الصغيرة تمعن بالشدّ على يدي، وحين التفتُّ إليها والتقى وجهانا قالت لي بابتسامة خجولة: "أحبّك يا جدّي." رأيت وجهها الجميل ينضح بكلّ مشاعري التي تسرّبت إلى كيانها في تلك اللحظة. انحنيت وقبّلتُ يدها التي كانت ملك يدي.

وقفنا نتأمّل أزهارًا صفراء تتشكّل كالعناقيد صارخة الجمال على إحدى الأشجار. عنقودان لا غير، يتفرّعان عن غصن واحد، هما آخر ما تبقّى مع نهاية هذا الخريف. نَظَرَتْ إليهما، وقالت ضاحكة: "لا بدّ أنّهما صديقان حميمان ... مثلنا."

صرنا في منتصف المسافة. ازداد الشدّ على يدي مرّة ثانية، وحين التقى وجهانا قالت: "أحبّك يا جدّي." ومرّة أخرى أنحني بكلّ طيبة خاطر، وأقبّل يدها، وأقول: "وأنا أحبّك كثيرًا."

أذهلتني فعلًا. أعلم تمامًا أنّها تحبّني، ولكن ما سرّ هذا اليوم؟ ألأنّه آخر يوم دوام قبل العطلة الفصليّة، وتعلم أنّ زياراتي ستتعلّق إلى حين؟

ودّعتها عند وصولنا بالعناق المعتاد، متمنيًّا لها يومًا مثمرًا سعيدًا.

للمرّة الثالثة، ردّت قائلة: "أحبّك يا جدّي."

وهل يجب أن يكون للحبّ الصادق أسباب وأسرار؟

# عندما كنت طفلًا

كلّما زار الأحفاد بيت الجدّ والجدّة، ينطلق الجميع إلى منتزه "بحيرات تشيريبرووك". منتزه جميل يقع على مسافة سير قصيرة من المنزل.

"التمشاية" على ضفاف البحيرة، والاستمتاع بنوافير المياه، ومشاهدة فراخ البط تنتظم في أرتال خلف أمّهاتها على صفحة الماء، والطيور التي تحلّق وتحطّ لاهية بين الهواء والماء والشجيرات والتربة، والأشجار الباسقة، والنباتات المورقة، والأزهار المتألّقة، وخشخشة الأوراق التي تفرش الأرض، والروائح التي تدمغ المكان بنكهته الخاصّة، خصوصًا رائحة الأوكاليبتوس، شجر أستراليا بامتياز، تشكّل تجربة روحيّة وجسميّة فريدة يميّزها الأطفال بذكاء.

قبل سنتين، حين كان عمر الحفيد سنتين، كان الجدّ وحفيده وبقيّة أفراد العائلة يستمتعون بهذه المشاهد وهم فوق منصّة خشبيّة تمتدّ فوق البحيرة لمسافة تكفي لتجعلك تشعر أنّك وسطها، والماء يحيط بك من كلّ الجهات.

وهم في غمرة هذا السحر، فلتت قنينة الماء من يد الحفيد، ووقعت في البحيرة. كان الحفيد يصرّ دائمًا على حمل قنينته معه. ولمعرفة الجدّ بأهمّيّة ذلك، ورؤيته الذعر الذي ارتسم على وجه الحفيد، كان عليه التصرّف بسرعة.

القنينة تنجرف تحت المنصّة مع تيّار الماء من جهة وقوعها إلى الجهة المقابلة المكشوفة. كانت واضحة من الفراغات بين الألواح الخشبيّة التي تشكّل أرض المنصّة.

انبطح الجدّ على الأرض في الجانب الذي توقّع ظهور القنينة منه، ومدّ ذراعه إلى أقصى حد من خلال قضبان الحاجز الذي يحمي المتنزّهين من السقوط، واستطاع التقاط القنينة بمجرّد أن ظهرت في الجانب المكشوف.

البهجة العارمة ارتسمت الآن على وجه الحفيد.

واليوم، والحفيد بلغ سنواته الأربع، كان بصحبة جدّته في ذلك المنتزه. وبمجرّد بدء مسيرهما فوق المنصّة، التفت إلى الجدّة وقال: "عندما كنت طفلًا صغيرًا، فلتت من يدي قنينة الماء هنا، وجدّي استعادها لي."

# طغيان التقانة ...
# وفضول الأحفاد

كلّ خميس نذهب إلى بيت ابنتنا للعناية بحفيدتنا وحفيدنا طيلة النهار.

تُحَضّر زوجتي أثناء ذلك ما طاب من الوجبات الشاميّة ليكون العشاء جاهزًا مع عودة ابنتنا وزوجها من عملهما، كما ينضم إلينا ابنتنا الثانية وزوجها بعد نهاية دوامهما أيضًا.

هذه هي عائلتنا الصغيرة في أستراليا، وهذا هو الاجتماع الأسبوعيّ المنتظم الذي يعني الكثير للجميع.

وسبق لي ولزوجتي، وزوجين صديقين، أنْ حجزنا بطاقات لحضور حفلة موسيقيّة غنائيّة، للإنكليزيّة الشهيرة إيلين بايج، على مسرح عريق في سيدني، صادف أنّها قادمة لحفلة واحدة يوم الخميس.

ولهذا كان علينا المغادرة قبل اكتمال السهرة العائليّة.

حين كنت في صميم مراجعة الوقت ووداع الأحفاد والآخرين، رنّ جرس هاتفي في جيبي، وحين أخرجته ظهر على الشاشة اسم صديقة عزيزة لم أكن أتوقّع منها أيّ مخابرة. حين تكلّمت إليها شعرت أنّها تسألني ما أريد، ما زاد في ارتباكي حرصًا على الوقت. قلت لها دون شعور: "هل أنا من كلّمك أم أنت التي طلبتيني؟" قالت: "بل أنت من كلّمني." اعتذرت لها وأعربت عن استغرابي، إذ كيف أكلّمها ولم أبحث عن اسمها، ولم أنقر عليه، بل لم أخرج الهاتف من جيبي قبل ذلك، وأنا المشغول بأشياء أخرى؟

بعد أنْ خرجنا من المنزل بسرعة، وأمّنا وصولنا إلى المحطّة القريبة، وأخذنا مكانينا في القطار، سارعتُ إلى الهاتف لأفكّ سر هذه المخابرة التي قام بها الهاتف تلقائيًّا.

اكتشفت أنّ المخابرة تمّت من طريق "واتسأب"، أحد جنّ الحداثة. وتذكّرت أنّني كنت أعرض على حفيدتي فيلمًا عن الحيوانات وصلني من طريق الواتسأب من صديق اسمه يجاور اسم صديقتنا في الأبجديّة. ويبدو أنّني حين أغلقت الفيلم وخرجت من الاسم، لم أخرج من التطبيق كلّه فبقيت لائحة الأسماء على الشاشة، ولا بدّ أنّ حَشْرَ الهاتف في الجيب أدّى مع حركة ما إلى ضغط اسم صديقتي. أقول هذا، ولا زلت غير مصدّق لما جرى، خصوصًا أنّني دائمًا أعيد وضع الشاشة إلى أصلها، وأغلقها قبل وضع الهاتف في جيبي. على كلّ حال كسبت سماع صوتها والاطمئنان عنها، وأكّدت لي أنّ هذا لم يزعجها أبدًا، وأنّها أيضًا كسبت الحديث معي.

هذا ذكّرني بحادثة شبيهة حصلت معي في شهر آذار 2018، وكنت حينها لا زلت أحتفظ بتطبيقَيْ الـ"ماسنجر" وفيسبوك على هاتفي. وكان أيضًا يوم خميس، وحفيدتي تريد الاطلاع على كلّ شيء، والمشاركة في كلّ ما أقوم به.

بعد أنّ فرَغَتْ من استعمال آلة التصوير التي كانت معي، وأثبتت لي أنّها قادرة على التقاط الصور وهي لم تبلغ سنتها الرابعة حينها، طلبَتْ أنْ تستعرض الصور. حين سلّمتها الكاميرا من جديد، لاحظتُ أنّها تعرف تمامًا أيّ زرّ يجب ضغطه لاستعراض الصور. تأمّلتْ الصور التي التقَطَتها بإعجاب، وضحكت لأشكال وجهي التي كنت أتلاعب بها لمسرّتها.

حين أمّنَتْ أنّني مسرور بها، طلبت منّي هاتفي المحمول، وقالت إنّها تعلم أنّ بإمكانها التقاط الصور به أيضًا. ما كان لي سوى الاستجابة وتعليمها الخطوات المناسبة. سرّها الأمر، التَقَطَتْ بعض الصور، ثم صارت تتنقّل بين التطبيقات المختلفة مأخوذة بألوان وأشكال تلك المربّعات التي تمثل أيقونات تلك التطبيقات. ورأيتها تتحرّك بسرعة من تطبيق لآخر من شدّة الإثارة، وبلمح البصر فتحت "ماسنجر"، وانتقت اسمًا، ونقرت على صورة الكاميرا لتتسبب في مخابرة متلفزة ما أردت حدوثها أبدًا. سارعتُ لانتزاع الهاتف من يدها وإيقاف المخابرة. لكنْ، كما يحدث أحيانًا، عاندني الهاتف

قليلًا رغم "كبسي" الشديد، ثم توقّفت المخابرة بعد أنْ سجّلت أنّي قمتُ بتلك المحاولة: "فلانة فاتها حديثُكَ المتلفز"، مع ذكر التاريخ والوقت. يا للخجل! ما كنت أريد أبدًا أنْ تعتقد فلانة أنّني كنت أحاول الاتصال بها.

الآن أستعمل هاتفي كهاتف فقط، ولا أحمل عليه التطبيقات الأخرى. ليس السبب الوحيد القصص أعلاه التي يمكن تلافيها، بل لا أريد أنْ أكون مدمنًا على تقانة تستهلك كثيرًا من الوقت، وأفضّل حصرها بحاسوب مكتبي، أزورها مرّة واحدة في اليوم إذا توفّر لي الوقت، أو متى شئت أنا، ولا أترك لها التعلّق بي في حلّي وترحالي.

أنا الذي يجب أنْ يسيطر عليها.

# مفردات عمق الإحساس

سمعت اليوم ابنتي تخاطب ابنها، الذي يناهز العامين، تحبّبًا بكلمةٍ لم أسمعها من قبل.

لا زالت ابنتي تتقن بعض العربيّة، ولكنْ منذ وجودنا في أستراليا، الذي مضى عليه ما يقارب الثلاثين عامًا، كان تعاملها دائمًا بالإنكليزيّة. يعزّز هذا أنّ زوجها أستراليّ ليست له بالعربيّة لا ناقة ولا جمل.

حين حضرنا إلى أستراليا كان عمرها لا يتجاوز الأحد عشر عامًا. مولودة في بريطانيا وتحمل جنسيّتها، وسبق لها قضاء طفولتها بين بريطانيا ودمشق واللاذقيّة. حين عدنا إلى دمشق كانت لهجتها إنكليزيّة بامتياز. وبعد استخدامها للّغة العربيّة، اكتسبت اللهجة الشاميّة التي تطعّمت لاحقًا بآثار من لهجة أهل اللاذقيّة.

أتعجّب أحيانًا، حين تتكلّم بالعربيّة الدارجة، كيف تستعمل مفردات شاميّة عتيقة لم أستعملها أنا في حياتي أبدًا، وإنّما من النوع الذي كانت تردّده جدّتي وعمّاتي. وأحيانًا تخرج منها بعض الكلمات وكأنّها بنت اللاذقيّة.

واليوم، التفتت إلى صغيرها وقالت بالشاميّة الدارجة: "**يا كمشة قلبي**."

وتأمّلتُ كيف يمكن للعقل الباطن أحيانًا أنْ يستنبط (أو يوظّف) المفردات التي يحاول فيها الفرد أنْ يوازي بين معناها وقوّة المشاعر التي يريدها (وهنا تحضرني كلمة "تقبرني" الشائعة كدليل على منتهى الحبّ).

"كمشة" في اللهجة الشاميّة الدارجة لها مدلولان في آن واحد. الأول "الإمساك" بالشيء. والثاني أنّ الحجم الممسوك يمكن احتواؤه في راحة الكفّ، لأنّنا نقول مثلًا "كمشة بزر".

سألتها من أين لها هذه العبارة. قالت: "من إحساسي."

# مفارقات عائليّة

## 1

الجدّ: "هل تعلمين يا ياسمين أنّكم ستقضون ليلة الميلاد عندنا؟"
ياسمين: "هذا جميل. هل ستقدّم لنا بعضًا من مفاجآتك؟"
الجدّ: "طبعًا، كالعادة. ولكنّني هذه المرّة أحضرت مفاجأة مثيرة لك ولأخيك يعقوب."
ياسمين: "هل لي أنْ أحزر ما هي؟"

بعد عدّة أسئلة وأجوبة وتلميحات، استطاعت ياسمين، ذات السنوات الخمس، أنْ تعرف أنّ المفاجأة هي مَرْكَبة تعمل بالتحكّم عن بعد، ثم سألت: "وكم لوحة تحكّم لها؟"
الجدّ: "واحدة."
ياسمين: "هذا يعني أنّني سأتقاتل عليها مع يعقوب."

أخ!

## 2

في مناسبات عنايتنا بالأحفاد، أعمد كلّ مرّة على إشغالهم بتحدّيات عمليّة وفكريّة.

توجّهت اليوم إلى حفيدتنا ذات السنوات الست، وقلت لها إنّ لعبتنا اليوم هي لعبة الأضداد، وشرحت لها المقصود، فقالت مباشرة: "يعني حين تقول 'ساخن'، أقول 'بارد'."

بدأنا اللعبة، وكانت دائمًا تعطي الجواب الصحيح إلى أن وصلنا إلى كلمة حين ذكرتها، نظرت إليّ نظرة عتاب وقالت بحدّة: "ولكنّي لا أعرف معنى هذه الكلمة!"

## 3

واحدة من ألعاب حفيدنا وحفيدتنا المفضّلة "مطعم مع خدمة التوصيل". ياسمين (ست سنوات) تقوم بدور المديرة والطاهية. يعقوب (أربع سنوات) يقوم بدور المساعد وسائق توصيل الطلبات. جدّو (حضرتي) هو زبونهما الموقّر.

غالبًا ما نقوم بهذه اللعبة على شرفة منزلهما الواسعة. أجلس أنا في طرف، ويقيمان "مطعمهما" في الطرف المقابل. يجلس يعقوب في سيّارته اللعبة، ويقودها جيئة وذهابًا بيني وبين ياسمين.

حين كنّا نرعاهما يوم الخميس هذا الأسبوع، وبعد عدد من الألعاب، توجّهتُ إلى الشرفة لإجراء مكالمة هاتفيّة بهدوء. جلست، دون قصد، في مكان "الزبون".

وبسرعة هرعا خارجَيْن، والتحق كلّ منهما بمكانه المعتاد لهذه اللعبة. لكنّ يعقوب طلب منّا الانتظار، ورجع إلى الداخل. أحضر ورقة وبعض أقلام التلوين، وجلس إلى مائدة الطعام منهمكًا فيما يخطّ.

حين انتهى، أسرع خارجًا إلى أخته يريها الورقة، ويقول إنّ المطعم المحترم يجب أنْ تكون لديه لائحة طعام.

انتظرت بشغف حتّى أرى نوع الكتابة التي يمكن أنْ تنتج عن طفل لا يعرف بعد كيف يكتب. ولكنْ حين قدّم يعقوب لي لائحة الطعام لأختار، تبيّن لي أنّه وجد طريقة مناسبة ذكّرتني باحتمال ما كانت عليه بداية الأبجديّات. ذهلت بما رأيته من رسوم مختلفة تشبه الكتابة الهيروغليفيّة.

أشرت إلى واحدة. قال هذه "بيفبرغر". وسمّى لي كلّ الرسومات. وكان كلّ مرّة يعرف ما يمثّل كلّ رسم.

## 4

غالبًا ما يُعلّق من لديه أحفاد اليوم كم ذكيّ هذا الجيل. وهذا تمامًا ما كنت أسمعه من والديّ وجيل أجدادي.

ولكن بتوفّر وسائل التطوّر التقانيّ بين أيديهم بشكل لم يسبقه مثيل، يبدو أنّ ذكاء الأطفال هذه الأيّام يتزايد بشكل أسرع، على الأقلّ من الناحية التقانيّة.

في اعتقادي أنّ الأهمّ من ذلك هو قدرة الطفل على إبداء لمسة من الذكاء العاطفيّ في خضمّ هذا الذكاء "الأوتوماتيكيّ".

ولهذا سرّني جدًّا ما حصل حين حضرت حفيدتنا وحفيدنا لقضاء أسبوع من عطلتهما المدرسيّة عندنا.

كانت الجدّة تحضّر العشاء الأوّل في هذا الأسبوع، وقرّرتُ أنا أن نتناوله في غرفة طعامنا "الرسميّة"، بما يتناسب مع ضيوفنا الكرام. نسّقتُ الطاولة كما أقوم بذلك عادة حين نستقبل الضيوف من الأصدقاء أو الغرباء.

اختارت الحفيدة مكانها، وكذلك الحفيد، واستقرّا باعتزاز (شعرا بأهمّيتهما) كما اتضح من بسمتيهما الوقورتين.

كان الصبيّ، ذو السنوات الأربع، عند لقمته الثانية فقط حين بدأ بالتعليق على لذة هذا الطعام وجودته. تكلّم وفي عينيه لمسة من دموع، وتابع قائلًا: "أتمنّى أن يكون والدي ووالدتي ينعمان الآن بعشاء جيّد كهذا أيضًا."

## 5

صادف هذا الخميس، وكنّا برعاية حفيدتنا وحفيدنا الدوريّة أثناء غياب والديهما للعمل، أنّه تاريخ ولادتي.

بمجرّد وصولي صباحًا تسرع حفيدتي ياسمين، ذات الأربع سنوات، لعناقي وتقول: "هابي بيرثداي جدّو."

يلحق بها أخوها يعقوب، ذو السنتين، متلهّفًا، ويعانقني بشدّة كأنّه يزايد على شقيقته، ويتلعثم بالكلمات ذاتها التي حاول ترددادها بعد شقيقته: "آبي بيثدي ددو." وهكذا جعلا من بداية اليوم فاتحة لنهار مميّز.

كانت ياسمين مرحة طوال اليوم، والسعادة تطفح من وجهها.

عاد والداها في المساء. تراقبهما وهما يحيّياني، ويقدمان هديتهما. بدا لي أنّ ياسمين تضمر على أمر ما، وتنتظر بشغف. وبمجرّد أنْ حضرت ابنتنا الثانية وزوجها، وقدّما لي تحيّاتهما وهديّتهما، أسرعت ياسمين إلى غرفتها وعادت بسرعة البرق لتقدّم لي بطاقة.

كان الظرف الذي حوى البطاقة مزيّنًا بما جاد به يعقوب من رسوم. وعلى وجه البطاقة خطّت ابنتنا بعض العبارات الحلوة نيابة عن العائلة. وعلى الوجه الآخر صمّمت ياسمين أشكالًا متناسقة باستخدام ملصقات ملوّنة.

جلسنا كلّنا لتناول العشاء العائليّ الأسبوعيّ. ونعم، قاموا بالنفخ على الشموع والغناء الذي جعل ياسمين ويعقوب قمّة في الحيويّة والحبور.

ولكنّ الاحتفال لم ينته ... أرادوا المزيد. أصرّوا على أنْ نجتمع كلّنا الأحد القادم في مطعم إفرنسيّ ليحتفلوا بي احتفالًا "حقيقيًّا" على حدّ تعبيرهم.

ما أقلّ ما يعلمون أنّ احتفالي الحقيقيّ هو في الواقع قضيّة مستمرّة: عندما أستيقظ كلّ صباح، وأعلم أنّهم جميعًا بخير وسلام وسعادة.

سيدني 2019/02/21

# 6

قرّرت الوالدة اصطحاب رضيعها آيدن، وابنتها ليلى ذات السنوات الثلاث، إلى حديقة حيوانات سيدني. ذهب معهم الجدّ الذي حضر أساسًا للمساعدة في العناية.

عادة ما تتضمّن رعاية الأطفال نشاطات مختلفة، والمسير واحدة منها حرصًا على اللياقة البدنيّة للجميع. الرحلة تضمّنت عشرين دقيقة مشي من المنزل في ضاحية "ولومولوو" إلى "سيركولار كي"، قلب المدينة، حيث استقلّوا عبّارة نقلتهم إلى موقع حديقة الحيوانات على الجانب الآخر من الميناء. التنقّل على الماء واحد من طرق المواصلات في سيدني، بما في ذلك ما يسمّى "تكسي الماء". هذه الرحلات، مهما قصرت أو طالت، من أهمّ وسائل المتعة للصغار والكبار.

عند حديقة الحيوانات، استقلّوا عربة معلّقة رفعتهم إلى مدخل الحديقة العلويّ. أرض المكان ليست منبسطة. تضاريسه تتدرّج وفق منحدر قويّ، ولذلك من الأسهل البدء من الأعلى والنزول مع تدرّج الطبقات المختلفة، منتقلين من مشاهدة حيوان إلى آخر. كذلك يتيح لهم اتجاه نزولهم التمتع بمناظر قلب المدينة بما فيها الجسر الشهير، ودار الأوبرا، وبرج سيدني. موقع الحديقة يجعلها من أفضل الأمكنة لذلك.

ليلى طفلة ذكيّة، واثقة من نفسها، صلبة الإرادة لدرجة العناد أحيانًا. كانت خلال كلّ مراحل الرحلة تريد القيام بكلّ شيء على مزاجها: المشي باستقلاليّة، بما في ذلك عبور الشارع، والوقوف لوحدها ضمن ازدحام المنتظرين لدخول العبّارة، صعود الدرجات التي تقود إلى مكان العربات المعلّقة، التجوّل في الحديقة، التسلّق على الحافّات أو الأسيجة، والجلوس أو الاستلقاء فوق مجسّمات الحيوانات الموجودة في أماكن متفرّقة.

كانت تكرّر وتعيد: "أستطيع القيام بذلك وحدي." "لا تلمسني." "أعلم." وطبعًا منحتها الأمّ والجدّ ما أمكن من الحريّة، ولكن كانا يجاهدان

في السيطرة عليها حين تتعلّق المسألة بالسلامة. وفي إحدى المرّات فسّر الجدّ لها عواقب ترك يده. ويبدو أنّها تفهّمت الأمر والتصقت بجدّها قابضة على يده. بيد أنّها عادت لاستقلالها بمجرّد أنْ شعرت أنّ الأمور أكثر ملاءمة.

استمتعت ليلى كثيرًا بالزواحف التي كانت تجوب أرجاء المكان بحرّيّة. كما أنّها استمتعت ببعض المقرمشات والبوظة.

في طريق العودة إلى المنزل، استراحوا في منتزه صغير. طلبت ليلى بعض الطعام مدّعية أنّها جائعة. أحضر لها الجدّ "ساندويتش" من كشك قريب، لكنّها أطعمت معظمه للطيور التي تحوم عادة حول المتنزّهين. ويبدو أنّ هذا ما كانت تنوي عليه أصلًا، كما كان أكثر ما استمتعت به.

بعد مرور النهار، وحين عاد والدها من عمله، وبمجرّد أن دخل من باب المنزل، هرعت إليه لتقول: "لقد كنت شقيّة في حديقة الحيوانات يا بابا."

# المؤلّف

الدكتور رغيد النحّاس باحث، ومستشار علميّ، وموظّف حكوميّ متقاعد.

عمل في عدد من المؤسّسات في لبنان وبريطانيا وسوريا وأستراليا.

أصدر وحرّر "كلمات"، المجلّة العالميّة للكتابة الخلّاقة بالإنكليزيّة والعربيّة، في سيدني بين 2000 و2006، بحصيلة 24 عددًا.

نُشرت أعماله الأدبيّة في عديد من الدوريات والصحف والمواقع. له مجموعتان شعريّتان، كلّ منهما باللغتين الإنكليزيّة والعربيّة، ومجموعة ثالثة بالعربيّة، وثلاث مجموعات نثريّة باللغة العربيّة.

تشمل ترجماته الشعر والنثر، وله في ذلك عشرات الأعمال، وأحد عشر كتابًا.

لمزيد من المعلومات عن النحّاس، والاطلاع على منشوراته يمكن الرجوع إلى موقعه الإلكتروني:
www.raghidnahhas.com

أو إلى صفحة مجموعته على فيسبوك:
Word and Image — The Writings and Photography of Raghid Nahhas

أحلم بقلب أبيض
في جسدورديّ الإبهار
في وطن سلامٍ
لا يسكنه غير الأبرار

**رغيد**

أسلوبك فنّيّ مباشر وصريح، ونابع من القلب والعقل، بلغة جميلة سلسة تحاور القارئ الذكي. أسلوب دمشقيّ عريق، ولكنّه أسلوبك أنت. كتابك يعطي القرّاء صورًا، ولوحات حيّة ممتعة وطريفة من تجارب الحياة.

**البروفسور أحمد هادي الشبول**

أكاديميّ وكاتب أردنيّ-أستراليّ

ونعيش مع د. النحّاس كمن يقرأ رواية عن شاب دمشقيّ درس في بيروت، فلندن، وهاجر إلى أستراليا، ونجح وكتب فأبدع، وحبّ الوطن الأمّ ظلّ يخترقه كصاعقة.

**الأديبة غادة السمّان**

تتنفّس النصوص التي يتضمّنها هذا الكتاب هواءها النقيّ من فضاءات تجربة ثرّة وعميقة حياتيًّا وإبداعيًّا.

**خالد الحلّي**

كاتب وشاعر عراقيّ-أستراليّ

في الكتاب خواطر وتأمّلات وتساؤلات عن الكون والناس والأشياء. فيه فلسفة شاعر متوقّد الحسّ، متلهّف لمعرفة طبيعة الإنسان. فيه رحلات روحيّة مجبولة بأنفاس مرهفة المشاعر.

**البروفسور بسّام فرنجيّة**

أكاديميّ وكاتب فلسطينيّ-أمريكيّ

دار نلسن

9 786145 020028